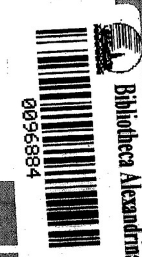
عالم المعرفة

قضايا إفريقية

د. محمد عبد الغني سعودي



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت



قضايا إفريقية

د. محمد عبد الغني سعودي

٣٤ ـ ذو القعدة ذو الحجة ١٤٠٠ هـ / اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٠ م

المراسلات :

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

قَضَايَا إِفْرِيقِيَّة

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

مقدمــــة

اذا تصورنا الكرة الأرضية ، فان افريقية تبدو فيها كبيرة حجماً، فهي ثاني أكبر القارات مساحة، اذ تغطي نيفاً وثلاثين مليوناً من الكيلومترات المربعة، وتمتد في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي، وعلى كل ركن من أركان العالم الأربعة تطل بنافذة، من نافذة البحر المتوسط تطل على أوربا، ومن نافذة المحيط الأطلنطي غرباً تطل على العالم الجديد، ومن نافذة المحيط الهندي تطل شرقاً على آسيا، بينما تطل جنوباً على القارة القطبية الجنوبية عبر المحيط الجنوبي، وتتنوع مظاهر الطبيعة في القارة من الغابات الكثيفة الى الصحارى الجرداء، ومن الجبال الحادة التضاريس الى السهول الفسيحة والهضاب المنبسطة، كذلك كان التنوع في سكانها البالغين نيفاً وأربعمائة مليون نسمة، يتفاوتون مابين أكثر سكان العالم طولا عند الواتوتسي (بوروندي)، وأقصرهم ممثلين في أقزام زائير، ضمت سلالات الأرض جميعا من الزنجي الى القوقازي، وحتى المغولي الصيني تظهر ملامحه فى ملاجاشي .

وزاد من التنويع العرقي دخول الاوروبيين والآسيويين واستيطانهم في شرقها وجنوبها، وتظهر مجموعة المولدين الذين نتجوا عن اختلاط الأوروبيين بالعناصر الافريقية والمعروفون بالملونين في جنوب أفريقية أو المستيزو في أنجولا وموزمبيق ، والذين يضمون أيضاً سلالة الملاوية والأندونيسية التي جلبها الهولنديون الأوائل الى جنوب أفريقية للعمل في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

واذا كانت نيجيريا اكثر دول افريقية سكاناً، اذ يبلغون نحو ٧٦ مليون نسمة، فان هناك ثلاث عشرة دولة افريقية يقل سكان كل منها عن المليونين، ولذلك فالقاعدة السكانية لكثير من الدول الافريقية تعتبر واهية ولها آثارها

السياسة والاقتصادية، خاصة اذا كانت في دول كبيرة المساحة كموريتانيا، وتشاد، والنيجر، ومالي، حيث تظهر مشكلات اقتصادية وادارية وسياسية نتيجة هذا الوضع.

وافريقية من أكثر القارات تفتتاً من الناحية السياسية، تضم نحو ٥٠ وحدة سياسية لا يعادلها في ذلك قارة من قارات العالم الأخرى، وتختلف الدول الافريقية حجماً، فمساحة ساوتومي و برنسيب ٩٦٧٢ كيلومترا مربعا أما السودان أكبر الدول الافريقية فتبلغ مساحته مليونين ونصف مليون كيلومتر مربع، و يعبر هذا التنوع الطبيعي والبشري في أكثر من مناسبة عن نفسه في كثير من القضايا الافريقية التي تطفو على السطح، ولنأخذ مثلا بسيطا السنغال وكينيا وأنجولا، من حيث اللغة الرسمية والنظم الادارية والنظم التعليمية، بل وهندسة البناء، والمحاصيل التي تزرع، مما يعكس الارتباطات الاستعمارية بفرنسا و بريطانيا والبرتغال، و يكفي أن نضرب مثلا بالجزائر أيضا حيث كان الاستعمار الفرنسي والمستوطنون الفرنسيون، الذين اهتموا بزراعة القمح والكروم كامتداد لتقاليدهم الزراعية في فرنسا، على عكس المستوطنين الهولنديين (البوير) في جنوب افريقية، الذين كان همهم الأول تربية الماشية، كامتداد لتقاليدهم الزراعية في موطنهم الأول هولندا. و يبدو التنوع أيضا حتى في المذاهب والايديولوجيات المختلفة التي اتبعتها الحكومات الافريقية، ورغم أن معظم الشعوب الافريقية مازالت على درجة ليست كبيرة من الوعي السياسي بهذه المذاهب، فان هذه المذاهب المتباينة لاشك تؤثر في النسيج الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لهذه الدول، وقد ظل الاهتمام بافريقية هامشيا حتى الستينات، وليس من شك أنه من الأهمية بمكان توضيح أسباب هذا الاهتمام العالمي المفاجىء في السنوات الأخيرة، ويمكن القول بأن هناك أربعة أسباب رئيسية لهذا الاهتمام وهي :

أولا :ـ

ذلك العدد الضخم من المستعمرات الافريقية التي حصلت على الاستقلال ودخلت في عداد الدول المستقلة، و بذلك تعتبر كتلة لها وزنها في المجتمع الدولي

اذا ما اتحدت وتكاتفت .

ثانيا :ـــ

زاد اهتمام العالم بافريقية كمخزن رئيسي لكثير من المعادن الرئيسة والاستراتيجية كالبترول واليورانيوم والكروم والنيكل والنحاس والذهب والماس فضلا عن بعض السلع الزراعية كنخيل الزيت والفول السوداني والكاكاو، والقطن والسيسل، والتبغ، والبن، فضلا عن الصوف والجلود، وهي كمصدر للثروة الاقتصادية زادت أهميتها اليوم عما كان الحال ابان الفترة الاستعمارية، وزادت فيها الاستثمارات الأجنبية عن ذي قبل .

ثالثا :ـــ

أهمية افريقية الاستراتيجية للقوتين العظميين سواء بالنسبة لحوض البحر المتوسط، أو الشرق الأوسط، أو المحيط الهندي، أو الأطلنطي الجنوبي، وقد أصبحت القارة فعلا أرض صراع بين القوتين .

رابعا :ـــ

و يرتبط هذا السبب الأخير بالعوامل الثلاثة السابقة وان كان أهمها جميعا فيما يختص بزيادة الاهتمام العالمي بها، وهو أن افريقية أكثر القارات التي غطاها الاستعمار، وآخر قارة انكشف عنها، وأصبحت اليوم ساحة تتنافس عليها مختلف أشكال الاستعمار الجديد، وأرض صراع وتحدٍّ ايديولوجي بين الشرق والغرب .

واذا كان اهتمام العالم بافريقية يتزايد و يطرد فينشىء لها المعاهد المتخصصة، والدراسات التفصيلية، فأظن أننا نحن العرب ملزمون قبل غيرنا بفهم أوضاع القارة ومشكلاتها، حتى نكون على صلة بما يدور ويجرى حولنا، ولما كان العالم قد انكمش نسبيا بسبب ثورة وسائل النقل والاتصال، بحيث اختصرت المسافات وقربت القاصي، فكيف لا نلم بافريقية وهي تمثل الجزء الأكبر من أراضينا من ناحية، والباقي منها يتاخمنا من ناحية أخرى، وما يحدث فيه يؤثر فينا تأثيرا يكاد يكون مباشرا، ولا ننسى أن أكثر من ثلث سكان القارة الافريقية عرب، أو ذوو قربى للعرب.

والمشكلة هي أن معرفة افريقية في وطننا العربي تتم في معظمها عن طريق وسائل الاعلام التي تعطي صورة مليئة بالخلط والتعقيد، ولا تعطي فكرة صحيحة عن أوضاع القارة ومشكلاتها، بل تقدم صورة تتصف بالعمومية الزائدة .

ولذلك وجدنا أنه قد يكون من المفيد أن ندلي بدلونا في عرض بعض الصور والجوانب الخاصة بالقارة، واخترنا بعض القضايا التي نعتقد أنها قد تكون بعيدة عن التداول، وسلطنا عليها الضوء وهي :ـــ

مكانة افريقية في العالم، وقضية العرب وافريقية، وقضية اللغة، وقضية الزنوجة، وانتهينا بقضية الوحدة القومية .

فان كنا قد وفقنا بعض التوفيق في ايضاح هذه القضايا فهذا غاية ما نبغي، وما توفيقنا الا بالله .

محمد عبد الغني سعودي

افريقية والعالم

افريقية في تاريخ البشر

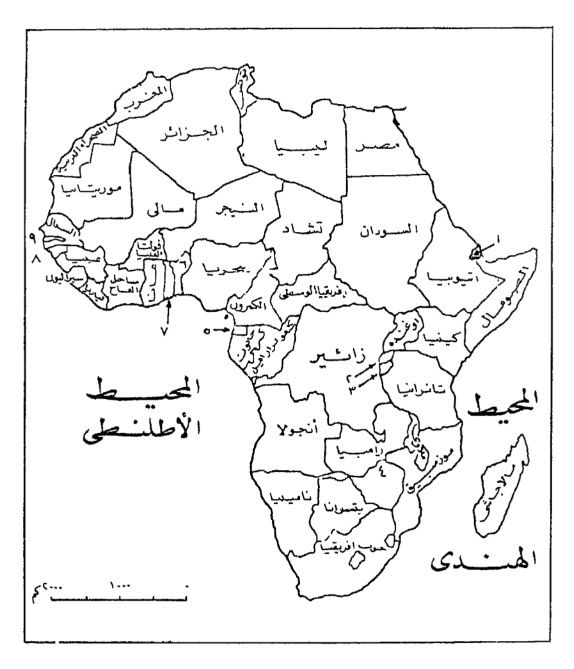
تاريخ افريقية القديم هو تاريخ الحياة البشرية الأولى على سطح الأرض وتطورها عبر فترة تقدر على الأقل بنحو ثلاثة ملايين عام، لأنه أصبح من المسلم به الآن، وعلى نطاق واسع بأن افريقية هي مهد الانسان الأول، فحتى وقت قريب كان من المرجح أنه نشأ في مكان آخر، ليس في أوروبا، ولا في الامريكتين، بل في آسيا وجنوب غربيها على وجه الخصوص، ولكن عدل عن هذا الرأي بفضل أبحاث وحفريات دكتور ليكي * .Leaky, L.S.B وزوجته في شرقي افريقية واكتشافه في يولية عام ١٩٥٩ لجمجمة حفرية لنوع بشري (وهو إما مخلوق بشري أو من أسلاف البشر) يرجع تاريخه الى ما يقرب من مليوني سنة، وقد وجد بجانب الجمجمة بعض الآلات الحجرية وقطع من عظام الحيوانات التي اصطادها وأكلها في ذلك الموقع. ورغم أن هذه الجمجمة لم تكن أولى الحفريات البشرية التي اكتشفت في افريقية، فإن وجود تلك الالات الحجرية بجوارها معناه قدم وجود أسلاف البشر الذين توصلوا الى مستوى تقني بدائي لمعرفتهم صناعة الآلات الحجرية، وقد أطلق ليكي على هذه الحفرية لفظ القرد الجنوبي(١)Australopithecus لشبهه بنظيره الذي اكتشف في افريقية الجنوبية، وأطلق عليه أيضا كاسر البندق Nutcracker وذلك لضخامة ضروسه، التي كان يستعملها لكسر العظام وطحن النباتات والحبوب الجافة، كما أطلق عليه الانسان الصانع Homo Habilis أي الانسان الذي يصنع الآلات. هذا وقد تم

---

* يعتبر دكتور ليكي من أشهر علماء ما قبل التاريخ، تخصص في حفائر ما قبل التاريخ في شرقي افريقية، وخاصة الاخدود الشرقي، وله أبحاث عديدة، ويعمل مديرا لقسم ما قبل التاريخ في متحف كينيا الوطني.

اكتشاف حفريات أخرى تنتمي لهذه الفترة في شمال افريقية أيضا، في المغرب وتونس، ووجدت معها آلات حجرية متنوعة، وان كانت كلها صغيرة الحجم لا يتعدى طولها ثلاث أو أربع بوصات ... ومن المرجح أن ذلك الانسان كان حجمه صغيرا وطوله أقل من خمسة أقدام، وقوته العضلية أقل من الانسان الحالي ومخه صغيرا يتراوح حجمه بين ٥٠٠، ٦٠٠ سم٣ (٢)، وأنه كان يعيش في مجموعات صغيرة تتراوح بين عشرة الأفراد والخمسين فردا.

وفي زمن متقدم نسبيا أو منذ نحو مليون سنة ظهر نوع بشري أكثر تطورا، أطلق عليه : الانسان المنتصب القامة، Homo erectus (٣) أو صاحب الحضارة الأشولية، وعثر عليه في جاوة بفضل أبحاث دكتور يوجين ديبوا Eugene Dubois وقد وجد هذا النوع البشري في جهات عديدة من افريقية في شرقها وشمالها وجنوبها. و يتميز بأنه أقرب الى النوع الحالي فيتراوح حجم مخه بين ٧٧٠ سم٣ الى ١٢٢٥سم ٣، ومنه ما بلغ ١٦٠٠ سم٣ وكان يقف منتصبا، وكانت لديه القدرة على صناعة آلات وأدوات أفضل، بل وتعلم الآخرين كيفية صنعها، ومما يدل على أنه كان أكثر تطورا أيضا تنوع آلاته وكبر حجمها كالفؤوس، والمكاشط التي كانت تصل الى ثماني بوصات طولا، والتي كان يصنعها من الكوارتز أو أي حجر مناسب، و يبدو أنه كان لديه وعي بجمال المظهر، ففي احدى المواقع التي عثر فيها على تلك الآلات في أولدفاي (٤) (شرق افريقية) وجدت معها قطع من أكاسيد الحديد، الذي مازال يستعمل لتلوين الجلد باللون الأحمر، وبالبحث عن مصدر هذه الأكسيد، وجدت أنها تقع على بعد ٥٠ ميلا من هذا الموقع، مما يدل على أن انسان هذا العصر قد جلبها من هناك الى معسكره، وكان انتشار هذا النوع البشري في جهات كثيرة من افريقية وأوروبا وآسيا، مما يدل على أنه كان باستطاعته أن يكيف نفسه، وأنه كان قادرا على استخدام آلاته وذكائه للحصول على الطعام والمأوى، وحماية



شكل رقم (١) خريطة افريقية السياسية

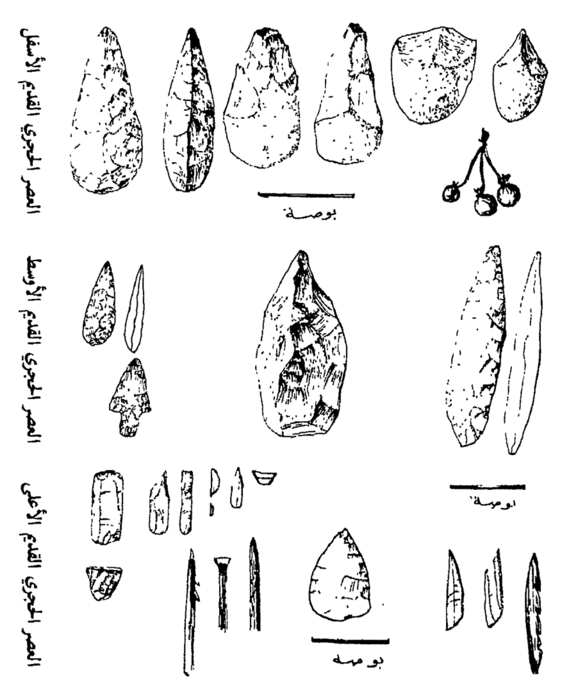
١ــ جيبوتي ٢ ــ رواندا ٣ ــ بوروندي ٤ ــ زيمبابوي (روديسيا)
٥ ــ غينيا الأستوائية ٦ــ بنين ٧ ــ توجو غينيا بيساو ٩ ــ غمبيا .

ويلاحظ في حالة الصحراء الغربية أن موريتانيا تنازلت عن القسم الذي استولت عليه لجبهة البوليزاريو بينما تحتفظ المغرب بالقسم الذي سبق أن مدت نفوذها إليه، ومازال الاقليم يمثل مشكلة .

نفسه والدفاع عنها ضد اعدائه الطبيعيين في بيئات مختلفة تتراوح بين الباردة والدفيئة، ولم يسكن في افريقية أقاليم الغابات، ولكن انتشاره كان واسعا في أقاليم المراعي في شمال وشرق وجنوب القارة، وقد ظهرت أكوام من الصخور في كثير من المواقع التي كان يحتلها كما هو الحال في الورجيسايلي Olorgesailie في كينيا (٥) و يبدو أنها كانت تستخدم كمصدات للرياح أو كنوع من المأوى، ومن المعتقد أنه كان يتغذى بالمواد النباتية والحيوانية معا، ولكن الشواهد تدل على أنه كان يصطاد الحيوانات الكبيرة الى جانب الصغيرة، ففي الموقع السابق الذي ذكرناه في كينيا، وجدت هياكل عظمية لأفراس النهر مع بعض الأدوات الكبيرة الحجم، والمرجح أنها صنعت خصيصا لتقطيع تلك الأنواع الكبيرة. ولذلك يظن أن الانسان المنتصب القامة استخدم تقنيات مختلفة لاكتشاف هذه الحيوانات الضخمة واصطيادها وقتلها، ومن المعتقد أنه كان بامكانه التحكم في النيران بحيث يشعل الحرائق، فيدفع الحيوان في اتجاه معين حيث ينتظره عدد من الصيادين بالحراب فيرمونه بالحجارة الثقيلة.

ورغم تفوق هذا النوع البشري فانه كان أقل ذكاء وابتكارا من خلفه الانسان العاقل Homo Sapiens أو الانسان المفكر thinking man ، فلقد ظل الانسان المنتصب القامة لفترة تبلغ نحو نصف مليون سنة وهو مستمر على حياته التي ذكرناها، وصانعا نفس تلك الأدوات مع تطور بطيء للغاية، لذلك فقد كتب عليه الاختفاء كأسلافه من البشر لذكائه المحدود وقلة حيلته، ومفسحا الطريق لخلفه انسان العصر الحديث، الانسان العاقل.

ولقد اتفق اختفاء الانسان المنتصب القامة وظهور الانسان العاقل مع تغيرات مناخية رئيسية شملت القارة الافريقية بأكملها كما شملت بقية أجزاء العالم. اذ اتفق هذا مع آخر الموجات الجليدية التي بدأت منذ سبعين ألف عام، وانخفضت فيها درجات الحرارة في كل انحاء الكرة الأرضية،



شكل رقم (٢) آلات العصر الحجري التي اكتشفت في حفريات انسان ما قبل التاريخ في شرق افريقية (لاحظ انها تستدق حجما كلما تطور الانسان، قارن آلات العصر الحجري القديم الاسفل بالعصر الحجري القديم الأعلى)

هذه الاشكال منقولة من كتاب

Pasnansky m., Prelude to East African History, O.U.P., 1966, pp. 35, 45

وازداد حجم وامتداد الغطاءات الجليدية في القطب الشمالي والجنوبي، وأصبح جزء كبير من شمال وشرق افريقية أكثر رطوبة، فانتشرت الأشجار والحشائش في أراض تغطيها الحشائش أو الصحاري في الوقت الحاضر، وأجبرت الغابات المدارية الرطبة على التقهقر والتقلص في المساحة. هذه التغيرات العظيمة في المناخ أثرت بلا شك في الحياة النباتية والحيوانية، من ثم فخلال هذه الفترة انقرضت الحيوانات العشبية الضخمة مفسحة الطريق للأنواع الحديثة. ولا بد أن العصر الجليدي قد واجه الانسان المنتصب القامة والانسان العاقل بصعوبات وتحديات خطيرة للغاية، ويستدل من بقايا الحفريات البشرية والادوات المستخدمة على أنه حدثت تطورات خطيرة في الفترة الممتدة من ٧٠ ألف الى ٣٥ ألف عام ق. م، أهمها اختفاء الانسان المنتصب القامة، وظهور الانسان العاقل، الذي أطلق عليه في أوروبا انسان نياندرتال، وفي افريقية انسان روديسيا (٦)، ولا يختلف في صفاته الجسدية عن الانسان الحالي الا في ضخامة جسمه بعض الشيء مع اختلاف في الوجه والرأس، فما زال لديه الفكان الضخمان والاسنان الكبيرة التي تميز النوع البشري في مراحله الأولى فضلا عن بروز عظام الحاجبين، ولكنه منتصب القامة تماما، ويزيد حجم مخه على ١٢٠٠ سم^{3} ويبلغ طول قامته نحو خمسة أقدام وست بوصات. وقد مرت صناعة الأدوات التي استخدمها هذا الانسان العاقل بتطورات خطيرة، بل وثورية خلال هذه الفترة، بالمقارنة بنصف مليون السنة السابقة التي عاشها الانسان المنتصب القامة، فظهرت تقنيات جديدة في صناعة الأدوات الحجرية، وأنواع جديدة من الأدوات والخامات المشتقة منها تلك الأدوات، فلم تعد الصخور هي الخام الوحيد، بل استخدمت عظام الحيوان والعاج، وكان لكل نوع استخدام خاص، يتفق والاقليم الذي صنع فيه، فهناك المكاشط، والسكاكين، والحراب، ونصال الفؤوس، وغيرها، مما استعمل في نشاط ذلك العصر، وكان موجها أساسا لجمع النباتات البرية والصيد. وأنتج ذكاء الانسان العاقل هذه الأدوات مهذبة ومعدة بطريقة تدل على

المهارة، فكانت أكثر فعالية، سواء في الحفر أو القتل أو السلخ والقطع، كما نشطت الصناعات الجلدية التي كانت من مميزات العصر الحجري الوسيط، لذلك تعددت الانواع الحيوانية التي استطاع اصطيادها، وبلغت في احدى المواقع ثمانية وثلاثين نوعا، وكان ظهور عدة مواقع تحتوي على عظام حيوانية أسفل الجروف الصخرية معناه ان الانسان كان يتبع طريقة خاصة لمطاردة الحيوانات الى الجروف الصخرية حتى تسقط، وعندئذ يقوم بسلخها وأكلها عند حضيض تلك الجروف، وربما استخدمت النيران لمطاردة تلك الحيوانات. هكذا أشارت حفريات هذا الانسان في النوبة المصرية، وفي بُرقة بليبيا وفي المغرب وروديسيا وجنوب افريقية وأنجولا.

ولا بد أن ذلك الانسان كان يحيا حياة جماعية عرف فيها التعاون لمطاردة الحيوان والدفاع المشترك ونظام القرابة، ولا يمكن للتقنية التي وصل اليها ان تنتقل لو لم يكن لديه القدرة على التعبير بطريقة بدائية وخاصة لتعيين أسماء الأشياء (٧).

وتبرز افريقية حتى الآن كأقدم موطن لحفريات ذلك الانسان العاقل، فقد اكتشف دكتور ليكي منذ سنوات عددا من أجزاء الجماجم التي تنتمي الى انسان العصر الحديث بالقرب من خليج كافيروندو في غرب كينيا، وقد عمرها بما بين ٥٥ الف، ٦٠ الف عام ق. م، وبذلك تعتبر أقدم بقايا لانسان العصر الحديث، الانسان العاقل، بينما نظائرها في أوروبا ترجع الى ما يتراوح بين ٣٠ ألف و ٤٠ ألف عام ق. م، لذلك فمن المحتمل ان القارة الافريقية هي أم وأب البشرية كما يقول دافيدسن. واذا كانت صناعة الأدوات في العالم أجمع قد مرت بالمراحل المعروفة، وهي مرحلة العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الوسيط (الادوات من الحجارة والعظام)، ثم العصر الحجري الحديث، حين أصبحت صناعة الأدوات الحجرية أكثر دقة، وارتبط ذلك العصر بمعرفة الزراعة كوسيلة للحياة، فان ذلك العصر ظهرت فيه الادوات المصنوعة من المعادن الى

جانب الأدوات الحجرية والتي بدأت تختفي تدريجيا بظهور عصر البرونز والحديد. وفي هذه الفترة انتشرت الزراعة حيثما كان المجال مناسبا، وكانت الزيادة الزراعية من نصيب مصر القديمة التي أطلق عليها مهد الحضارات، وترتب على ذلك استمرار الانسان ونشأة المدن وظهور أقدم دولة في التاريخ.

وهكذا لم تكن افريقية بمعزل عن موكب الانسانية في تقدمه، بل كانت في مقدمة هذا الموكب في العصور التاريخية أيضا، وكان وهما ما قاله المغرضون بأن افريقية لم تخلق فكرا ولا أدبا ولا حكمة ولا فنونا، فقد كان شمال افريقية جزءا من الامبراطورية الرومانية له قدره ومكانته، كان شونة الحبوب التي تمد روما بحاجتها من القمح والشعير، ونمت وازدهرت مدن شمال افريقية، وما زالت بقاياها وإن تغيرت اسماؤها، وقدّم شمال افريقية الى الكنيسة المسيحية في عصورها الأولى واحدا من أكبر رجالات الدين المسيحي، وهو القديس أو غسطين، واذا كانت الحضارة الرومانية قد أخذت عن الحضارة اليونانية التي ظهرت في كريت واليونان، فان هذه كان أساسها الحضارة المصرية القديمة.

وفي العصور الوسطى حين كان بارونات انجلترا وسكوتلندا يقاتل بعضهم بعضا بشراسة، وحين كانت سفن الأوربيين عاجزة عن الوصول الى المحيط الهندي أو حتى عن ساحل غرب افريقية كان ملوك وسط افريقية ومستشاروهم يأكلون في صحاف الصين تأتيهم من ذلك القطر القصي البعيد، وقامت ممالك مستقرة في جنوب الصحراء مثل مالي وصنغى وغانا، لها حكامها وجيوشها ونظمها.

واذا ضربنا مثلا بدولة مالي في عهد منسي (الحاكم) موسى (١٣١٢ م — ١٣٣٧ م) نجد أنها بلغت الأوج من حيث التنظيم السياسي واستتباب الأمن والغنى وازدهار العلم والمعرفة، وازداد ارتباطها بمصر وشبه جزيرة العرب وقامت منها قوافل الحج الى مكة مارة بمصر، وأهمها قافلة

منسي موسى المحملة بالذهب، وفي عودته الى بلاده اصطحب معه علماء من الحجاز ومن مصر ليعلموا شعبه، وقد شيد أحدهم قصرا للحاكم ومسجدا في تنبكت (يطلق عليها الآن تنبكتو) مستخدما الطوب لأول مرة، وأصبح جامع تنبكت ومكتبته بمثابة منارة للعلم يتبادل العلماء مع الأزهر في مصر، و يضم مكتبة مليئة بالمخطوطات النادرة، وأنشئت المدارس لتعليم القرآن والفقه والشريعة. وما ان هلّ القرن السادس عشر حتى كان علماء المسلمين يكتبون في موضوعات عديدة تاريخية وقانونية وأخلاقية ودينية. ومن أشهر من كتب بالعربية من أبناء غرب افريقية في ذلك الحين محمود كعت (تاريخ الفتاش) وعبدالرحمن السعدي (تاريخ السودان) وأرسى أمثال هؤلاء حب المعرفة والاقبال على العلم (٨).

وفي ذلك العصر الوسيط أيضا تجول على ساحل شرق افريقية (عام ١٣٣١ م) رحالة مغربي من فاس، وكتب ابن بطوطة انه وجد السلام والثروة في كل المدن التجارية للساحل الشرقي من الشمال الى الجنوب سواء في مجديشو، أو ماليندي، أو ممبسة، وان كانت مدينة وميناء كيلوا قد استأثرت بانتباهه، فذكر أنها أجملها جميعا، وقد استقبله حكام هذه المدن وتجارها بحفاوة بالغة، وأكرموا وفادته، وكانت كتب التاريخ من قبل تذكر بأن هذه المدن ليست افريقية، ولكن الباحثين المنصفين يذكرون أنها كانت مراكز للحضارة والمدنية في الفترة من القرن العاشر الى القرن السابع عشر الميلادي، وكانت حضارتها افريقية، حضارة السواحيلي التي ترجع في نشأتها الى اكثر من الف سنة قبل ذلك. وقد اتسعت تجارة هذه الموانئ في العاج والذهب ووصلت سلعها الى الصين. وظلت على حالها حتى دمرها البرتغاليون بعد عبور فاسكوداجاما رأس الرجاء عام ١٤٩٧، وبدأ عصر الظلمة بدخول الأوربيين.

وفي ميدان الفن، انظر الى ما قاله Hans Rhotert مدير متحف ليندن في شتوتجارت عن الرسوم والنقوش على صخور الصحراء

الكبرى : من المحتمل أنه لا يوجد إقليم على وجه الأرض يضم ثروة هائلة من الصور المرسومة أو المحفورة على الصخر بيد انسان ما قبل التاريخ مثلما وجد في أودية وسفوح الصحراء الكبرى، من جبال أطلس الصحراوية الى جبال الأحجار واير وتاسيلي وتبستي الى هضبة الجلف الكبير والعوينات. ونظرا لطبيعة الصحراء وقسوتها كان جزء كبير من الاكتشافات يرجع الى القوات الاستعمارية في توغلها في الجهات البعيدة، لذلك فرغم العدد الضخم من الرسوم على صخور الصحراء نجد أنه ينقصها النظرة الأصولية الشاملة.

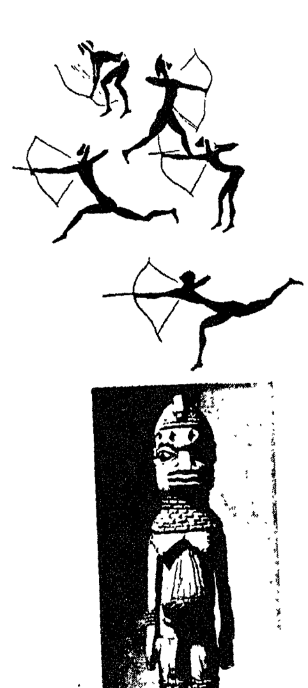
ومع ذلك فقد بدأت بعثات لدراسة رسوم ونقوش الصحراء بطريقة مكثفة، ومن أهم من قام بمثل هذه الدراسة الباحث الفرنسي هنري لوت Henri Lohote الذي قام هو ورفاقه بدراسة مكثفة لرسوم جبال تاسيلي حيث تكثر النقوش على الحجر الرملي السهل الحفر، وقامت قبله سيدة سويسرية تدعى جولاند تشودي Jolande Tshudi بزيارة ناجحة الى تلك الجبال ونشرت مجلدين عن رسومها عام ١٩٥٦.

ورغم انه لايوجد اتفاق على تاريخ محدد لهذه النقوش، فإن هناك اجماعا على أنها ترجع الى ما بعد العصر الجليدي Post glacial ، أو بمعنى آخر الى العصر الحجري الحديث، فأقدم ما تمثله تلك النقوش والرسوم في الصحراء الكبرى أناس يعيشون على الصيد والجمع والالتقاط، أما الحيوانات فهي الحيوانات الضخمة التي تنتمي لذلك العصر، كالفيل والأسد والزرافة وبدرجة أقل الجاموس وفرس النهر والتمساح والنعامة، ولما كانت الصحراء الكبرى قد تمتعت بمناخ رطب دفيء فيما بين ٥٠٠٠، ٢٥٠٠ ق. م، فان ظهور هذه الانواع ليس مستغربا، بل ويعطينا مفتاحا لتاريخها على وجه التقريب.

شكل رقم (٣) ــ رسم انسان ما قبل التاريخ على صخور جبال تاسيلي في الصحراء الكبرى.. وهي التي عرضها الرحالة الفرنسي Lhote في باريس في معرض صوره عن الصحراء. نقلها

Basil Davidson,

Guide to African History, Allen, Unwin, London,1971,p.11





شكل رقم (٤) ــ تمثال لامرأة من بنين (نيجيريا) مصنوع من العاج (متحف الانسان في نيويورك).

شكل رقم (٥) ــ تمثال لامرأة من بنين (نيجيريا) مصنوع من البرونز (متحف الشعوب ببرلين).

الاشكال ٤، ٥، ٦، ٧، ٨ ــ عن Georges Balandier, Jacques Maquet Dictionary of Black African Civilization, Leon Amiel, Newyork, 1972.

ولقد وضحت هذه الصور التاريخ البشري في افريقية على صورة لم يعهدها أحد من قبل، ورأي الناس في **معرض لوت** أساليب متنوعة لحفر الافريقيين على الصخر، رأوا صورا لرجال ونساء وحيوانات، خلقتها أصابع فنان حساسة، صورا للحرب والسلام، صورا للالهة ولأشكال آدمية، فإذا كان العلماء يرجعون هذه الاثار الى أيادٍ زنجية صنعتها قبل ستة آلاف عام قبل الميلاد، فأين كان العالم حينئذ ؟. *

انظر كيف يقف الفنانون مشدوهين أمام تماثيل البرونز وخشب الابنوس والعاج في نيجيريا وينين والكمرون وغيرها والتي تدل على تراث فني وحضاري على مستوى عالمي حتى بمقياس الفن في عالمنا المعاصر.

وفي ميدان الموسيقا يعترف الجميع بأن الموسيقا الجاز والرومبا والسامبا أفريقية المنشأ، انتقلت الى العالم الجديد مع الافريقيين حين كان الاوربيون يقومون بشحنهم الى هناك، واحتكت بالموسيقا الوافدة أيضا من أوروبا، وانتشرت في القرن العشرين، وعادت لتنتشر مرة أخرى لا في أوروبا وآسيا فحسب، بل في افريقية ذاتها مرة ثانية، فهى تسمع في أكرا وكينشاسا، وجوهافسبرج، وهي كما يقول الافريقيون بضاعتنا ردت الينا، وبلغة الاقتصاد هي ليست مستوردة من أمريكا بقدر ماهي معادة التصدير اليهم.

---

* يضع الباحثون تاريخا تقريبياً لانسان ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى كما يلي:

١ ــ مرحلة الصيد مع بداية العصر الحجري الحديث من ٨٠٠٠ ق.م الى ٦٠٠٠ عام ق.م

٢ ــ مرحلة الرعي في العصر الحجري الحديث من ٦٠٠٠ ق.م الى ١٢٠٠ ق.م

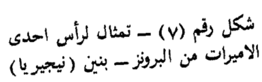
٣ ــ مرحلة الرعي وظهور الحصان والعربات حوالي ١٢٠٠ ق.م

٤ ــ مرحلة ظهور الابل منذ نحو ٥٠ ق.م. (انظر المرجع رقم ٩)

شكل رقم (٦) ـ عرش احد سلاطين قبيلة الباميلكي في الكمرون ـ مصنوع من الخشب والخرز.







شكل رقم (٧) ـ تمثال لرأس احدى الاميرات من البرونز ـ بنين (نيجيريا)



شكل رقم (٨) ـ قناع من الخشب (المتحف البريطاني)

افريقية في الاقتصاد العالمي

خصائص الاقتصاد الافريقي :

تتميز افريقية بتعايش اقتصادين مختلفين معا، وهما على طرفي نقيض؛ اقتصاد معيشي.Subsistence econ واقتصاد تبادلي Exchange econ. ، وان كان معظمها يعيش في حالة انتقال بين النوعين. النوع الأول انتاج غذائي لكفاية حاجة السكان والثاني للتصدير، وليس من شك أن الاقتصاد المعيشي نطاقه اكثر اتساعا سواء في الزراعة أو الرعي، ويستوعب معظم الأيدي العاملة والأرض المستغلة، أما الاقتصاد النقدي أو التبادلي الذي يعتمد على رؤوس الأموال والخبرة فقد دخل مع الاستثمارات الأجنبية الى حد كبير، ويظهر في قطاع انتاج الغلات التجارية كالقطن والبن والشاي فضلا عن قطاع التعدين. ويتميز الاقتصاد الأفريقي بسيادة النشاط الاستخراجي أو الانتاج الأولي، بمعنى تغلب الحرف الأولى كالصيد والرعي والزراعة على الحرف الثانية والثالثة كالصناعة والخدمات. وحتى الصناعة في معظمها فهي استخراجية في المكان الأول، والتحويلية منها هي استهلاكية في المرتبة الأولى كالصناعات الغذائية والمنسوجات. ويتميز الانتاج وخاصة التجاري منه بأنه جزري أو بمعنى آخر مبعثر* ، وليس على هيئة نطاقات كما هو الحال في أمريكا الشمالية مثلا، وقد يرجع هذا في الزراعة الى مشكلة المياه أو حالة التربة. والنماذج واضحة لهذا الانتاج الجزري، ففي مصر مثلا نسبة المزروع ٣ر٥٪ من المساحة الكلية والباقي صحراء، وفي النيجر لا تحتل الزراعة سوى نطاق عرضه ٨٠ كيلومترا شمال النهر. وتتكرر الصورة من الناحية التعدينية،

* أى لا يمتد في نطاقات متصلة، فالمناطق المنتجة تفصلها بعضها عن بعض مناطق غير منتجة.

فهناك نطاق النحاس في زامبيا وزائير وأقليم الذهب، والبوكسيت في جنوبي غرب غانا، وجزر البترول في صحارى شمال أفريقية، وأخيرا فهذا اقتصاد نام أو متخلف في معظمه، سواء بمعيار الدخل القومي أو توزيع العاملين على الحرف المختلفة، أو في نصيب الفرد من استهلاك القوى المحركة، أو في انعكاساته الاجتماعية، كمتوسط الأعمار، ونسبة تداول الصحف، ونسبة الأطباء والأمية، وهو أيضا اقتصاد يعتمد على التصدير بالدرجة الأولى، والتصدير هنا للخامات والمواد الغذائية في المكان الأول.

اتصال افريقية بالاقتصاد العالمي قبل القرن العشرين :

يتفق الباحثون على أن دخول التأثيرات الاقتصادية الأوربية في افريقية هو خير منطلق لدراسة علاقة افريقية بالاقتصاد العالمي، أو بمعنى آخر تحرك افريقية للمشاركة في الاقتصاد العالمي. فهذه المشاركة تعتبر أهم حقيقة اقتصادية شهدتها القارة في القرن الحالي، أثرت في الاقتصاد العالمي وتأثرت به، وكانت هذه المشاركة وتلك المساهمة إحدى الدوافع الرئيسية للتغير الاقتصادي الديناميكي الذي شهدته الأقطار الأفريقية، غير أننا لا يمكن أن نعزو الفرق بين افريقية القرن التاسع عشر وافريقية القرن العشرين الى دخول افريقية ميدان التجارة الدولية المنظمة، والذي نتج بدوره عن التأثيرات الخارجية الأوربية، فما لا شك فيه أن تغيرات اقتصادية كانت ستحدث في القارة حتما، وان كنا لا يمكن أن نجزم بطبيعتها ومداها.

وقد عرفت افريقية التجارة الدولية، ولم تكن التجارة عبر ما يعرف حاليا بالحدود السياسية الدولية مجهولة للمسرح الافريقي قبل الاحتكاك الأوربي، اذ ترجع الاتصالات التجارية البعيدة المدى الى الألف الثالثة قبل الميلاد، حين أرسلت مصر بعثاتها التجارية عبر البحر الأحمر الى بلاد

بونت (الصومال) لجلب البخور والذهب والعاج وجلود الفهود، وقد ترجع الصلات بين شرق افريقية وجنوب الجزيرة العربية الى اقدم من هذا، وكذلك الحال في صلات شرق افريقية بالصين كل مافي الأمر أن الجغرافية حددت اتجاه الاتصالات التجارية الأولى بين افريقية الزنجية من ناحية، وافريقية الشمالية وجنوب غرب آسيا من ناحية أخرى.

غير أن قلب افريقية ظل بعيد المنال حتى القرن الماضي، لظروف طبيعية انفردت بها القارة، وتمثلت آثارها من الناحية الاقتصادية في صعوبات النقل حتى بعد اكتشاف بعض أجزائها، فقد كان من المستحيل على حيوانات الجر أن تحيا في هذا القلب، وحتى اذا قيضت لها الحياة فلم تكن مدربة على الجر*، لذلك لم تعرف افريقية جنوب الصحراء استخدام العجلات الا متأخرا، وكانت وسيلة النقل هي الحمل على الرؤوس وهي أبهظ الوسائل وأكثرها نفقة.

وعلى رغم ذلك شاركت افريقية في ميدان الاقتصاد العالمي منذ العصور القديمة حتى القرن التاسع عشر في سلع ذات خصائص معينة، فصدرت الذهب الذي كان يسيل له لعاب الأوربيين، حين كانوا يسمعون بقوافله التي تعبر الصحراء، وكان مصدره مملكة غانا التي امتدت من النيجر الى السنغال، وتبعتها مملكة مالي، وظل هذا القسم من افريقية مصدر الذهب الوحيد تقريبا من القرن الثامن حتى كشف الأمريكتين، وقدرت قيمة الذهب الذي صدر عبر الصحراء قبل وصول البرتغاليين بنحو ٢٠٠ ألف جنيه استرليني سنويا. (١٠)

---

* حاول المستعمر تدريب الحمار الوحشي ولكنه فشل، كما حاول استئناس الفيل الافريقي لاستخدامه في الجر كما في الهند ولكنه فشل أيضا، أما الحيوانات المستأنسة الأخرى كالثور أو الحمار والحصان فقد وقف دون استخدامها ذبابة التسي تسي القاتلة.

بل لقد كان أهم حدث في تاريخ الكشف البرتغالي من الناحية الاقتصادية هو الوصول الى ساحل يمكن فيه المقايضة بالذهب عام ١٤٧١م، فقد كشف البرتغاليون ساحل غينيا، وأطلقوا عليه ساحل الذهب، وبنوا حصن سان جورج عام ١٨٤٢م (في الميناء المعروف في غانا اليوم باسم المينا) ليكون بمثابة مستودع للتبادل بين السلع البرتغالية من ناحية، وذهب غرب افريقية من ناحية اخرى.

أما على الساحل الشرقي فكان العاج هو السلعة الرئيسية، فضلا عن التوابل وخاصة القرنفل واللبان والبخور، والى الجنوب قامت عدة موانىء تتاجر في الذهب والحديد وصدفات السلاحف... الخ وحينما حرمت تجارة الرقيق في غرب افريقية في أوائل القرن التاسع عشر، وهبط مورد العاج، وقل انتاج الذهب، اكتشف الأوربيون بعد فترة امكان قيام تجارة على أساس شجرة برية وهي نخيل الزيت الذي بدأ الطلب على زبدته يشتد في أوربا لصناعة الصابون والشموع وكمادة للتشحيم فضلا عن الزبد الصناعي(١١)، وكان هذا بداية لتجارة تراوحت بين ٢٥ الف الى ٣٠ ألف طن سنويا من حوض النيجر فقط إلى غرب أوربا في بداية القرن التاسع عشر مما زاد في مشاركة افريقية في الاقتصاد الأوربي والبريطاني بصفة خاصة. وفي القرن التاسع عشر كان معظم القطن المصدر من افريقية تقريبا يتجه الى المصانع البريطانية، وفي نفس الوقت زادت واردات غرب افريقية من الملح البريطاني والأسلحة والاسماك المجففة، وتبعت مرحلة نخيل الزيت مرحلة المطاط البري والأخشاب، وصادفت هذه المرحلة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. ويعطي تاريخ استغلال الكنغو وافريقية الاستوائية الفرنسية صورة بانورامية للاستغلال البشع للموارد الافريقية، حتى لقد عرفت هذه الفترة في تاريخ افريقية الاقتصادي بعصر النهب Era of Dispolition وهكذا ساهمت افريقية في تصنيع أوربا، بل ودفع عجلة التقدم الصناعي الأوربي الى الأمام، دون أن تنال هي أي نصيب من هذا التقدم.

اسهام افريقية في الاقتصاد العالمي في القرن العشرين:

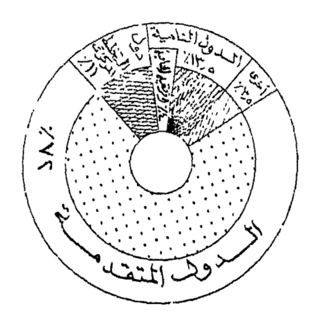
قبل دراسة إسهام افريقية في الاقتصاد العالمي، يجب أن نشير الى خطأ شائع فيما يختص بهذا التوسع التجاري، ذلك أن البعض يربط هذا التوسع بالقرن التاسع عشر على اعتبار أن حرية التجارة كانت شعار ذلك القرن. حقيقة لقد بدأ ذلك التوسع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويدين هذا التوسع بالكثير لهذه الفترة، وما حدث فيها من ثورة في النقل كالسكك الحديدية والسفن البخارية، ولكن معظم التوسع في صادرات المواد الأولية من افريقية كان في النصف الأول من القرن العشرين. (١٢)

ومن دراسة معدل النمو في حجم التجارة الخارجية لأجزاء العالم المختلفة ظهر أن افريقية شهدت نموا أسرع من أي جزء آخر في العالم بما فيها الجهات النامية وذلك خلال نصف القرن الواقع بين عامي ١٩١٣، ١٩٦٣. (١٣)

وكان وراء هذه الزيادة في الصادرات الأفريقية نموٌّ في الانتاج الزراعي النقدي، وفي بعض الأقطار نمو كبير في الانتاج المعدني أيضا. هذا النمو الذي شهدته افريقية في صادراتها هو حلقة في سلسلة حلقات بدأت في أواخر القرن التاسع عشر كما رأينا، واستمرت في القرن العشرين. وقد ظهر هذا التوسع بصفة خاصة في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها مباشرة، فقد كانت الحرب العالمية الثانية وما بعدها مباشرة بمثابة منشط لزراعة المستوطنين أو الزراعة التجارية أو زراعة التصدير بعامة، اذ ظهرت الحاجة في معظم المستعمرات الى زيادة الانتاج المحلي نتيجة لأوضاع خاصة أملتها ظروف الحرب، ففي كينيا مثلا زادت الحاجة الى الانتاج الزراعي للاستهلاك المحلي الى جانب احتياجات الحرب، لأنها كانت مقرا لأسرى حرب ولاجئين ومهاجرين وقاعدة لقوات أوربية وأفريقية، فزاد

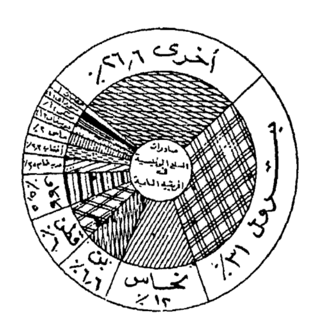
انتاجها من الزبد وزاد انتاجها من القمح، واشتد الطلب على السيسل في تنجانيقا حتى بلغ انتاجه في نهاية الحرب ثلاثة أمثال انتاجه قبلها لاحتياجات البحرية له، خاصة بعد سقوط الفلبين وانقطاع قنب مانيلا عام ١٩٤٢. كذلك الحال في روديسيا ونياسالاند، لأن روديسيا كانت مقرا لتدريب الطيارين، كما زاد عدد الافريقيين الذين يعملون في الجيش أو المناجم، ولمواجهة هذه الحالة زادت المزارع الأوربية من انتاجها من الحبوب الغذائية بمعدل ٢٠٠٪ فضلا عن مضاعفة الانتاج من الزيوت النباتية والشاي والدخان لامداد الجزر البريطانية. (١٤) أما الكنغو فلم يساهم في المواد الغذائية قدر مساهمته في الخامات، وخاصة المطاط الذي اشتد عليه الطلب، وأصبح من الخامات النادرة لدى الحلفاء بعد سقوط الملايو. وهكذا ما ان انتهت الحرب العالمية الثانية، حتى كان هناك شبه اكتفاء ذاتي في كثير من المستعمرات فضلا عن زيادة واضحة في انتاج الخامات. واذا قورنت أرقام عام ١٩٣٨ بأرقام عام ١٩٥٠ لصادرات بعض السلع الافريقية كماً وقيمة، ظهر أنها زادت من الناحيتين، ولكن زيادة الصادرات قيمة فاقت بكثير الزيادة كما، فعلى سبيل المثال كانت قيمة الكاكاو الذي صُدِّر من افريقية عام ١٩٥٠ تساوي ٧٠٠ في المائة قدر قيمته عام ١٩٣٨، بينما زادت من حيث الحجم ٤ في المائة فقط. وفي الحق أن بعض السلع الأخرى شهدت وبخاصة الدخان، والكاكاو، والبن، وزيت النخيل، والفول السوداني، والسيسل زيادة في حجم الصادرات، ولكن ـ باستثناء السيسل والسكر ـ كانت زيادتها من حيث القيمة لا تقل عن ثلاثة أمثال زيادتها من حيث الحجم، بينما في حالة البن والفول السوداني كانت الزيادة في القيمة خمسة أمثال زيادة حجمها.

ويلاحظ من ناحية أخرى أن النمو في الصادرات بعد الحرب العالمية الثانية لم يصحبه تنويع يذكر في صادرات معظم الأقطار كما لم يظهر عليها تحسن واضح من حيث الجودة باستثناء سلعة أو سلعتين. (١٥)



شكل رقم (٩) ـ نصيب الكتل الدولية المختلفة في التجارة الدولية عام ١٩٧٤ محسوبة من

U.N., "International Trade yearbook," 1975, Trade by Regions.



شكل رقم (١٠) ـ صادرات السلع الرئيسية لافريقية

ECA. "Economic Survey for Africa, 1975.

غير أن الصورة انعكست مرة أخرى في الخمس عشرة سنة الأخيرة وحدها، ففي هذه الفترة شهدت تجارة الدول الصناعية نموا أسرع، وان احتفظت أفريقية بنمو أسرع في تجارتها عن بقية العالم المتخلف بسبب ظهور البترول.

مكانة أفريقية في التجارة العالمية:

تتميز القارة الافريقية بضآلة نصيبها في التجارة العالمية اذا قورن بنصيب القارات الأخرى، فمن مجموع الصادرات العالمية التي بلغت قيمتها نحو ٣٠٩ بليون دولار عام ١٩٧٤، كان نصيب أفريقية نحو ٤٪، وكان هذا نصيبها طوال العقد الماضي، بينما كان نصيب العالم المتقدم يزيد قليلا على ٧٢٪ من مجموع قيمة هذه التجارة (تقريبا) ونصيب دول التخطيط المركزي * نحو ١٠٪ أما بقية العالم النامي فنصيبه نحو ١٣٫٥٪ من هذه الصادرات. وتكاد تتكرر الصورة فيما يختص بالواردات؛ فواردات أفريقية النامية * تزيد قليلا على ٣٪، بينما واردات الدول المتقدمة اقتربت من ٧٣٪، وواردات دول التخطيط المركزي تقترب من ١٠٪ والدول النامية نحو ١٤٪ من مجموع الواردات العالمية. بل اننا لو قارنا تجارة أفريقية النامية بتجارة المملكة المتحدة لوجدنا أن نصيب الأخيرة يعادل بمرة ونصف نصيب الأولى في الصادرات ومرتين في الواردات. وتبلغ قيمة الصادرات الآسيوية (دون اليابان) ضعف قيمة نظيرتها الأفريقية. بل تكاد تجارة أفريقية بأقطارها التي تربو على الخمسين قطرا بما فيها جنوب أفريقية وبسكانها الذين يزيدون على أربعمائة مليون نسمة تعادل تجارة اليابان وحدها.

---

* يقصد بها الدول الاشتراكية، وليس معنى هذا أنها لا تدخل في عداد الدول المتقدمة وإنما التزمنا بالتسمية الواردة في مطبوعات الأمم المتحدة.

* تخرج مطبوعات الأمم المتحدة جمهورية جنوب افريقية من عداد الدول النامية، وحين تذكر احصائيتها افريقية، فيقصد بها افريقية دون جمهورية جنوب افريقية الا اذا نصت على ذلك.

وتشترك أفريقية في هذا مع بقية العالم المتخلف في ضعف نصيبها في التجارة الدولية، وذلك لأن معظم التجارة الدولية يتركز على جانبي الأطلنطي الشمالي. فهناك في الوقت الحاضر كتل تجارية عملاقة وهي الجماعة الاقتصادية الأوربية، والولايات المتحدة الأمريكية، هذه الكتل تحتوي على ما يقرب من ثلثي الصادرات والواردات العالمية. فقد تغير المناخ الاقتصادي للتجارة الدولية فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين، فبعد أن كانت العلاقة التجارية رأسية بين الدول الصناعية وأقطار الخامات في القرن التاسع عشر، اصبحت العلاقة في معظمها أفقية في القرن العشرين، أي بين الأقطار المتقدمة بعضها مع بعض. فهنا حيث الدخل مرتفع والقوة الشرائية عالية يتركز أربعة أخماس الانتاج العالمي، وتسعة أعشار الانتاج الصناعي، أما الدول الافريقية: فذات أحجام اقتصادية صغيرة، واذا كان الحجم الاقتصادي يقاس بمجموع الناتج القومي يظهر لنا ضآلة الحجم الاقتصادي لهذه الدول اذا ما قورنت بدول العالم المتقدم، إذ أن مجموع الناتج القومي عام ١٩٧٠ لدول كألمانيا الغربية وبريطانيا وفرنسا كان يعادل على التوالي ٤و٣، ٧و٢، ٢و٢ مرة قدر ناتج دول أفريقية النامية جمعاء، وهذا التناقض يبدو أكثر وضوحا اذا عرفنا أن نسبة سكان هذه الدول الى سكان افريقية النامية ١٧٪ ١٥٪، ١٦٪ على الترتيب. وفي افريقية النامية نجد أن الناتج القومي لأكبر دولتين وهما نيجيريا ومصر ٧٥٠٠، ٧٠٠٠ مليون دولار على التوالي في التاريخ المذكور(١٧) (يلاحظ ارتفاع الناتج القومي لنيجيريا عام ١٩٧٦ الى ٨٤٩٥ مليون دولار نتيجة لزيادة انتاجها النفطي).

غير أن هذا لا يغض من أهمية الصادرات الافريقية، فلديها سلع تلعب بها دورا ملحوظا في التجارة العالمية كالبترول والذهب والماس والحديد والكاكاو وزيت النخيل والقطن .. كما يزيد في أهمية افريقية في هذا المجال أنها احصائيا مهضومة نظرا لأن كثيرا من سلعها يعاد تصديره فيدخل ضمن صادرات الدول الصناعية.

واذا حاولنا التعرف على نصيب كل جزء من افريقية في هذه التجارة الدولية وجدنا أن جنوب افريقية يشترك بنحو خمس صادرات القارة، بينما تسهم افريقية الشمالية بنحو الثلث والباقي من نصيب افريقية المدارية.

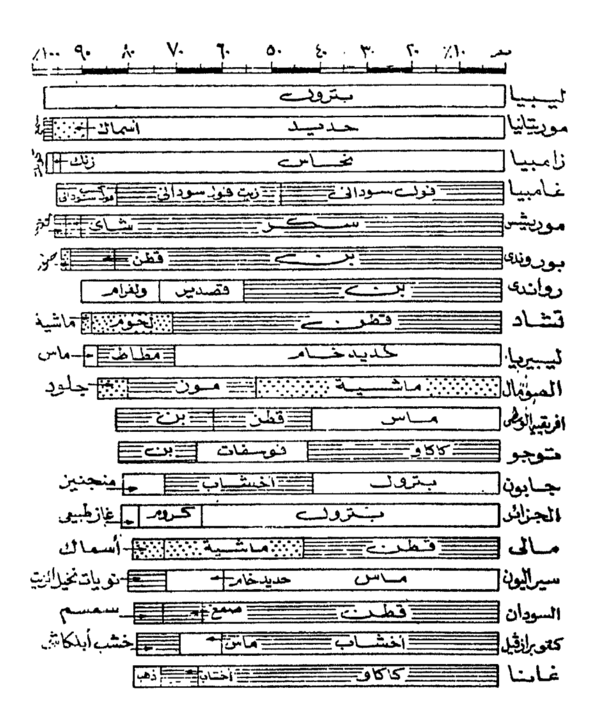
مساهمة افريقية في ميدان المحاصيل النباتية :

تؤلف هذه المجموعة نحو ٣٨٪ من مجموعة قيمة الصادرات الأفريقية وتشمل البن والكاكاو والشاي والقطن والبذور الزيتية والدخان والسيسل والمطاط والفاكهة، ويمكن أن نضيف اليها الأخشاب ومنتجاتها. أما مجموعة المواد الحيوانية : وتتمثل بصفة خاصة في الأسماك من ناحية، وفي الماشية والضأن من ناحية أخرى فهي تؤلف وحدها نحو ٤٪ من قيمة الصادرات الأفريقية. ويأتي القطن في مقدمة الخامات النباتيَة التي تسهم بها افريقية في الاقتصاد العالمي، وقد ظل خام القطن يحتل المكانة الأولى في جميع الصادرات الافريقية الى الخارج من حيث القيمة حتى عام ١٩٦١، وبعدها ترك هذا المركز لصادرات الثروة المعدنية، واكتفى بالمركز الرابع، وتسهم افريقية بما يتراوح بين ٢٠٪، ٢٥٪ من الصادرات العالمية للقطن وتخرج اكثر من نصف صادرات القارة من وادي النيل أي من مصر والسودان، والباقي من افريقية جنوب الصحراء، غير أن اهمية افريقية تُستمد بصفة خاصة من نوعية قطن مصر والسودان، وهو الطويل التيلة، اذ يبلغ نصيب البلدين نحو ثلاثة أرباع الانتاج العالمي من الأقطان الطويلة الممتازة (١٨).

كذلك تحتكر أفريقية ثلثي الانتاج العالمي من السيسل ونحو نصف صادراته العالمية (١٩)، ويكاد شرق افريقية يكون المنتج والمصدر الرئيسي، وبصفة خاصة تنزانيا. ويتركز انتاج المطاط في غرب افريقية وبصفة خاصة في نيجيريا وليبيريا، وتظهر أهمية المطاط الافريقي اثناء الازمات الدولية، كما كان الحال أيام غزو اليابان لجنوب شرقي آسيا.

وتستورد أوروبا أنواعا متعددة من الأخشاب الافريقية، يكفي القول بأن ساحل العاج وحدها سجلت ٢٢٠ نوعا تجاريا (٢٠)، وتعتبر غانا المصدر الأول للأخشاب في افريقية، ويأتي في قائمة الصادرات لديها بعد الكاكاو مباشرة، ومن دول صادرات الأخشاب أيضا جابون ونيجيريا وزائير، ويحتل زيت النخيل رأس قائمة المواد الزيتية التي تخرج من افريقية الى العالم، بل هو من أهم صادرات القارة، وما زال على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لبعض أقطار غرب ووسط القارة، ويستخلص الزيت من نواة الثمرة ومن المادة اللحمية المحيطة بها، ويستخدم أكثر من الزيوت النباتية الأخرى في المنتجات الغذائية في الوقت الحاضر، بسبب التحسن الذي طرأ على تنقيته، فاذا كان الاستخدام الرئيسي له قبل الحرب الثانية في صناعة الصابون، فقد دخل الصناعات الغذائية من أوسع ابوابها بعد ذلك بسبب ما يعانيه العالم من نقص في المواد الدهنية، وما زال يستخدم أيضا في صناعة صابون التواليت والمنظفات بصورة عامة. وفي هذه المادة الزيتية تفخر أفريقية بأنها تقدم للعالم نحو ٧٠٪ من انتاجه سواء من نيجيريا، او غانا أو زائير، أو سيراليون، وتشترك افريقية بنحو ثلث الانتاج العالمي من الفول السوداني، وبنحو ثلاثة أرباع صادراته العالمية، ويرجع ذلك الى أن المنتجين الأول والثاني وهما الهند والصين يذهب محصولها في الاستهلاك المحلي، ومن ثم كانت أهمية افريقية بعامة ونيجيريا والسنغال وغمبيا والسودان بصفة خاصة في ميدان تجارته العالمية.

وتسهم افريقية أيضا بنحو ١٠٪ من الانتاج العالمي لزيت الزيتون، ولكنها مصدرة لنحو ثلث صادراته العالمية. وصادرات افريقية من زيت الزيتون كلها من نصيب المغرب العربي الكبير تونس، المغرب، ثم الجزائر، ولا تحتل افريقية مكانه احتكارية في انتاج البن، فانتاجها نحو ٣٠٪ فقط وتتقدم البرازيل كدولة فقط عليها في هذا المضمار، ومع ذلك تعتبر افريقية مجالا خصبا ذا أهمية كبيرة للمهتمين بالتوسع في انتاج البن، وأدخلتة كثير



شكل رقم (١١) ــ الصادرات الرئيسية لبعض الدول الافريقية

Eca, "Economic Indicator for Africa 1975.

من الدول الافريقية في قائمة محاصيلها كوسيلة لتنويع الانتاج، نظرا لانخفاض تكاليف انتاج البن الافريقي عما هو عليه في المناطق الأخرى، فضلا عن تحول الذوق نحو احتساء البن المذاب وهو الغالب على البن الافريقي، مما جعل افريقية تسهم بنحو ثلث صادراته العالمية.

وبينما لا تسهم افريقية بالقدر الأكبر من الانتاج العالمي للبن، فانها تسود القارات جميعاً في ميدان انتاج وتصدير الكاكاو، فهي مصدر ٧٠٪ من الانتاج العالمي، وبصفة خاصة في منطقة غرب افريقية حيث يخرج من غانا (المصدر الأول) ونيجيريا وجزر ساوتومي وبرنسيب بصفة أساسية.

ورغم تزايد انتاج افريقية من الشاي بنحو ثلاث مرات منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، فما زال نصيب افريقية أقل من ١٠٪ من الانتاج العالمي، ويتركز انتاجه وتصديره في منطقة شرق افريقية في كينيا وأوغندا وتنزانيا ومالاوي.

والى جانب هذا وذاك فهناك مساهمة افريقية في تجارة السكر العالمية سواء من جنوب افريقية أو جزر موريشس وريئيون وموزمبيق وغيرها.

مساهمة افريقية في ميدان الصناعة:

تسعى كل دولة افريقية الى الأخذ بأسباب التصنيع، نظرا لارتباط النمو الصناعي بارتفاع مستوى المعيشة في كل جهات العالم، ونظرا لأن الأمل ضئيل في تنمية اقتصادية تقوم على أساس التوسع في الانتاج الزراعي، اذن فبعض من التصنيع سوف يرفع من قيمة الصادرات الافريقية، بينما في حالات أخرى قد يوفر نقدا أجنبيا عن طريق احلال المصنوعات المحلية محل المستوردة، ومع ذلك لا تضرب افريقية في ميدان الصناعة بسهم وافر، ولا تقوم بما كان متوقعا أن تقوم به في هذا المجال نظرا لغناها بالثروة الزراعية والمعدنية وموارد الطاقة، اذ يتراوح نصيب الصناعة بين ١٪، ٣٠٪ من

مجموع الناتج القومي للدول الافريقية، وتأتي على القمة في ميدان الصناعة جمهورية جنوب افريقية، بينما تأتي ليسوثو وغينيا الاستوائية في أسفل االقائمة، على حين تأتي مصر وتونس وغانا وزائير في مكان وسط ويلاحظ أنه في أقطار معدودة يقترب نصيب الصناعة من الزراعة في الدخل القومي كما في مصر وتونس وروديسيا. ويرجع هذا الوضع الى الطريقة التي دخلت بها افريقية ميدان الاقتصاد العالمي اثناء الفترة الاستعمارية، وهي الطريقة القائمة على انتاج الخامات لتصديرها الى المصانع الأوروبية لا لتصنيعها محليا. ولم تكن السلطات الاستعمارية تشجع أو تسمح بقيام الصناعة لتظل اسواق افريقية مفتوحة أمام المنتجات الأوروبية، وهذا كان أمرا منتظرا من أي دولة صناعية كانت مسيطرة على قطر افريقي. ولذلك ما زالت الصناعة في افريقية في مهدها، يغلب عليها كما هو منتظر الصناعات الخفيفة التي تعتمد على الانتاج الزراعي والحيواني مثل غزل ونسج القطن ونشر الأخشاب وصناعة منتجات الكاكاو واللحوم المحفوظة.

وفي الواقع هناك صناعات لا بد من قيامها قبل تصدير الخامات، وهي اعداد المواد الأولية للتصدير. وقد زادت في الفترة الاخيرة عن ذي قبل، وذلك لزيادة قيمة تلك الصادرات من ناحية واختصار تكاليف نقلها من ناحية أخرى، فضلا عن أهميتها في ايجاد عمل للسكان المحليين، ونضرب مثلا بصادرات الفول السوداني وزيته من غرب افريقية، فقد زاد انتاج الزيت وصادراته نتيجة للتوسع في صناعة عصر الفول السوداني في السنغال وظهورها كصناعة مستحدثة في شمالي نيجيريا منذ عام ١٩٥٦، كما ظهرت في الفترة الأخيرة في كل من غينيا والنيجر، ورغم ضآلتها بالمقياس الصناعي فإن لها أهميتها في بعض هذه الأقطار، ويشبه استخراج زيت الفول السوداني الى حد كبير استخراج زيت النخيل من النواة، الذي بدأ في زائير ثم امتد الى نيجيريا وداهومي وسيراليون.

ويصدر زيت الزيتون من شمال افريقية ولا يصدر الزيتون لنفس

الأسباب. ومعظم الكاكاو والبن يصدر خاما، وإن كان هناك بعض مصانع لطحن البن واعداده في تنزانيا وساحل العاج، كما تصنع الدول الأربعة الأولى المنتجة للكاكاو بعضا منه، ولكن ياللأسف لا تصلح الجهات الحارة للصناعات الغذائية القائمة على الكاكاو.

أما الصناعات القائمة على التعدين فهي صناعات استخراجية في المكان الأول، لأن الصناعات التحويلية ما زالت في مهدها. فنصيب القارة ضئيل على المستوى العالمي في هذه الصناعات، فهي تنتج ١٪ من الحديد الزهر، ١٪ من الصلب الخام، ٣٪ من الرصاص والزنك، لذلك تتقارب قيمة الصادرات المعدنية من قيمة الانتاج المعدني، نظرا للاستهلاك المحلي الضئيل، باستثناء جنوب افريقية، حيث تبلغ قيمة الصادرات المعدنية سدس قيمة انتاج المناجم، غير أنه بينما تصدر الخامات الزراعية دون عمليات أولية، تصدر المعادن غالبا بعد تنقيتها كليا أو جزئيا تفاديا لتكاليف نقل الشوائب وهي عالية بدرجة كبيرة، كما هو الحال في تنقية خامات الحديد والنحاس قبل نقلها، هذا فضلا عن أن معظم المناجم ومصانع التكرير هي ملك لشركات أوروبية وأمريكية، ومن ثم لا يوجد ضغط على حكومات الدول المتقدمة لحمايتها.

والحق لقد شهد العقد السابع نموا في بعض الصناعات التي تصلح للاستهلاك المحلي والتصدير في آن واحد، كتكرير البترول، ففي أوائل العقد السادس كانت هناك تسعة معامل تكرير في أفريقية. طاقتها ٩ مليون طن سنويا، وكان معظمها مركزا في افريقية الشمالية وموزمبيق وأنجولا، فقفزت الى ٣٢ معملا، بطاقة قدرها ٤٥ مليون طن عام ١٩٧٥، وكان هناك توسع في انتاج الاسمنت لزيادة الانشاءات، كما زاد انتاج جمهورية مصر العربية والمغرب وروديسيا وأوغندا للأسمدة، ومن الصناعات التي نمت أيضا صناعة غزل ونسج القطن التي أقيمت لها المصانع في جهات كثيرة من القارة، وان كان القليل منها ما يصدر انتاجه الى الخارج

كما في مصر، فهذه تنتج معظم صادرات أفريقية من الغزل والنسيج القطني، كما أقيم مصنع للغزل في شمال أوغندا للتصدير الى الاتحاد السوفيتي.

غير أن هناك ميزات للسلع الافريقية من هذا النوع، وهو أن بعضا منها غير ممثل في سلع الدول النامية الأخرى كمنتجات الكاكاو ولب الخشب وألواح الورق والدهون الحيوانية والشموع، ففي حالة الورق وألواحه تعتبر أفريقية مصدرا لمعظم واردات الدول المتقدمة من الدول النامية، وكذلك الحال في مجموعة المعادن المصنوعة وشبه المصنوعة.

أما من حيث مساهمة الأقطار الأفريقية في تصدير السلع المصنوعة وشبه المصنوعة الى العالم عام ١٩٧٥(٢١) فيمكن اجمالها فيما يلي :

+ تصدر جمهورية مصر العربية معظم الغزل والنسيج القطني.
+ تصدر أنجولا وتنزانيا واثيوبيا ثلاثة أخماس الزيوت النباتية والدهون الحيوانية.
+ تصدر الجزائر نحو نصف المشتقات البترولية.
+ يصدر المغرب أكثر من ثلثي الأسماك المحفوظة.
+ تصدر الجزائر والمغرب ما يزيد على سبعين في المائة من الخضروات المحفوظة.
+ يصدر الاتحاد الجمركي الاستوائي Union Douanière Equatoriale وحده نحو خمس الأخشاب المنشورة والابلاكاش. يضم هذا الاتحاد جابون والكونغو الديمقراطي والكمرون وقد تألف عام ١٩٦٦م باسم الاتحاد الجمركي والاقتصادي لوسط أفريقية، وكان يضم حينذاك تشاد وأفريقية الوسطى الى جانب الدول المذكورة، ولكنهما انسحبتا منه عام ١٩٦٨م.
+ يصدر المغرب نحو خمسي لب الخشب.
+تصدر تنزانيا نحو ثلث اللحوم المحفوظة، بينما تصدر روديسيا وكينيا نحو النصف.
+تصدر نيجيريا نصف الجلود، بينما المغرب وحده له نحو الثلث.
+تصدر الجزائر أربعة أخماس المشروبات الكحولية.

+تصدر روديسيا أربعة أخماس الحديد الزهر.
+يصدر المغرب والجزائر ثلاثة أرباع مفروشات الأرض من البسط والأكلمة.

أما عن أسواق السلع المصنوعة وشبه المصنوعة فهي مركزة أيضا، اذ أن الجماعة الاقتصادية الأوروبية قامت باستيعاب ثلاثة أرباع هذه السلعة عام ١٩٧٥.

غير أنه يمكن القول بأن افريقية قد ساهمت مساهمة فعالة في تصنيع العالم بطريقة غير مباشرة، وذلك عن طريق خاماتها الزراعية والحيوانية التي تستوردها الدول المتقدمة من قطن وأخشاب وحديد ونحاس وفوسفات وبترول وغيرها، فهذه الخامات تستوردها الدول المتقدمة ، ثم تصدرها الى العالم ـــ ومنه افريقية ـــ مصنوعات مرتفعة القيمة، حتى ولو كانت مصنعة تصنيعا بسيطا، أو حتى مجرد إعداد وتعبئة، وقد اشار الى هذا رئيس جمهورية ساحل العاج حين قال بأن متوسط ما يحصل عليه الزارع الافريقي هو ٩٠ فرنكا للكيلو جرام من البن، بينما يباع في أسواق دول الجماعة الاقتصادية الأوروبية بنحو ٥٥٠ فرنكا، أي أن سعر البيع للمستهلك بلغ ستة أضعاف سعر الشراء من المنتج وهكذا.

مساهمة افريقية في ميدان الثروة المعدنية:

تلعب الثروة المعدنية دورا كبيرا ذا أهمية فائقة في اقتصاديات القارة الافريقية، سواء جنوب الصحراء وشمالها، ويسبق القسم الجنوبي نظيره الشمالي في جذب المغامرين اليه، بحثا عن الذهب والفضة، من البرتغاليين والبريطانيين وغيرهم، وكان المعدن كما رأينا أحد أسباب كشف طريق الرأس، كما كانت الاكتشافات المعدنية في الهضبة الجنوبية مسئولة عن جذب الأوربيين وتواكبهم. على أنه يجب ألا ننسى أن افريقية إحدى القارات التي لم تمسح تماما من الناحية الجيولوجية، وأن الكشف المعدني يعوقه في كثير من الأحيان تلك التكوينات الرسوبية السميكة

التي تغطي مساحات كبيرة من سطح القارة، لذلك فمع زيادة البحث والتنقيب تظهر الموارد المعدنية وتتغير الأوضاع الاقتصادية بصورة سريعة، والمثل لدينا واضح في ليبيا حيث تحولت من دولة تعتمد في صادراتها على الفول السوداني، الى دولة بترولية، ومن دولة عجز الى دولة فائض.

وقفزت الصناعات التعدينية لتصبح من أهم وأكثر قطاعات الاقتصاد الافريقي نموا فأصبحت تمثل أكثر من نصف حصيلة الصادرات الافريقية عام ١٩٧٥ بعد أن كانت تشغل المكان التالي بعد الصادرات النباتية عام ١٩٦٠ بنسبة مئوية قدرها ٣٧٪، غير أن أهمية أفريقية في الميدان التعديني العالمي تبدو أكثر وضوحا اذا عرفنا أنه لا يتفوق عليها في الموارد المعدنية سوى أمريكا الشمالية، بينما تتضاءل الى جوارها أمريكا الجنوبية وأستراليا وجنوب آسيا(١٩). ويعوض فقرها الفحمي امكانيات ضخمة من القوى المائية فضلا عن تدفق بترولي في أطراف القارة الشمالية والغربية. ويخرج من أرضها نحو ٣٠٪ من قيمة الانتاج المعدني في العالم، بل ان افريقية قبل جميع القارات بما فيها أمريكا الشمالية تمد العالم بالمعادن النادرة، فأفريقية تحتوي على ٩٠٪ من احتياطي الكروم وتسهم بنحو ٣٠٪ من الانتاج العالمي. وتتميز غانا باحتكارها لاحتياطي ضخم من المنجنيز ورغم أن الاتحاد السوفيتي له وحده أكثر من نصف الانتاج العالمي فان نصيب افريقية وهو ٢٥٪ من ا لانتاج العالمي يعطي القارة مكانا ممتازا في انتاج هذا المعدن. وتبرز افريقية في انتاج الكوبالت، اذ أن ٩٠٪ من موارده توجد في زائير التي تسهم وحدها بنحو ٦٥٪ من الانتاج العالمي (١٥ ألف طن)، فضلا عن اسهام افريقية بنحو ٣٠٪ من انتاج الفانديم.

ولا تتفوق على زامبيا وزائير سوى شيلي في انتاج النحاس، وتعتبر القارة منتجا رئيسيا لمركزات النحاس Blister Copper (درجة النقاوة ٩٩٫٤٪) وللنحاس المكرر كهربائيا Electrolytic Copper.

وفي ميدان المعادن الاستراتيجية تلعب افريقية دورا بارزا للغاية، فالولايات المتحدة مثلا تحتوي على ٦٠٪ من احتياطي اليورانيوم، بينما يحتوي جنوب افريقية وحده على نحو ٣٥٪ منه باستثناء الدول الاشتراكية، وتنتج افريقية نحو ٢٥٪ من الانتاج العالمي من البريليم، ونحو ٨٠٪ من التنتالوم، وافريقية منتجة لنصف الانتاج العالمي من الذهب و٤٠٪ من البلاتين، وهي منتجة لنحو ٩٣٪ من ماس الزينة gem diamond و٩٨٪ من ماس الصناعة Industrial diamond وأخيرا يمكن أن نضيف هذا التدفق البترولي الجديد في افريقية الشمالية والغربية والذي لم يكن يعرف عنه شيء قبل عام ١٩٥٧ باستثناء البترول المصري.

ورغم أن افريقية تنتج وتصدر عددا كبيرا من المعادن كالبترول والذهب والنحاس والماس والحديد والفوسفات والمنجنيز والقصدير واليورانيوم والرصاص والكوبالت وغيرها، فان البترول الخام والذهب والنحاس وخاماته تمثل ثلثي قيمة الصادرات، فاذا أضفنا الماس وخام الحديد والفوسفات نجد هذه المجموعة تمثل ٨٠٪ من مجموع قيمة الصادرات. وهناك تركيز من نوع آخر بالنسبة للاقطار المنتجة للمعادن، وعلى سبيل المثال:

١ ــ هناك ثلاثة أقطار فقط تصدر كميات لا بأس بها من النحاس وهي زامبيا وزائير وأوغندا.

٢ ــ وهناك قطر واحد ينتج ٨٥٪ من القصدير وهو نيجيريا.

٣ ــ وهناك ثلاثة أقطار لها الصدارة في معظم صادرات خامات الحديد في افريقية (موريتانيا، ليبيريا، الجزائر) بينما نجد الأحجار الكريمة كالذهب يكاد جنوب أفريقية يستخرج ثلثي صادراته(٢٢).

هذه الحقيقة لها أثرها في النواحي الاقتصادية، فحينما نقول إن قيمة الصادرات المعدنية الافريقية قد ارتفعت في السنين الأخيرة عن ذي قبل، فليس معنى هذا أن الأقطار الافريقية جميعا أو حتى غالبيتها قد استفادت

من هذا التحسن، ذلك أن معظم هذه الزيادة ناتجة عن زيادة حجم الصادرات المعدنية وارتفاع قيمتها لدى عدد محدود من الدول أو عدم هبوطها كما حدث في الحاصلات الزراعية لدى معظم الدول الافريقية، وبالتالي سوف يكون المستفيد من الناحية الفعلية قلة من الأقطار، فعلى سبيل المثال ارتفع نصيب زامبيا من تصدير النحاس من ٣٤٣ مليون دولار عام ١٩٦١ الى ٥٤٠ مليون دولار عام ١٩٧١، وارتفع نصيب موريتانيا من صادرات الحديد من صفر الى ٥٤ مليون دولار بين التاريخين المذكورين، وزاد نصيب جابون من المنجنيز من لا شيء عام ١٩٦١ الى ٢٨ مليون عام ١٩٧١.

أما عن **أسواق المعادن** فهي أسواق خارج افريقية باستثناءات قليلة، اذ يتجه ٩٠٪ من صادرات افريقية المعدنية الى أقطار الجماعة الاقتصادية الأوربية، باستثناء الذهب والماس، لأننا اذا أضفنا هذين المعدنين فسترتفع النسبة كثيرا، لكنها فعلا يذهبان الى أقطار الدول المتقدمة اقتصاديا، أما أقطار أمريكا الشمالية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية فنصيبها أقل، ويزداد في الخامات الفلزية كخامات الحديد والكروم والمنجنيز واليورانيوم، ويبلغ نصيبها من المعادن نحو ٦٪ وبصفة خاصة النحاس. وتتركز طلبات اليابان من ثروة افريقية المعدنية على بعض المعادن مثل النحاس والحديد والكروم والمنجنيز.

مساهمة افريقيا في ميدان الطاقة:

ظلت افريقيا الى وقت قريب من القارات المعروفة بفقرها في موارد الطاقة حتى كانت فترة أواخر الخمسينات والستينات حين بدأت تدخل ميدان الانتاج والتصدير البترولي، ثم كشف النقاب في السبعينيات عن ثروة من اليورانيوم في دول غرب أفريقية غير التي كانت معروفة من قبل في جنوب افريقية، وهذا ما جعل القارة ذات أهمية استراتيجية في الاقتصاد العالمي والسياسة الدولية، فضلا عن أن هذه الموارد تدر عليها

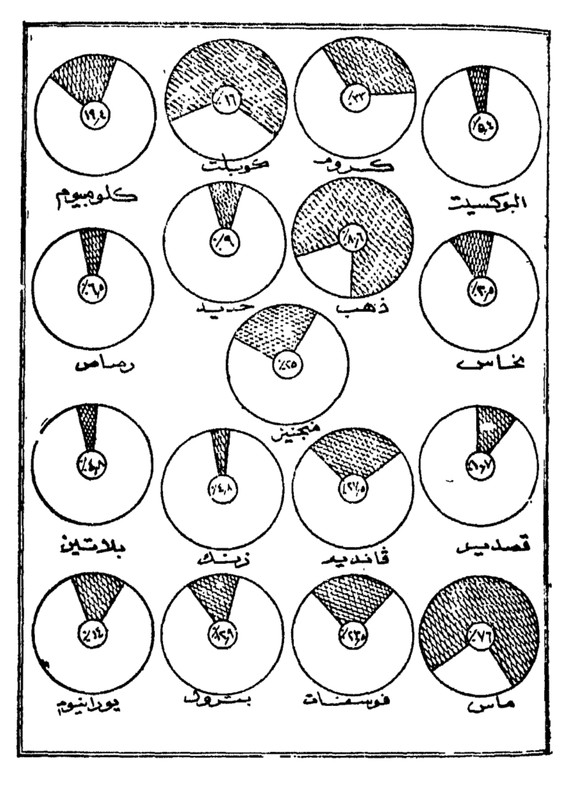
دخولا هي في أشد الحاجة اليها لمواجهة مشروعات التنمية المختلفة، وتضم موارد الطاقة المستقلة الآن البترول والغاز الطبيعي والفحم واليورانيوم فضلا عن الكهرباء المولدة من المساقط المائية والمورد الكامن الذي لم يستغل بعد وهو الطاقة الشمسية(٢٣).

غير أن أهمها جميعا في الوقت الحاضر هو البترول، ولا تسهم افريقية منه بنصيب كبير في الانتاج العالمي، لأنه لم يضف لهذا الانتاج سوى (١٠ر٥٪) عام ١٩٧٧، وان كانت تأتي أهميته في ميدان الصادرات العالمية، ذلك أن استهلاك الدول المنتجة لا يكاد يذكر، من ثم فهي تصدر معظم ما تنتج، وفي الوقت الحاضر هناك اقليمان يقومان بمعظم الانتاج الافريقي الذي اقترب من ٣٢٨ مليون طن عام ١٩٧٧، وهما غرب افريقية وشمال افريقية، وتأتي نيجيريا في المكان الأول بانتاجها الذي زاد على ١١٠ مليون طن وتفوقت بذلك على ليبيا وتحتل نيجيريا في هذا المضمار المكان الثامن بين الدول المنتجة، أما ليبيا فتأتي في المكان الثاني في افريقية بانتاجها الذي بلغ ١٠٨ مليون طن عام ١٩٧٧، وتحتل المكان الحادي عشر بين الدول المنتجة، ثم تأتي الجزائر في المكان الثالث بإنتاجها ٥٨ر٥ مليون طن، بينما يأتي ترتيبها الرابع عشر في الانتاج العالمي، وهناك غيرها كمصر التي دخلت ميدان التصدير مؤخرا، كما اصبحت جابون وأنجولا مصدرتين، وظهر في تونس والكونغو الديمقراطية والكمرون. أما الفحم الذي قامت عليه الثورة الصناعية في أوربا، وحل محله البترول الآن، فان انتاج افريقية منه قليل الآن لا يتعدى ٣٪ من الانتاج العالمي، وان كانت جمهورية جنوب افريقية والتي تضم معظم تكوينات الفحم الافريقي تعد من المنتجين العشرة الكبار في العالم.

واذا كان العالم قد عرف اليورانيوم في جمهورية جنوب افريقية منذ اكثر من ثلث قرن، واذا كانت أول قنبلة ذرية في العالم التي أسقطتها

الولايات المتحدة الامريكية على هيروشيما عام ١٩٤٥ وأنهت بها الحرب العالمية الثانية كانت من يورانيوم الكنغو أو زائير اليوم ، فان أهمية افريقية قد ازدادت في هذا المجال بعد اكتشافه في دول غرب افريقية، أي في النيجر وجابون وافريقية الوسطى بحيث أصبح بها أول احتياطي عالمي باستثناء الاتحاد السوفيتي، ثم تأتي أهمية افريقية مرة أخرى وبصفة خاصة غرب افريقية من كونها المنتج الوحيد لهذا المعدن في العالم الثالث. ثم تزداد أهمية افريقية مرة ثالثة عندما نعرف أن طلب الدول الغربية على هذا المعدن في ازدياد، فبينما كان الطلب عليه عام ١٩٧٣ نحو ١٥ ألف طن ازداد عام ١٩٧٦ الى ٢٣ ألف طن ، و ينتظر أن يبلغ ٢٢٥ ألف طن عام ١٩٨٥ . وأخيرا نجد الشمس وطاقتها، وتقوم الشركات الفرنسية الآن بتجربة رائدة في واحدة من أعظم محطات الطاقة الشمسية في العالم في دولة مالي ، و ينتظر أن تعمل عام ١٩٨٠، واذا نجحت وعممت فسيكون للقارة مورد جديد للطاقة لا ينضب لأنه مستمد من الشمس، واذا احسن استغلاله هو والقوى المائية الكامنة فيها، فقد يكون هذا عاملا مساعدا لتوفير مصادر الطاقة الأخرى لتصديرها الى الخارج (اذا ظل العالم في حاجة الى طاقة البترول عندما تصبح تلك المصادر البديلة قابلة للاستغلال بطريقة اقتصادية) .





شكل رقم (١٢) ـ نصيب افريقية في الصادرات المعدنية

محسوبة من U.N. "Statistical Yearbook," 1976



شكل رقم (١٣) ــ الدول الافريقية المستقلة عام ١٩٤٥ (مظللة)



شكل رقم (١٤) ــ الأقطار الافريقية غير المستقلة (المظللة) عام ١٩٧٩

افريقية في الساحة الدولية

تختلف هيئة الأمم المتحدة اليوم في أوائل الثمانينات عن تلك التي وقع ميثاقها في سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥ من حيث دورها وقراراتها واستجاباتها، بل وحتى تركيبها، وقد لعبت عوامل متعددة ومرت أحداث كانت مسئولة عن هذا التغيير ولكننا لانعدو الحقيقة اذا قلنا ان جزءاً أسياسيا من هذا التغيير يرجع الى دخول الدول الافريقية في عضويتها بصورة متزايدة، حتى لقد زاد عدد الأعضاء الافريقيين بصورة صاروخية من أربعة أعضاء عام ١٩٤٥ (مصر ـ اثيوبيا ـ ليبيريا ـ جنوب افريقية) الى تسع عشرة دولة افريقية من مجموع أعضاء الهيئة الدولية وهو تسع وثمانون دولة عام ١٩٥٩، ومع نهاية عام ١٩٦٠ ظهرت في الأفق السياسي الافريقي ست عشرة دولة افريقية دفعة واحدة، ولكنها الآن بلغت الخمسين دولة افريقية من مجموع أعضاء الجمعية العامة الذين بلغوا مائة وواحدا وخمسين أي أن افريقية استحوذت وحدها على نحو ثلث مجموع الأعضاء، ولا توجد مجموعة متقاربة بمثل هذا الحجم، ومن ثم أصبح تأثيرها قويا وفعالا، خاصة في القضايا التي تمسها.

والواقع أن هناك أربع خصائص للوضع الدولي الذي حصلت فيه الدول الافريقية على استقلالها ساعدتها على أن يكون لها تأثير لم تحصل عليه دول صغيرة من قبل، ويتمثل العامل الأول في الهدوء النسبي في سياسات القوى العظمى أو ما عرف باسم سياسة الوفاق، الناتجة عن الخوف والرهبة والخشية من الحرب النووية، ويتمثل العامل الثاني في اتساع مدى الحوار الدولي، فباستثناء حالات خاصة كأزمة كوبا وبدرجة أقل مسألة فيتنام، لم يكن هناك عمل استفزازي قامت به دولة كبرى لتهديد الأخرى في السنين الأخيرة، ويمثل التوازن النسبي بين الكتل المتنافسة العامل الثالث مما أعطى أهمية خاصة لأصوات دول العالم الثالث، وأكبر مجموعة فيه الدول الافريقية، وأما العامل الرابع والأخير فهو عالمية الأمم المتحدة التي وضحت فيها أكثر من سابقتها عصبة الأمم،

والاستخدام المتزايد للساحة الدولية أكثر من الساحة المحلية في حسم المواقف العالمية الحساسة(٢٤) .

ويمكن أن نضرب عدة أمثلة لهذا الوضع الدولي، منها على سبيل المثال أن عملية حفظ السلام التي تقوم بها الأمم المتحدة عن طريق مدها مناطق النزاع بقوات محايدة، كما هو الحال على الحدود بين الأتراك واليونانيين في قبرص، وبين الهنود والباكستانيين في كشمير، هذه القوات تألفت غالبا من الدول المتوسطة والصغيرة، وأهم من اشترك بقواته في هذه المهمات السويد وكندا والنمسا ونيوزيلندا ، كما شاركت أيضا الدول الافريقية بقواتها في أحداث الكنغو، ونظرت الدول الأفريقية المستقلة الى الأمم المتحدة كعامل له خطورته في تكوين وتنفيذ سياستها الخارجية، و يرجع هذا في جزء منه الى أن ميثاق الأمم المتحدة يتضمن كثيرا من المبادىء، مثل حق تقرير المصير، والمساواة بين الدول، فضلا عن التنمية الاقتصادية، و يرجع أيضا الى أن الأمم المتحدة قد أتاحت الفرصة لظهور الدول الأفريقية على المسرح العالمي، و بالتالي الاعتراف بمكانتها الدولية ، وقدمت لها أكبر فرصة للتأثير على القضايا التي تهمها بشكل خاص .

فقد أكدت الدول الثمانية المشتركة في مؤتمر الدول المستقلة في أكرا الذي عقد عام ١٩٥٨ رغبتها في ابراز « شخصية افريفية متميزة » في الشئون الخارجية وتكوين جهاز دائم في الأمم المتحدة لهذا الغرض ، وفي العام التالي قامت الدول الأفريقية بحملة واسعة نشطة لازالة الحظر عن الحزب الوطني في الكاميرون (الفرنسي)، و بالتالي طالبث بإجراء انتخابات تحت اشراف الأمم المتحدة قبل أن تحصل هذه المستعمرة على استقلالها . وكانت هذه الدول نشطة في المطالبة بحق تقرير المصير للشعوب الافريقية التي كانت خاضعة للاستعمار، وعندما بدأت موجة الاستقلال الكبرى للدول الأفريقية في الستينات صرح داج همرشولد سكرتير عام هيئة الأمم المتحدة عندئذ بقوله « إن الأمم المتحدة من الآن فصاعدا سوف تكون منظمة افريقية » نتيجة التزايد المستمر للدول الافريقية

المستقلة وخاصة في فترة الستينات وما بعدها. فلم تكن هناك قبل الحرب العالمية الثانية من الدول المستقلة سوى أربع دول هي مصر واثيوبيا، وليبيريا، وجنوب افريقية وبلغت الآن خمسين دولة كما ذكرنا، مما زاد من تأثيرها في قرارات الجمعية العامة.

ونجحت الدول الافريقية والآسيوية عام ١٩٦٠ في جعل مجلس الأمن يعقد جلسة خاصة لمناقشة مذبحة شاربفيل التي قام بها بوليس جنوب افريقية ضد مظاهرات الافريقيين الوطنيين، ورغم احتجاج بريطانيا وفرنسا فقد أدينت حكومة جنوب افريقية، واعتبر هذا العمل مما يهدد السلام العالمي بأغلبية الأصوات بما فيها صوت الولايات المتحدة الامريكية. ثم كانت أزمة الكنغو بعد ذلك وتمرد اقليم كاتنجا، فاعتبرت الأمم المتحدة أيضا من مسئولياتها اقرار النظام فيها، وتكونت لجنة من عدة دول افريقية برئاسة جومو كينياتا رئيس جمهورية كينيا حينئذ لمساعدة الكنغو (زائير) على المصالحة الوطنية والالتئام القومي، وان كانت المنافسة بين الزعيمين الكنغويين لومومبا وكازاڤوبو، فضلا عن انقسام الدول الافريقية الى مجموعتي كنغو برزاڤيل، ومجموعة الدار البيضاء قد أضعفت من تأثيرها في المحافل الدولية وقراراتها. ثم كان قيام منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ وتوقيعها ميثاق أديس أبابا في مايو عام ١٩٦٣، مما أدى الى تذويب الكتل المتنافسة، وزيادة نفوذها في الأمم المتحدة، وكان لزيادة ضغط الدول الافريقية أثره في زيادة أعضاء مجلس الأمن من أحد عشر عضوا الى خمسة عشر عضوا، وزيادة عدد أعضاء المجلس الاجتماعي والاقتصادي من ثمانية عشر عضوا الى سبعة وعشرين عضوا، كذلك الحال في كثير من اللجان التابعة للمجلس الاقتصادي والاجتماعي والتي لا يتوقف تغير حجمها على تعديل في الميثاق.

ومن أهم الأحداث التي ظهرت في العلاقات الدولية نتيجة ظهور الدول الافريقية وتحالفها مع الدول الآسيوية، الوصول الى اعتراف الهيئة الدولية بان الاستعمار هو نوع من العدوان، وانه نوع من القهر، وأصبح حق تقرير المصير مبدأ

معترفا به في السلوك الدولي، وأصبحت لجنة الاربعة والعشرين الخاصة بتصفية الاستعمار ذات نشاط فعال في أروقة الأمم المتحدة، وكان لها الفضل في تحريك قضايا الأقطار التي مازالت خاضعة للاستعمار.

ومنذ حصول الدول الافريقية على عضوية المنظمة الدولية بدأت تبحث في تحريك الرأي العالم العالمي ضد نظام الحكم في جنوب افريقية وروديسيا، وضد البرتغال بسبب سياسة التميز العنصري وحرمان الغالبية الافريقية من حقوقها السياسية، ويعتبر عام ١٩٥٨/١٩٥٩ علامة طريق في تاريخ التصويت بالنسبة لجنوب افريقية في الأمم المتحدة نظرا لأن الولايات المتحدة الامريكية منذ ذلك الحين أخذت تصوت ضد التميز العنصري، وكان عام ١٩٦٣ علامة طريق أخرى، حين صدر قرار الجمعية العامة الذي يدعو كل الدول الي وقف بيع وشحن الأسلحة والذخائر من جميع أنواعها والمركبات الحربية الى جنوب افريقية، وتبعه قرار يدعو الى حظر المواد التي تصنع منها هذه الاسلحة والذخائر(٢٥)، ومنعت الدول الافريقية المستقلة مرور طائرات جنوب افريقية في مجالاتها الجوية، ومنعت التسهيلات الملاحية للسفن التي تبحر من جنوب افريقية، مما اضطرها الي اتخاذ اتجاهات أخرى. وبدخول المجموعة الافريقية الأمم المتحدة أصبحت هذه الهيئة الدولية أكثر من قبل مركزا للتفاهم، ونظرا لأنه ليس في استطاعة كل الدول الافريقية إقامة علاقات دبلوماسية مع دول العالم أجمع، فقد أصبحت الأمم المتحدة مركزا للاتصالات الدبلوماسية، وهذا الأمر زاد من أهمية الأمم المتحدة كساحة للمفاوضات والتفاهم، وكانت اللغة الانجليزية تكاد تكون شبه وحيدة، ولكن حين انضمت الى عضويتها الدول الافريقية الناطقة بالفرنسية أحيت استخدام اللغة الفرنسية، وليس من شك أن نمط الدبلوماسيين الافريقيين كان جديدا في المحافل الدولية، اذ لم يكونوا مقيدين بتقاليد دبلوماسية سابقة، لذلك أضافوا الى العرف الدبلوماسي الصراحة وجددوا الحوار.

واذا كانت الدول الافريقية قد لا تتفق أحيانا في بعض القضايا داخل

الجمعية العامة ، فإن وجود منظمة الوحدة الافريقية وقراراتها الجماعية لا شك يزيد من قوة وتأثير افريقية في الأمم المتحدة(٢٦) فقد دعت منظمة الوحدة الافريقية مجلس الأمن عام ١٩٧٢ الى ضرورة تشديد المقاطعة الاقتصادية لروديسيا، وإدانة الدول التي تتعامل في الأسلحة مع جمهورية جنوب افريقية .

وصدر بيان منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٧٦ فيما يختص بمشكلة روديسيا يقول بأن فشل المفاوضات الدستورية بين إيان سميث والحركة الوطنية الافريقية لم يكن مفاجأة لأحد، بل هو متوقع، ومن ثم لابد من استخدام القوة. وعقد مؤتمر عالمي في لاجوس في اغسطس عام ١٩٧٧، وحضرته وفود ستين دولة ليست افريقية فحسب ، بل وفود كل الدول التي تستنكر التمييز العنصري أو التي لها علاقات بالاقليم مثل انجلترا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة الامريكية، وعقد تحت اشراف الأمم المتحدة، وحضره سكرتيرها العام، وكان الغرض منه تعبئة الضمير العالمي ضد سياسة التمييز العنصري .

وهكذا ظهرت الشخصية الافريقية على المستوى الدولي، وهذا أمر لم يتوفر من قبل، وكان للمجموعة الافريقية أثرها حتى في تطور السلوك الدولي داخل المنظمة العالمية .



الحواشي

(١) Clarck, D.J. "Prehistoric origins of Africa Culture", ın Fage, J,D,Oliver, R.A., "Papers in African Prehistory," Cambridge U.P., 1970, p. 3-5.

(٢) Leaky, L. S. B. "The Earliest Tool Makers" in Merrick Ponansky "Prelude to East African History", O.U.P., 1960,P.19

(٣) OP.Cit., P.g.

(٤) يوجد خانق أولد فاي في شمال تنزانيا داخل الاخدود الشرقي ويضم طبقات ممثلة لحضارات العصر الحجري، وقد بدأ دكتور ليكي حفائره فيه منذ عام ١٩٣١، وارتبطت ابحاثه بكل تقدم ظهر في ميدان انسان ما قبل التاريخ. ورغم أن الحفر بدأ عام ١٩٣١، فإن اكتشافات الاحافير البشرية لم تتم سوى عام ١٩٥٩، وذلك باستثناء بعض الاسنان التي اكتشفت عام ١٩٥٥.

(٥) Issac Glynn, "Olorgesilie, "An Investigation into the hatural History of Early Men" in Merrick," Op. cit,pp.40,42

(٦) Davidson, B. "Guide to African Hıstory" London, 1971 p.8

(٧) Ibid.,P.11.,

(٨) Davidson, B., Buah F.K., "The Growth of A frican Civilzation, A History of West Africa 1000 - 1800, "Longmans, London, 1974, PP. 164,166

(٩) Rene Gardi, "Sahara", Translation from the Original, G. Hassap, London, 1970, pp. 124 - 128.

(١٠) Barber, w. "The Movement into the world Economy", in "Economic transition in Africa", London 1964,p.14.

(١١) Hartley, C.W.S., "The Oil Palm", London, 1967, P. 14.

(١٢) Myint, H. "The Economics of Developing Countries, "London, 1967, p.25.

ويلاحظ في حالة القارة الاسيوية ارتباط هذا التوسع في الصادرات بافتتاح قناة السويس.

(١٣) Robson B., Lury D. eds, "The Economies of Africa "London, 1969, p.53

(١٤) Kimble, G. "Tropical Africa" Vol,. Land and Livelihood. Newyork, 1960,p 174.

(١٥) Chudson, W.A., "Trends in African Exports and CapitalInflows" in Economic Transition Africa, p. 338.

(١٦) راجنار نيركه: «التجارة الدولية والتنمية الاقتصادية»، ترجمة د. جلال امين، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والتشريع، القاهرة ١٩٦٩

(١٧) U.N., Africa, "Economic Indicators 1970."P.5.

(١٨) FAO: "Production Year book", Trade Year book, 1975

(١٩) Ibid.

(٢٠) FAO: "Timber Trends and Prospects in Africa", Year book of Forest Products 1972, p.13.

(٢١) ECA,. "Economic Survey for Africa", 1976

(٢٢) DEKUn, n, "The mineral Resources of Africa" O.U.P., 1965,p.5.

(٢٣) OP. cit., P.P.98,99

(٢٤) Hovet Thomas, J., "Effect of the African Group of States on the Behaviour of the United Nations" in "EL - Ayouty, y, Brooks, H., African and the International Organization, The Hague, 1974, p. 11.

(٢٥) Ibid., p. 14

(٢٦) Wallerstein, I., "The Role of the Organization of the African Unity in Contemporary African Politics " in El Ayouty, Y Brooks, H., Ibid.



افريقية والعرب

محاولة التفريق بين العرب والأفارقة

عرف العرب أفريقية منذ القدم، منذ ما قبل الميلاد، وارتبطت افريقية بالعرب في علاقاتها الخارجية ردحاً من الزمن، حتى أتى الأوربيون فكانوا هم أول من أصاب هذه العلاقات بنوع من الوهن، ورغم ذلك فما زالت بصمات الثقافة العربية دينا ولغة بارزة في مواضع شتى من القارة، وظل الأوربيون يظنون أنهم أول من اكتشف القارة، وقام بالتجارة معها، حتى أثبتت الدراسات العلمية الموضوعية من جانب الكتاب الأجانب ذاتهم قدم العلاقات العربية الافريقية وقوتها، ثم عادوا مرة أخرى لتشيع بينهم تسميات عديدة مثل افريقية السوداء L'Afrique Noir وأفريقية البيضاء L'Afrique Blanche ومازال الفرنسيون بصفة خاصة يستعملون هذه التسميات، بينما تشيع في كتابات الانجليز ألفاظ أخرى مثل افريقية جنوب الصحراء Africa South of the Sahara أو افريقية المدارية Tropical Africa، بل وأخذ بعضهم يرسم خطاً بين الأفريقيتين، وتحولت التسميات الى افريقية السوداء وافريقية العربية في الفترة الأخيرة، وكان المقصود بافريقية هي افريقية جنوب الصحراء أو افريقية الزنجية، وكأن القسم الشمالي من القارة ليس بجزء منها. واذا حاولنا التعرف على الخط الفاصل الذي يقولون به فسنجد أنهم لا يتفقون عليه، فنجد باحثاً أنثربولوجيا مثل سليجمان * يمد هذا الخط من مصب السنغال في غرب أفريقية، حتى منتصفه، ثم يتجه الخط شرقاً الى منحنى النيجر، ومنه الى بحيرة تشاد، ليتجه شرقاً

---

* عالم انثربولوجي بريطاني وضع مؤلفه عن سلالات افريقية Race of Africa في الثلاثينات. وأعيد طبعه عدة مرات، كذلك كان أول من وضع كتاباً عن قبائل جنوب السودان باسم Pagan Tribes of Nilotic Sudan وقد اعتمد على هذين الكتابين كثير من الجغرافيين ردحاً من الزمن.

بانحدار الى الجنوب حتى يصل الى مجرى بحر العرب (أحد روافد النيل يأتيه من دارفور) و يتبعه بالقرب من خط ٩° شمالاً . وعندما يقترب الخط من جبال النوبة يتجه نحو الشمال و يدور حول الجبال حتى يصل الى النيل الأبيض فيخترقه عند خط عرض ١٢° شمالاً . ويمتد عبر أرض الجزيرة في اتجاه غربي شرقي حتى يبلغ سفوح هضبة الحبشة ، وهناك يتجه نحو الجنوب في اتجاه رأسي تقريباً حتى يصل الى المحيط الهندي بالقرب من نهاية نهر طانا ، و يصل الى المحيط الهندي في نقطة جنوب خط العرض الثالث جنوب خط الاستواء .

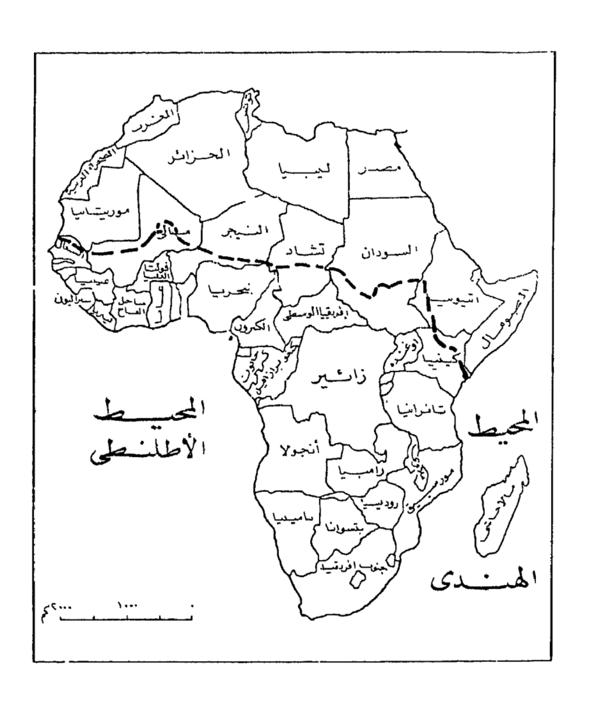
واذا تركنا سليجمان الى وردنجتون نجد حد افريقية جنوب الصحراء يبدأ بخط شمال مصب السنغال، ويمتد مستقيما الى الشرق بحيث يضم ثنية النيجر، لكنه يقسم جمهوريات موريتانيا ومالي والنيجر وتشاد الى قسمين، الشمالي يتبع افريقية البيضاء والجنوبي يتبع افريقيا السوداء. و ينتهي هذا الخط المستقيم عند التقائه بحدود السودان الغربية عند دارفور، فيتبع الحد السياسي لجمهورية السودان، و يدور جنوبا حول السودان واثيوبيا وكينيا فيسير مع الحدود الجنوبية لاثيوبيا والحدود الغربية للصومال حتى ينتهي الى المحيط الهندي، هذا بينما يسير خط جورج كمبل * مع خط وردنجتون الى أن يفترق عنه في السودان حيث يضم كمبل كل السودان داخل افريقية السوداء أو الزنجية.

هذه الخطوط المتعددة ليست فاصلة أو قاطعة بين العرب فى الشمال والزنوج في الجنوب بالدرجة الأولى، وان كانت تقريبية فهي بين الحاميين والزنوج، بل هي في كثير من الأحيان اقليم اختلاط بين السلالتين. فهناك عدد من الجماعات الزنجية والمتأثرة بالصفات الحامية على طول الحافة

---

* رئيس قسم الجغرافية بجامعة انديانا أخرج مؤلفا من جزأين عن افريقية المدارية

Tropical Africa



شكل رقم (١٥) تقسيم أفريقية الى بيضاء وسوداء

- - - الخط الفاصل بين أفريقية البيضاء، وأفريقية السوداء عن

Seligman, C.G., Races of Africa, O.U.P., 1966, pp.30,31

الجنوبية للصحراء مثل عناصر التكرور في السنغال، والمندنجو في النيجر الأعلى، والفولاني في النيجر الأوسط، والهوسا في شمالي نيجيريا، والنيليين في السودان الجنوبي، وأنصاف الحاميين في أوغندا وكينيا وشمال تنزانيا، وأعداد غير قليلة من السواحيلية في كينيا وتنزانيا.

ولم تسلم الأقاليم الواقعة شمال هذا الخط من أن يصل اليها بعض الدم الزنجي بصورة أو أخرى، فقد ساعدت تجارة الرقيق على تسرب الدم الزنجي نحو الشمال، وهي ظاهرة سلمية كان لها اثرها في انتشار الدماء الزنجية ولو بدرجة ملطفة. ولم يساعد على هذا الاختلاط مجرد التجاور الاقليمي، بل ساعد عليه بوجه خاص سهولة الأرض وسهولة الانتقال فيها، وانتشار حرفة الرعي التي لا تقيد الناس تقييدا شديدا بالارض التي يعيشون عليها.

والاختلاط والامتزاج على ضروب مختلفة. ونقصد بالاختلاط اجتماع عناصر مختلفة مع احتفاظ كل منها ببعض خصائصها، أما الامتزاج فهو اندماج عنصرين مختلفين حتى يتألف منهما مركب جديد قائم بذاته. ومن الاختلاط والامتزاج مايتناول الصفات الجسدية أو مايتناول الثقافات وحدها، فيتأثر الناس بثقافة غير ثقافتهم مع بقاء دمائهم على ماكانت عليه تقريبا.

على العموم لقد بات من المتعذر أن يرسم خط ليفصل بين المجموعات فصلا تاما، لذلك تعددت الخطوط بتعدد الباحثين، وهذا معناه أنها لا تقوم على أسس علمية ثابتة، وانما هي مجرد اجتهادات فردية، من ثم كان هذا التعدد من أول دلائل هدم فكرة تقسيم افريقية الى قسمين. فهي فكرة أوربية أي مصنوعة في الخارج وليست إنتاجا محليا، والغرض من الضغط عليها وابرازها هو التفريق، وهذه عملية ليست جديدة على الاستعمار منذ وطىء أرض القارة، يتلمس نقاط الضعف، وينفذ منها أو يحاول، تارة على أساس الدين بين مسلمين وأقباط، وتارة على أساس العرقية أو الثقافة، بين زنوج وعرب، بيض وسود وهكذا.

وسنناقش في هذا الفصل قدم الاتصالات العربية الافريقية ووثوق هذه الصلات والقضايا التي يحاول بها العالم المتقدم الايقاع بين العرب والافارقة، ثم أهمية التضامن والتكاتف العربي الافريقي في عالمنا المعاصر.



قدم الاتصالات العربية الافريقية :

جد العرب في ديارهم قبل أن يعرفوا باسم العرب بين جيرانهم، وكانت لهم لغة ربية يتكلمونها، وتمضي على سنة التطور عصرا بعد عصر، الى أن تبلغ التطور الذي عرفناه منذ أيام الدعوة الاسلامية، وهذه هي القاعدة في تسمية الأمم وفي تطور اللغات، فلم يكن العرب بدعا فيها بين أمم المشرق والمغرب.

فاذا اتفقنا على هذا، وليس هذا موضع خلاف، فان العلاقات العربية الافريقية قديمة للغاية، وللعرب في أفريقية تاريخ مضيء أشار اليه الرحالة الاغريقي مؤلف كتاب الكشاف البحري Periplus في القرن الأول الميلادي (١) حين كتب يعجب لكثرة السفن العربية على الساحل الشرقي لافريقية، و يشيد بقدرة العرب على العيش بين الأهلين حتى في ذلك الزمان البعيد، يتزاوجون فتختلط الانساب ولا يجد الخصام بينهم سبيلا و بين الافارقة. تجيء سفنهم من الجزيرة العربية ومن كل صوب في المحيط الهندي بالخناجر والرماح والزجاج، وتقلع من الساحل الشرقي تحمل العاج وقرون الخرتيت وجلود السلحفاة. ولم يكن اتصال العرب بافريقية مقصورا على ساحلها الشرقي وظهيره، بل كان أيضا أقدم عن طريق سيناء أو المدخل الشمالي الشرقي لافريقية.

وقد شهدت العصور الأولى من فجر التاريخ شعوبا و بطونا عربية تنطلق من قلب شبه الجزيرة العربية في اتجاهات مختلفة ومنها أفريقية، أولئك وهؤلاء كانوا شعوبا وقبائل سامية تتفرع من أصل واحد ترد نسبته الى سام بن نوح، و يتكلمون لغات نبتت من معين واحد وان بعدت الشقة. ولم يكن لقبيلة يومئذ ان تؤثر نفسها ــ وكلها من أصل واحد ــ بصفة العروبة دون غيرها من أهل تلك الأمصار أو هذه الديار، فلم يكن معنى العروبة قد نبت بعد الى الوجود، فلما

جاء الاسلام عمل القرآن على توحيد اللسان وأصبح اللسان العربي مصطبغا بلهجة قريش.

وعملية الانتشار من شبه جزيرة العرب الى مصر أمر طبيعي حيث حياة الانتقال والبداوة الى المناطق الاكثر غنى، خاصة في فترات القحط الشديد والجدب الذي يصيب البادية احيانا سنوات متتالية. و يربط بعض الباحثين هذه التدفقات بالذبذبات المناخية الأخيرة، و بصفة خاصة بالجفاف الذي يصيب البادية (٢)، فعندما نزل ابراهيم عليه السلام أرض مصر، وكان هذا من المرجح في أيام الاسرة الثانية عشرة أي في القرن العشرين قبل الميلاد فرارا من قحط وجوع في فلسطين كما روى الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين « وحدث جوع في الأرض، فانحدر إبرام الى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديدا » وليس من شك أن ابراهيم هبط على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور، وأكبر الظن أن ابراهيم قد هبطها مع إحدى قوافل البدو تلك التي كانت تقبل بائعة لها وشارية منها. وعندما وصل الهكسوس مصر (١٧٠٠ ق. م) أحضروا معهم زوجاتهم وأطفالهم الى جانب مواشيهم وقطعانهم، وعندما طردوا من مصر (١٥٨٠ ق. م) رجعوا الى بلادهم في عشائر ودفعوا مواشيهم أمامهم كأنما ظهرت أمامهم ظروف محسنة لمراعيهم في الصحراء. ولما هدد يوسف إخوته بأنه لن يبيعهم الا اذا رأى أخاهم الأصغر، كان هذا خطرا يفزع شبحه النفوس، لأن القحط والمجاعة قد كانا يومئذ في فلسطين أعنف وأفعل من أن يتحملها أحد .« ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم، الا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون، قالوا سنراود عنه أباه وانا لفاعلون ». (٣)

« فلما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون، قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » (٤)، واضطر تحت ضغط القحط أن يرسل ابنه الأصغر معهم بعد أن أخذ عليهم عهدا بالحفاظ عليه.

كذلك طبقا لما جاء في سفر التكوين، كانت المجاعة هي السبب في عدم استقرار اليهود ونزولهم مصر مهاجرين، كما فعلت بعض قبائل أدوم التي جاء ذكرها في خطاب موجه الى فرعون مصر مرنبتاح في منتصف القرن الثالث عشر ق. م، ومن الشواهد أيضا أنه لقرون قليلة قبل الاسلام، كانت هناك هجرة قبائل من جنوب شبه جزيرة العرب حيث استقرت على أطراف الدولة الرومانية والفارسية، وهما اللخميون غرب الفرات والغساسنة شرق الاردن.

وهكذا يربط الباحثون العلاقات العربية مع افريقية في العصور القديمة بالأحوال الطبيعية والسياسية والدينية، ففي الفترات السخية بأمطارها في شمال شبه جزيرة العرب تستقر الأحوال وتنتظم التجارة المصرية معها، أما في فترات الجفاف حين تضطرب الأحوال، و يظهر قطاع الطرق، فتصبح التجارة معها مستحيلة. وفي كثير من الأحوال ارتبط الجفاف باغراء البدو بغزو مصر خاصة من شمالها، وكرد فعل لهذا الغزو يتمركز الحكام الوطنيون في الجنوب، وتشتد العلاقات بحكم الموقع الجغرافي حول المدخل الجنوبي للبحر الأحمر سواء في جنوب شبه جزيرة العرب أو على الجانب المقابل من الصومال، كذلك كان لقوة طيبة في فترات ضعف مصر شمالا أثره في زيادة الطلب على البخور اللازم للطقوس الدينية، وهكذا كلما اشتد الخطر في الشمال ازدادت العلاقات مع الجنوب ليعيشا في هدوء بدلا من الاغارات.

و يبدو أن أزمة المناخ التي شاهدتها شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بلغت ذروتها في القرن السادس ق. م.

على العموم اذا كان التغير في كمية الأمطار لم يكن كبيرا، فآثاره كانت كبيرة لاشك على أقليم كان في الاصل ما بين الجاف وشبه الجاف. ومن الممكن القول إن الجفاف اشترك ضمن عوامل اخرى في عدم الاستقرار ابتداء من القرن الثالث الميلادي و بصورة أكبر في بداية القرن السادس الميلادي.

على ان هذا ليس معناه ان التوسع العربي في العصور الأولى للاسلام يرجع

الى الجفاف المناخي، لأن الانتشار هنا يختلف عن انتشار الكنعانيين والأراميين وغيرهما من الشعوب السامية، ووجه الاختلاف أنه لم يكن مصحوبا بهجرات واسعة، ولكن فيما بعد كانت هذه الهجرات نتيجة للانشقاق السياسي في داخل الخلافة الاسلامية.

طرق الاتصال

شمال افريقية

مصر:

رأينا كيف كانت الحركة مستمرة من شبه جزيرة العرب الى أرض مصر منذ عهد ابراهيم و يوسف، بل وقبلهما، لأن اتجاهها هذه الوجهة يدل على أن الحركة مألوفة في هذا الاتجاه، وقد ساعد على هذا وجود شبه جزيرة سيناء و برزخ السويس كأدوات وصل بين الجناحين الأسيوي والافريقي، فكانت سيناء معبرا بين جنوب غرب آسيا وافريقية، وكانت أحد الطريقين الرئيسين اللذين كانت تأتي منها الهجرات العربية الى افريقية، والآخر وهو باب المندب سنأتي على ذكره فيما بعد.

وقد اتبعت الهجرات والحملات التي عبرت سيناء الى وادي النيل اقليم الساحل الشمالي، وما زال الثلث الشمالي لسيناء هو أرض العبور الى الوادي، ذلك أنه أوفر أجزاء سيناء مطراً، غني بكثبانه الرملية الحافظة للماء وتعظم عذوبة هذا الماء كلما جاوزنا العريش شرقاً الى رفح، هذا فضلا عن أنه أقل أجزائها وعورة (٥).

وليس المجال هنا لتتبع الهجرات القديمة، ولكننا اذا ما قفزنا الى ما قبل الميلاد فسنجد دولة الانباط في القرن ٤ ق. م وقد بسطت نفوذها وامتدت في شمال شبه جزيرة العرب الى سوريا، ومن الفرات شرقاً الى البحر الأحمر غرباً، وبلغت هذه الدولة أوج قوتها في القرن الأول ق. م. وامتد نشاط سكانها الى مصر وسكنت منهم جماعات على ضفاف النيل

والصحراء الغربية والشرقية بعد زوال دولتهم على أيدي الرومان، ومنهم من سكن وادي النيل، بل وامتد نشاطهم الى برقة. وأتت مصر بعد الانباط بطون من قضاعة، وسكن معظمهم بوادي مصر الشرقية وصعيدها زمناً طويلا. وبعد أن تحررت الشام من الحكم البيزنطي في عهد عمر بن الخطاب، وقبل أن يدخل عمرو بن العاص أرض مصر، تفرق بنوغسان وغيرهم من القبائل العربية النصرانية، ووصلوا مصر واستقروا فيها.

هذا وقد قدمت القبائل العربية بعد ظهور الاسلام الى مصر، واستقرت فيها. ويكفي أن نقول بأن النويات الأولى وكانت تمثلها الحاميات، كانت نويات كبيرة، فبلغت حامية الفسطاط في عهد معاوية أربعين الفاً، وحامية الاسكندرية سبعة وعشرين الفاً، وحامية الصعيد عشرين الفاً، وقد تزوج معظم أفرادها من مصر، واستمرت هجرات القبائل العربية متدفقة مختلطة ومندمجة مع المصريين حتى اذا كان القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، كانت غالبية الشعب المصري تتكلم العربية ولا تفهم القبطية.

السودان:

وترجع أيضاً صلة السودان بعرب شبه الجزيرة الى ما قبل ظهور الاسلام بفترة طويلة، فلم يكن من الصعب اجتياز البحر الأحمر بالسفن الصغيرة، لانه لم يكن ما يمنع الاتصال بين شاطئيه العربي والأفريقي، غير ان انتشار العروبة والاسلام بصورة أساسية اتاه عن طريق مصر، بعد ان تعربت وأسلمت، فاصبح الباب الشمالي للسودان مفتوحاً للاسلام والثقافة العربية، وتتقاسمه ثلاث مجموعات قبلية كبرى: الجماعات العربية في السودان، وما زالت تحتفظ بالقابها وهي المجموعة التي تنسب نفسها الى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، ومجموعة جهينة وهي قبائل قحطانية وفدت الى مصر في بداية العصر الاسلامي، ثم تسربت الى أوطان شرق السودان، اما مجموعة الكواهلة فقد انتشرت من العطبرة والنيل الأزرق الى اقصى غرب السودان(٦). وكان يمكن للعروبة الامتداد على هذا

المحور جنوباً لولا وقوف الاستعمار البريطاني أمامها سداً باعلان اقليم جنوب السودان اقليما مغلقاً أمام سكانشمال السودان، ومع ذلك فقد انتشرت اللغة العربية بين قبائل كالدنكا والشلك الذين يعيشون على اطراف الاقليم، كذلك اتصل اهل دارفور (غربي السودان) بتونس، كما ذهب كثير منهم الى غرب افريقية حيث مدارس العلم في كانو وتمبكتو.

الحبشة:

يضيق البحر الأحمر أكثر ما يضيق في طرفه الجنوبي أو فيما يعرف بباب المندب، فهنا تقترب افريقية من شبه جزيرة العرب، واذا أضفنا الى هذا الجزر التي تقع في هذا المضيق أدركنا سهولة الحركة والانتقال عبر هذا الجزء، فمن ثم كانت اليمن وما يليها الى الشمال والجنوب مصدراً لهجرات عديدة أثرت تأثيرا بالغاً في الهضبة الحبشية وأعالي النيل الأزرق، وسواحل السودان الشرقية، وكانت المؤثرات الحامية والسامية تتدفق من ذلك القسم الجنوبي من شبه جزيرة العرب أكثر من تدفقها من وسطها، وذلك لوفرة سكان بلاد اليمن ولبراعة السكان في الملاحة ولاقتراب اليابستين الافريقية والعربية. ومن المعروف تاريخياً أن عرب اليمن قد هاجروا الى هضبة الحبشة ونشروا فيها الثقافة العربية في وقت يرجع الى عهد بعيد ايضاً. وفي الحق لقد كانت نقطة الانطلاق في تاريخ اثيوبيا تتصل اتصالا وثيقاً بجنوب الجزيرة العربية، اذ تدفق الساميون من هناك غزاة أحياناً وتجاراً احياناً على جبال اثيوبيا المنيعة وسهولها الواسعة، وطوروا مع الوقت حضارة أثيوبية، أضافوا إليها من حضارتهم سمات كثيرة، وأقدم آثارهم المخطوطة نحتاً يرجع الى القرن الرابع ق.م.، وان كنا نرجح انها ترجع الى قرون عديدة قبل ذلك، فلفظ الحبشة يرجع الى قبيلة حبش العربية التي هاجرت من جنوب الجزيرة العربية من القرن العاشر الى القرن السابع ق.م.، ولم يأت القرن الرابع ق.م. حتى غلب اسم هذه القبيلة العربية على البلاد.

واذا كان هذا التأثير العربي قد وصل الى حدود السودان كما نعرفه

الآن، فهل وقف هذا التأثير عند تلك الحدود؟ وهل كان مقصورا على القبائل اليمنية؟ من الصعب ان نتصور هذا التأثير لم يتناول غير الحبشة، أو أن اليمن وحدها هي التي كانت مصدرا لتلك الهجرات، فسكان الحجاز بدورهم كانوا يعرفون الحبشة تمام المعرفة، ومن ثم كانت الهجرة الأولى اليها عندما خرج اليها جعفر بن أبي طالب وصحبه، ثم ان غير قليل من الممالك المنتشرة حول بحيرة تشاد الى الغرب من السودان ينتسب رجالها الى سيف ابن ذي يزن وهو من ملوك التتابعة (اليمن). ومن الصعب أن نجد سببا يدعو الى الحكم ببطلان هذا الزعم، أو أن هجرة يمنية لم تؤثر على الأقل في الطبقات الحاكمة في تلك الأقطار قبل الاسلام بقرون.

المغرب :

عمر الانسان بلاد المغرب منذ أقدم العصور، ودل على هذا التعمير تلك الحضارات التي قامت في العصور الحجرية، غير أنّ أهم العناصر الأساسية كانوا البربر، ولفظ البربر من المرجح أنه مشتق من لفظ Barbari اللاتيني ومعناه الأجانب بالنسبة للرومان ، ومن الجائز «المتلعثم في كلامه»، ومن المحتمل أن الرومان لم يستطيعوا أن يفهموا لغة البربر فاطلقوا عليهم هذا الاسم، والبربر في الحقيقة هم عبارة عن الشعبة الشمالية من الحاميين الذين وصلوا من الشرق وخاصة من القرن الافريقي وجنوب شبه جزيرة العرب، وكثيرا ما يشير الكتاب حين يتحدثون عن القبائل العربية في شبه جزيرة العرب وما يليها من الأقطار الى أن البربر من سكان افريقية الشمالية لهم صلة نسب قديمة بالعرب، وان بعض قبائلهم ومن بينها صنهاجة وكتامة ذات أصل يمني، ويذهب الاستاذ جرينبرج الذي يعد من أفضل من درس اللغات الافريقية الى أن لغة البربر واللغات السامية تمت كلها الى أصل واحد، وقد سماها المجموعة الأفرواسيوية، ولن تكون القرابة اللغوية قائمة دون أن تستند الى شيء من القرابة الروحية بين العرب وسكان الشمال الافريقي(٧). وتتفق هذه

النظرية مع ما ذهب اليه عالم الآثار ادولف ارمان من أن مايسمى بالجنس الحامي والذي ينتسب اليه بعض سكان جنوب شبه الجزيرة العربية وسكان الحبشة والصومال وقدماء المصريين والبربر ما هو الا جنس سامي هاجر الى افريقية من جنوب الجزيرة العربية، ثم اختلط بدماء افريقية متنوعة .

أما بعد ظهور الاسلام في شبه جزيرة العرب فقد زحفت موجة من المد العربي الى الشمال الافريقي في أوائل النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، كان معظمها من الخوارج الذين هزمهم على بن أبي طالب، أي أن هذا كان قبل الفتح العربي الاسلامي للبلاد على يد عقبة بن نافع. واستقر هؤلاء المهاجرون الأول في تونس، ولا تزال سلالتهم الى الآن في جزيرة جربا وفي الواحات الجنوبية .

أما موجة الفتح العربي فكان لها أثر أكبر في نشر اللغة العربية والاسلام، فقد جاست جيوش العرب البلاد من الشرق الى الغرب الى أن تم الاستيلاء عليها وطرد الرومان، وكانت الجيوش العربية تتألف من الرجال دون النساء هنا أيضا ، فلما استقروا تزوجوا من نساء البربر ونشروا العربية والاسلام، وكانت عاصمتهم القيروان التي أسسها عقبة بن نافع، كما كان لوالي المغرب خليفة في طنجة. وكانت الموجة الأخيرة والكبيرة هي موجة بني هلال وبني سليم في القرن الحادي عشر (١٠٤٥م) حين سمح الخليفة المستنصر لهذه القبائل بأن تتخذ طريقها الى بلاد المغرب انتقاما من قبائل صنهاجة، لأنها خطبت باسم الخليفة العباسي، ووصل بنو هلال الى ما يعرف بالصحراء الغربية* ومنهم من احتل سهول الاطنلطي في

---

* يقصد بذلك الاقليم الذي يقع بين المغرب وموريتانيا، وهو يمثل مشكلة سياسية بين المغرب والجزائر وجبهة تحرير هذا الاقليم المعروفة باسم البوليزاريو بعد جلاء الاسبان عنه عام ١٩٧٥، وكان يعرف باسم ريودورو، راجع مشكلة الصحراء الغربية للمؤلف، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد الرابع عشر، ديسمبر/محرم ١٣٩٨هـ. ص ١٥٧/١٧١.

المغرب، ومن احتل المناطق الداخلية من فاس الى مراكش (٨)، وهكذا انتشرت العربية والاسلام ، وأصبح كثير من المساجد جامعات اسلامية، كما في فاس وتونس والقيروان . وفي الحق لقد كان المغرب في الركن الشمالي الغربي لافريقية أشبه بمصر، فمنه خرج الاسلام والعروبة نحو الجنوب وكان امتداد الاسلام والعروبة هنا أكثر بعدا نحو الجنوب عنه في شرق القارة، فقد وصلت الى حوض السنغال والنيجر بفضل المرابطين الذين نشروه بين قبائل الفولاني في غينيا عام ١٠٧٦م، كما ازدهر الاسلام على أيدي تجار الهوسا الذين ينتشرون في مساحات واسعة شمال نيجيريا، بل ووصل تجار الهوسا بالاسلام الى قبيلة الاشانتي في جنوب غانا وداهومى .



نحو قلب افريقية

الصحراء الكبرى اقليم فصل أو وصل؟:

لم تشرع الصحراء الكبرى تفقد خصوبتها وماءها الا في أربعة آلاف السنة الأولى قبل الميلاد، فقد نضبت مياهها تدريجياً على مر الأيام، مما جعل الصحراء تأخذ صفاتها الحالية من الجدب والقسوة، وزعم البعض أنها بذلك أصبحت فاصلا بين الشمال والجنوب، بين افريقية شمال الصحراء وافريقية جنوب الصحراء. واذا كانت افريقية جنوب الصحراء ظلت مظلمة حتى القرن التاسع عشر في نظر الأوربيين فلم يكن الحال هكذا بالنسبة لسكان افريقية الشمالية أو عرب شبه الجزيرة، فلم تكن هناك قطيعة كاملة، بل كان هناك اختراق لهذه الصحراء في مواضع متعددة. وكان هناك دوران حولها، فقد تم اختراق الصحراء في شرقيها عن طريق وادي النيل الى الاقليم السوداني وما وراءه، وكان هناك عبور لها في ليبيا ومن المغرب الكبير الى النيجر والسنغال، أما تطويقها فقد تم عن طريق اتصالات عرب شبه الجزيرة بالقرن الافريقي والساحل الشرقي لافريقيا، فضلا عن الدوران حولها من الغرب.

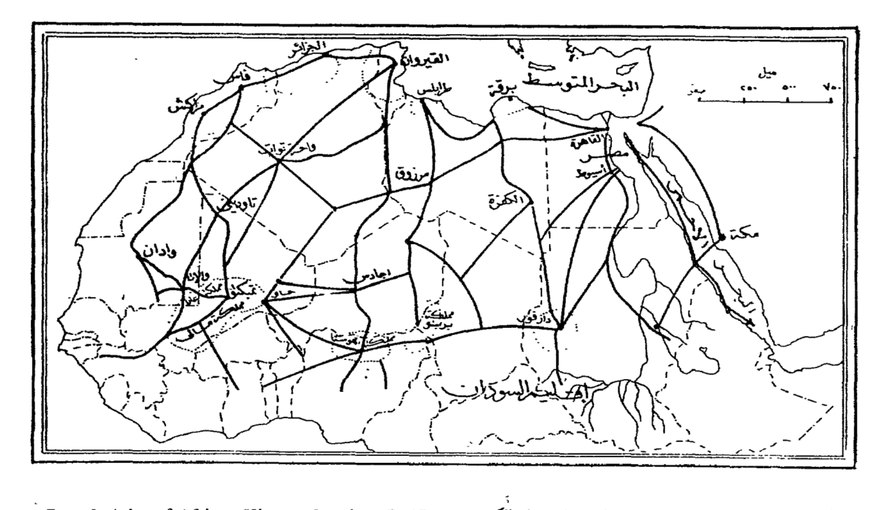
هكذا قبل أن يعبر يوليوس قيصر بحر المانش باربعمائة عام، تراهن شباب من شمال الصحراء الكبرى مع أصدقاء لهم، على عبور القفر من ذلك الشمال الى الجنوب وكانوا من أبناء أصحاب الشمال وسادته، الناسامونيين، فقضوا زمانا يتيهون في الصحراء فقد كانت كما هي موحشة، خرج هذا الشباب المغامر من مسكنه في برقة ومشوا جنوبا واتجهوا غربا حتى أتوا اقليم الحيوانات المفترسة وعبروه بعد لأى حتى رأو أشجاراً مغرية الثمار، فاذا قوم صغار القامة، أقل في ارتفاعهم حتى من الشخص المتوسط ينقضون عليهم من كل جانب ويحملونهم قسرا الى حيث يقيمون، وأرادوا الحديث اليهم فلم يتيسر ذلك لهم، فما فهموا الناسومانية التي كانوا بها يتحدثون، ولا فهم هؤلاء عنهم شيئا مما يقولون، أرض

فسيحة كثيرة العشب والمياه الراكدة، ثم أتوا بعدها المدينة، وما بها من أحد إلا هؤلاء القوم صغار القامة سود الوجوه، وكانت المدينة على نهر عظيم تجوبه التماسيح، يسير من الغرب صوب الشرق.

هذه النبذة التي اشار اليها هيرودوت وأثبتها في كتابه تشير الى الرباط الذي كان بين هذه الحضارات التي تبناها النيل على ضفافه والبحر المتوسط على شطئانه وأخواتها التي قامت بعيدا جنوب الصحراء، وأثبتت أن الاتصالات عبر الصحراء كانت مستمرة منذ أقدم العصور، بل سبقت بكثير وصول العرب والاسلام الى افريقية. ولكن هذه الاتصالات المبكرة رغم أهميتها فمن الصعب تتبعها بدقة أو توقيعها على الخرائط بالتفصيل، ذلك أن الادلة في تلك العصور البعيدة محدودة، وتكاد تقتصر على اشارات في كتابات القدماء أو بعض الأدلة الاثرية غير الكاملة، وإن كانت النقوش الصخرية قد أشارت الى عدة طرق تعبر الصحراء، (٩) غير أن ذروة اتصال الشمال الافريقي مع افريقيا جنوب الصحراء كان بعد تعريب الشمال الافريقي.

ذروة الاتصال العربي لغرب افريقية عبر الصحراء:

وجدت التجارة بين شمال افريقية وغربيها دفعة قوية بعد ثلاثة قرون من ظهور الاسلام و بعد انتشار العرب في شمال افريقية ودخول الجمل. (١٠) ولما جاء العرب في القرون الوسطى عرفوا آبار الصحراء واحدة واحدة وعبروا ذلك القفر في شهرين وأكثر. و يعتبر دخول الجمل حادثا فريدا في الصحراء الكبرى الافريقية، فبينما لم تنتظر الحركة في الصحراء وصول الجمل، فانه كان صاحب الفضل في جعل طرق القوافل شرايين منتظمة للتجارة والحضارة بين جزأي افريقية شمال الصحراء وجنوبها. ومع تدهور الحكم الروماني في شمال افريقية في القرن الرابع الميلادي اختفت هذه التجارة أو كادت، ولم تستعد نشاطها حتى الفتح البيزنطي لشمال افريقية (٥٣٣ـــ٣٥)، ثم كان الفتح العربي لشمال افريقية وأثره البالغ في نشاط هذه التجارة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل وما كان مجيئهم للاغارة كما فعل البربر قبلهم ولا للاقامة الهاربة كما فعل اليهود



شكل رقم (١٦) طرق التجارة والاتصال عبر الصحراء الكبرى عن Fage.J. Atlas of African History. London. P. 17.

والبربر حيث شق عليهم العيش مع الروم، بل كان التجار العرب يحملون رسالة ويتحدثون لغة مرموقة. واتخذت آثارهم هذه سمتها القوية التي بقيت اليوم في سحنة الكثيرين وفي دينهم ولغتهم. فقد ظهر التجار العرب منذ النصف الثاني من القرن الثامن، وزاد نفوذهم بعد غزو المرابطين لمملكة غانا عام ١٠٧٧. وكانت تلك الفترة المعاصرة للعصور الوسطى في أوربا، هي فترة ازدهار لطرق التجارة الصحراوية وخاصة من منتصف القرن الثالث عشر الى نهاية القرن السادس عشر، فقد شهدت هذه الفترة طلبا ملحا على منتجات غرب افريقية من جانب اوربا وافريقية الشمالية، وربما ساعد على هذا أيضا الحكومات المستعمرة في كل من افريقية الشمالية وغرب افريقية.

ويكاد يجمع الباحثون على ان العصر الذهبي لهذه التجارة شارف النهاية في القرن السادس عشر نتيجة لتوسع التجارة البحرية التي سلبت طريق البر أهميته، ووجهت التجارة نحو الساحل الغربي لافريقية خاصة بعد عدم الاستقرار السياسي الذي حدث في غرب افريقية نتيجة القضاء على مملكة سنغى بواسطة المغاربة عام ١٥٩١.

ولكن يبدو أن التحليل السابق فيه شيء من المبالغة، ذلك أنه ليست هناك شواهد كبيرة على ان وصول الاوربيين الى ساحل غرب افريقية كان له تأثير سريع على اقتصاديات الداخل، ذلك ان التجارة عبر الصحراء زادت قيمتها خلال القرن التاسع عشر، أما التدهور النهائي فلم يظهر الا بعد ١٨٧٥.

وهنا لابد من توضيح ثلاث نقاط تستحق المناقشة فيما يختص بدراسة هذه التجارة من الناحية الاقتصادية.:

أولا:— ان النقص الاحصائي يعتبر عائقا كبيرا يحول دون التفسير الصحيح لنمو وهبوط التجارة الصحراوية، ولذلك يجب ان يكون هناك شيء من الحذر في استخدام المعلومات.

ثانيا:— ان تفسير الذبذبات في التجارة الصحراوية صعودا وهبوطا في

الوقت الحاضر سيظل مبنياً على اساس فهم غير صحيح للعوامل المحددة للازدهار والكساد في مثل هذه التجارة غير العادية. فالابحاث الحالية تركز على العوامل السياسية وخاصة الاستقرار وعدم الاستقرار على هامشي الصحراء الجنوبي والشمالي، أي عند بدايات ونهايات الطرق الصحراوية.

وكانت السلع موضوع التجارة يحددها اعتباران، بصرف النظر عن انخفاض القوة الشرائية في غرب افريقية: أولهما طول الرحلة التي كانت تقطع فيما بين ٢٧٠ و٩٠ يوما وأحيانا لمدة اطول، وهذا معناه أن السلع السريعة التلف لا مكان لها في هذه التجارة. وثانيهما أن جميع السلع لابد وأن تكون قيمتها كبيرة بالنسبة لوزنها، ذلك أن أجور النقل عبر الصحراء كانت تضيف ما يتراوح بين ١٠٠٪ و١٥٠٪ من تكاليف السلعة، ولكن هذه النسبة تنخفض بطبيعة الحال اذا كانت قيمة السلعة مرتفعة. فالرقيق حقيقة كانوا ينقلون أنفسهم ولكن كان لابد من اطعامهم وحراستهم. (١١)

والسلع التي كانت تتم فيها التجارة يمكن تقسيمها الى فئتين، وإن كان ليس من السهل وضع خط فاصل بينهما: فهناك ضروريات الدولة كالذهب والرقيق التي كانت تتجه شمالا، والأصواف والملح والاسلحة التي كانت تتحرك جنوبا، فهذه السلع الأساسية لعبت دورا أساسيا في الحفاظ على البناء الاقتصادي والسياسي للدول التي كانت تشتريها سواء في أوربا أو افريقية الشمالية أو غرب افريقية. فالذهب والاصواف كانت أساس العملة، والرقيق يمثلون نسبة لا بأس بها من القوى العاملة والقوة الحربية في بعض الاقاليم، أما الملح فكان ضرورة غذائية. و يضاف الى ذلك المعدات التي كانت سندا للقوة السياسية.

وكان هناك بعض السلع الكمالية كالملابس الغالية والفلفل والعاج وثمار الكولا والمصنوعات الجلدية، وأضيف اليها في القرن التاسع عشر ريش النعام، وهي سلع كانت تتجه شمالا، وهناك أنواع من المنسوجات (وخاصة تلك

المصنوعة بأصباغ غير متوفرة محليا) والنحاس والأغذية المحفوظة والآنية الزجاجية والخرز وغيرها كانت تتجه جنوبا.

ومن هذه السلع ما يجب أن نتوقف قليلا عند بعضها لايضاح أهميتها في الحركة التجارية. أما عن أصل تجارة الذهب بالتحديد فهو غير واضح ولكنها قد ترجع الى أيام القرطاجيين أو قبلهم بقليل، ولكن زادت صادراته بصورة واضحة خلال القرن الحادي عشر بعد استخدام الذهب في العملة في العالم الاسلامي، ثم زادت مرة أخرى بعد عام ١٢٥٢ بعدما بدأ الذهب يحل محل الفضة في أوربا كعملة رئيسية، وهكذا كان غرب افريقية هو المورد الرئيسي للذهب في العالم مابين القرنين الحادي عشر والسابع عشر أي حتى كشف الامريكتين وقد قدرت قيمة الذهب الذي صدر عبر الصحراء قبل وصول البرتغاليين بنحو ٢٠٠ ألف جنيه استرليني سنويا.(١٢) وكان أهم حدث في تاريخ الكشف البرتغالي (من الناحية الاقتصادية) لافريقية هو الوصول الى ساحل يمكن فيه المقايضة بالذهب عام ١٤٧١م، فقد كشفوا ساحل الذهب واطلقوا على هذا القسم من ساحل غانا اسم الميننا (أي المنجم Mine) وبنوا حصن سان جورج عام ١٨٤٢ في الميناء المعروف باسم المينا اليوم في دولة غانا ليكون بمثابة مستودع للتبادل بين السلع البرتغالية من ناحية، وذهب غرب افريقيا من ناحية أخرى.

ويأتي الملح في المكان الثاني في تجارة تلك العصور بعد الذهب، بل وأحيانا يتفوق عليه اذ يندر وجود الملح في الاقليم السوداني بين الصحراء والغابات. ذلك أن تراجع الصحراء التدريجي أبعد سكان الاقليم السوداني عن مواطن هذه المادة المشتهاة التي تستخدم في تجفيف الطعام والمحافظة عليه فضلا عن اعطائه مذاقا خاصا، ولم يكن في الامكان الحصول على الملح جنوب الصحراء الا بعملية شاقة، أي تقطير الحشائش، ومن ثم ظهرت أهمية ملح الصحراء. وهكذا بلغت أهمية الملح لدى السودانيين درجة كانت تقدر فيها قيمة الذهب بقوته الشرائية للملح. ولم تكن رواسب الملح الطبيعية قليلة في السودان الغربي فحسب، بل كانت مركزة في مساحات صغيرة، ومن ثم كان لابد من الحصول عليه من

خارج الاقليم، وكان هذا الاقليم هوتاوديني، كما كان يحصل عليه من سبخة ويجيل الى **الشمال الغربي من تاوديني وكانت هذه السبخة الى الغرب من تغازا**، ولكن هذه التجارة كانت بدورها حساسة للغاية لان المناجم كانت في أقاليم غير محمية، فضلا عما يتعرض له العمال أحيانا من هلاك اذا لم تصلهم المؤن في الوقت المناسب. وأدت شدة الطلب على الملح في أوائل القرن التاسع عشر الى نقله من الغرب ومقايضته في الاقليم السوداني على أساس أوقية من الملح مقابل أوقية من الذهب.(١٣)

وكان تنظيم القوافل يقتضي قيام أربعة مراكز شبيهة بالمواني أو بالاستراحات لتقليل حدة وصعوبات الصحراء والتجارة عبرها، فضلا عن زيادة كفاءة تجميع السلع وتوزيعها وهذه المراكز:

أولا: كانت النهايات الجنوبية على حافة الصحراء الجنوبية مثل تمبكتو، وكانو مراكز لتجميع وتعبئة وتحميل السلع المتجهة الى الشمال، كما كان يتم فيها توزيع السلع المتجهة نحو الجنوب: فأهمية تمبكتو لم ترجع الى زراعة أو صناعة فيها، وانما إلى تجارة المرور، أى إلى أنها أقرب مستودع الى ذهب وكولا وذرة وعاج الجنوب، ومصب للمنسوجات الأوربية والأسلحة التي تصل الى ميناء موجادور.

وطوال القرن التاسع عشر كانت كانو هي العاصمة التجارية للسودان الغربي، بل وأكثر أهمية من تمبكتو، وقدر بارث Barth سكانها بنحو ٣٠ ألفا معظمهم من الهوسا، فضلا عن أقلية غنية من العرب.(١٤) ومع بداية فصل الجفاف وتدفق التجارة عليها كان يتضاعف عدد سكانها، وساعد كانو على هذا أنها وسط أقليم زراعي ينتج المواد الغذائية لسكانه فضلا عن فائض يمكن تصديره ولكن كانو اشتهرت أيضا بصناعتها ومهارة سكانها من الهوسا في النسيج والصباغة، وتأتي معظم واردات كانو من الشمال، وكانت السلع الواردة تشمل الملح فضلا عن نوع خشن من الحرير وارد من طرابلس، فضلا عن الاقطان الانجليزية والحرير الفرنسي والعقود الزجاجية من فينسيا وتريست وكميات من

السكر والتوابل والشاي، ولا ننسى أيضا شهرة كانو كمركز للنطرون من بحيرة تشاد فضلا عن ثمار الكولا من الجنوب.

ثانيا: كانت هناك محطات على الطريق للراحة والتزويد بالمؤن مثل أجادس التي حلت محلها «إفروان» فيما بعد، فضلا عن «غات» و«عين صلاح».

ثالثا: كانت هناك محطات تفرغ فيها القوافل قبل أن تأخذها قوافل أصغر لتوزيعها في الاتجاهات المختلفة، وهي في نفس الوقت مكان تجمع القوافل المتجهة نحو الجنوب قبل الرحيل حيث يمكن شراء المؤن وتأجير الحراس والمرشدين وشراء الأبل اللازمة للرحلة وهذه تمثلها سجلماسة (تندوف).

رابعا: مدن نهاية الطريق الشمالية مثل فاس والجزائر وتونس وطرابلس. وهذه المستودعات النهائية اما قريبة من البحر المتوسط أو تطل عليه مباشرة، وتقوم فيها عملية بيع وشراء السلع الى ومن السفن الأوربية وكذلك تفريغها واعادة شحنها.

واذا كان العرب قد اشتركوا في هذه التجارة الى جانب البربر والزنوج، فإن العرب كان لهم بلا شك دور بارز الى حد كبير، فضلا عما نقلوه وتركوه من آثار نتيجة التقائهم بسكان جنوب الصحراء. (١٥)

ولا يقتصر الأمر على الهجرات والتحركات الشمالية الجنوبية والعكس، بل كانت هناك هجرات وتحركات غربية شرقية والعكس أيضا، وان كانت دقائق هذه الهجرات غير معروفة، وهي لا تعنينا فيما نريد أن نصل اليه من بحثنا، ولكن الذي يعنينا أنك لن تجد اليوم قبيلة معروفة في غرب أفريقية لا يتصل نسبها البعيد ـ فيما تقول اساطيرها المتوارثة ـ بأصول بعيدة في الشرق أو الشمال. وتكتمل هذه القصص أحيانا حتى ليستطيع الباحث بها أن يخمن الزمان الذي نزح منه أسلاف هذه القبائل من الشمال أو الشرق الى غرب افريقية.

و يذهب السلطان محمد بلو (١٧٧٩ ــ ١٨٣٧) الى أن اليوربا هم سلالة بني كنعان وعشيرة نمرود. والسبب في استقرارهم في الغرب كما سمع عن أسلافه أن يعرب بن قحطان طردهم من الصحراء نحو الغرب وسافروا بين مصر والحبشة حتى وصلوا أرض اليوربا.

واذا كانت الاتصالات الشمالية الجنوبية عبر الصحراء واضحة لا لبس بها، فهناك أيضا الاتصالات الجنوبية الشمالية، بل ان هناك نظريات متطرفة مثل النظريات التي ترجع المصريين القدماء الى أصول زنجية، كما أن بعض التقاطيع الزنجية تشاهد أحيانا بين المصريين المعاصرين في مصر العليا. وهنا يبرز هذا السؤال: متى حدث هذا المزج؟ هل كان في عصر ما قبل التاريخ أو في العصور التاريخية أو في العصور الحديثة؟

و يؤيد صابوري بيوبكو Saburi Biobaku الذي درس الأصول القديمة لقبيلة اليوربا التي أسست حضارة جنوب نيجيريا واستمع في صبر الى قصص أهلها عن هذه الاتصالات الشمالية الجنوبية، وانتهى الى أن المؤسسين الرواد لهذه القبيلة أتوا نيجيريا من حوض النيل الاوسط فيما بين القرنين السابع والعاشر، والشرق عند اليوربا معناه مكة أو بلاد العرب، ولكن يحدث دائما خلط لديهم بين الشرق الأدنى وشبه جزيرة العرب، وفي رأيه أن هجرتهم من أعالي الصعيد أرجح من هجرتهم من اليمن. (١٦)

هذا بينما يذهب البعض الآخر الى ان شعوب غرب افريقية تعلمت صناعة الحديد من الشمال اي من البربر لا من وادي النيل، وأيا كان الأمر فان الحديد الذي غزا السفانا، وصار عنصرا حيويا من عناصر التحضير في القرون القليلة السابقة للميلاد، انتقل عبر الصحراء، ولم تكن الصحراء فاصلا، كما أنه بصرف النظر عن التواريخ وصحتها، فان الأصول الشرقية لحكام قبيلة اليوربا مرجحة، والقصص والاساطير ان لم تكن دليلا على الأصول الشرقية فهي دليل على الأثر الشرقي.

والشواهد التي تدل على الاتصالات الحضارية عبر الصحراء عديدة نذكر بعضها كنماذج وأنماط لهذه الاتصالات.

فقد انتقل الكبش رمز الإله آمون إلى معابد البركل قرب نباتا عاصمة كوش، كما اتجه غربا أيضا الى البربر والليبيين على الساحل الشمالي لافريقية، وظهر هذا الاله في غرب افريقية، فهو عند قبيلة الماندنجو اله الزوابع والرعد، وتؤمن قبيلة اليوربا بالاله شانجو وله رأس كبش عليه نقاب، وهو أيضا اله البرق عند قبيلة الغون في بنين. و يكاد يجمع العلماء على أن الملكية الالهية عند شعب الجوكون على نهر بنوى في نيجيريا تعيد للأذهان الملكية الالهية في مصر القديمة.

وكما كانت هناك تحركات من الشرق الى الغرب، فهناك هجرات عكسية لا شك تمت منذ القدم، وزادت بعد دخول الاسلام. ذلك أن الاتجاه نحو الشرق للحاج أصبح من الأمور المألوفة لدى المسلمين في غرب أفريقية. وكانت هذه الهجرات للحجاج تستغرق ذهابا وايابا مايزيد على عشر سنوات. وكان هناك قلة من الحجاج الفقراء يلحقون بقوافل الأغنياء ولكن غالبيتهم كانوا يرحلون معتمدين على أنفسهم و يسعون لرزقهم أثناء الطريق بالمشاركة في الأعمال التي يصادفونها سواء كانت زراعة أو رعيا. ولم ينتج عن هذا الدافع عمليات استقرار كبيرة قبل هذا القرن بسبب انتشار الأمراض، ولكن بعد ظهور المشروعات الزراعية في الشرق بدأت كثير من عناصر الفولاني (الفلاتا) وغالبيتها فقيرة يستهويها البقاء في السودان والعمل في المشروعات الزراعية، وتتناسى الغرض الاصلي وهو الحج، أو يطيب لها العيش بعد العودة من الحج وتستقر في السودان، وكان في قيام تلك المشروعات وحسن المعاملة التي وجدها المهاجرون ما أغرى فريقا آخر فهاجر الى السودان بغية العمل وجمع المال. ومن هؤلاء من استقر نهائيا في السودان فلم يعد الى موطنه الأصلي.

الالتفاف حول الصحراء من البحر المتوسط والاطلنطي :

كان هناك اتصال بين سكان الشام (شمال جزيرة العرب) وأفريقية فيما وراء جبل طارق في هذه العصور القديمة. وكانت أهم هذه الاتصالات التي تمت عن طريق البحر المتوسط هي رحلة هانو التي لم يأت على ذكرها هيرودوت بينما ذكر رحلة نكاو، ومن المرجح اذن أنها حدثت بعد عهد هيرودوت أي حوالي ٤٢٥ ق.م وقد ساعد البحر المتوسط بدوره على هذه التحركات البحرية، فهو بحر مثالي للملاحة، أقرب الى بحيرة هادئة تهب عليها نسائم التجاريات بانتظام عجيب اذا استثنيا فصل الشتاء حين تمر الأعاصير، فيضطرب ريحه و يعلو موجه. وحتى في هذا الفصل يمكن للملاح أن يلجأ لجزره العديدة المتناثرة خاصة في جزئه الشرقي، هذه الجزر التي أصبحت للملاحين هاديا ومرشدا ترى في الأفق البعيد، و يقدرانها ترى من على بعد ٥٠ ميلا اذا كان الجو صافيا (١٧)، ليس بعجيب اذن أن تكون مسالكه المائية طرقا للفينيقيين في مراحل مبكرة من تاريخ البشرية. وعلمنا برحلة هانو يرجع الى تقرير بقلم هانو وجدت ترجمة أغريقية له في معبد بعل هامون في قرطاج. وفيها يذكر أن القرطاجيين أرسلوا هانو ليعبر أعمدة هرقل، وكان معه جمع من الرجال والنساء قدر بنحو ثلاثين ألفا ومواد تموينية ومعدات، وحمل كل هذا على ستين سفينة من نوع ذي الخمسين مجدافا. ووصل هانو في المرحلة الاولى الى نهر Lixos ونهر درعه، و بعد الابحار من هذا الاقليم بثلاثة أيام وصل جزيرة سبرين، وأما نهر شيريتس Cherets فالمرجح انه نهر السنغال. واما المنطقة الجبلية الكثيفة الاشجار فهى رأس فرد، والخليج الكبير الذي يعنيه هو مصب غمبيا، ولكن بعد ذلك تصبح الاختلافات حادة بين الباحثين، فمنهم من أوصله الى الكمرون ومنهم من اكتفى بسيراليون.

الالتفاف حول الصحراء عبر المحيط الهندي الى شرق افريقية ووسطها :

وكما شهدت افريقية جنوب الصحراء صلة بالعروبة عبر شبه جزيرة سيناء، كان هناك باب اخر للاتصالات العربية، ولكنه باب بحري، عن طريق المحيط الهندي وشرق افريقية، وكانت الاتصالات في هذا الاتجاه بين الجنوب العربي وشبه جزيرة العرب (الحضارمة واليمنيين) وشرق افريقية من ناحية، وبين شعوب الخليج العربي (البحرانيين والعمانيين) وشرق افريقية من ناحية أخرى.

ويرتبط النشاط المبكر لهذه العلاقات بزيادة النشاط التجاري في البحر العربي والشرقي في العهد اليوناني الروماني كتلك المغامرات التي قام بها المصريون والأغريق لتأسيس تجارة عبر البحر الأحمر، ولكن مع ذلك فما زالت الدوافع مجهولة لهذا الانتشار الواسع في شرق افريقية والذي يرجعه البعض الى أوائل القرن الثاني قبل الميلاد عقب انهيار سد مأرب، والذي بلغ ذروته في القرن السادس الى القرن الثالث عشر الميلادي ولم يتوقف بعد ذلك.

ويذهب الباحثون فيما يختص بالحركة الواسعة الانتشار لليمنيين والحضارمة الى القول بظهور دورة جفاف أو على الأقل تغير نسبي في الظروف المناخية، اتجهت بالاقليم نحو أحوال أكثر جفافا في الجنوب العربي مما أدى بالسكان الى أن يولوا وجوههم نحو البحر، وامتد أثر هذا الجفاف الى منطقتين في هضبة اليمن ذاتها من ناحية والسهل الساحلي الجنوبي عامة من وادي حضرموت من ناحية اخرى، وتذكر كتابات الاغريق الذين زاروا الاقليم أو سمعوا عنه مثل استرابو (٢٠ م) فيما يختص بالسهول الجنوبية ووادي حضرموت بأن الاقليم منتج للتمر والتوابل والقرفة وكثير من النباتات العطرية. وبعض النباتات شبه الاستوائية كالقرفة ذات أهمية خاصة لأنه يعطي فكرة عن أن الظروف المناخية كانت أكثر رطوبة عنها في الوقت الحاضر. لأن إنتاج هذا الأقليم في الوقت الحاضر من نخيل التمر والذرة والسمسم وغيرها من حاصلات المنطقة المعتدلة الدفيئة، واذا أضفنا الى هذا أن الكتاب كانوا يصفون وادي حضرموت بأنه رطب غير صحي وتنتشر

فيه الروائح الحاملة للموت، وهذا يؤدي الى أسطورة تنعكس في تسمية « حَضَر الموت » أو وادي الموت (١٨) وان كان في الوقت الحاضر يعتبر وادي حضرموت من أهم جهات اليمن الجنوبية عمرانا، وتتم فيه زراعة البساتين اعتمادا على المياه الباطنية، وكان الجفاف الأخير الذي بدأ في القرن الثالث الميلادي و بلغ ذروته في بداية القرن السادس م، قد قلل من الرطوبة وحسن من الظروف الصحية، وكان فشل حضرموت والسواحل الجنوبية لشبه الجزيرة في انتاج البخور قد أدى بسكانها الى الاتجاه نحو البحر والبحث عنه في البلاد الأخرى من البحر العربي وكان منها شرق افريقية.

اما عن سكان الخليج العربي من البحرانيين والعمانيين فقد استهوتهم منطقة شرق افريقية والجزر المقابلة لها بما فيها مدغشقر اكثر من شرق آسيا وفي هذا الاقليم (اقليم الزنج) عملوا ايضا بالتجارة، وكانت معظم هجرات هؤلاء من القرن السادس الى القرن الثالث عشر، وان لم تتوقف بعد ذلك، وقد استقر كثير من المهاجرين وصاهروا السكان المحليين وتقابلوا مع اخوانهم من جنوب غرب شبه جزيرة العرب. وكان لظهور المؤثرات العربية أثر واضح في ان بعض الباحثين يجعل الشريط الساحلي من شرق افريقية وافدا من الشرق العربي.

واما عن أسباب انتشار العمانيين والبحرانيين فما زال بدوره مثار مناقشة، ولا يمكن تعليله بالجفاف كما هو الحال عند سكان جنوب وشمال شبه الجزيرة، ذلك أن اعتماد سكان الخليج كان على الصيد البحري واستخراج اللآلىء. ولذلك فمن الأفضل تفسيره بانخفاض الطلب على اللؤلؤ بعد انخفاض القوة الشرائية لدى الرومان، فضلا عن منافسة لؤلؤ جزيرة سيلان، مما أدى ببحارة الخليج الى العمل بنقل التجارة.

واساس الحركة التجارية التي نشأت في المحيط الهندي هو أساس جغرافي لأنه اعتمد على حركة الرياح والتيارات البحرية صيفاً وشتاء، كما شجع عليه شكل السواحل والظهير، ويمكن أن تشبه الحركة الملاحية بالحركة التجارية عبر الصحراء كعامل أساسي في الاتصالات التجارية والثقافية بين أفريقية

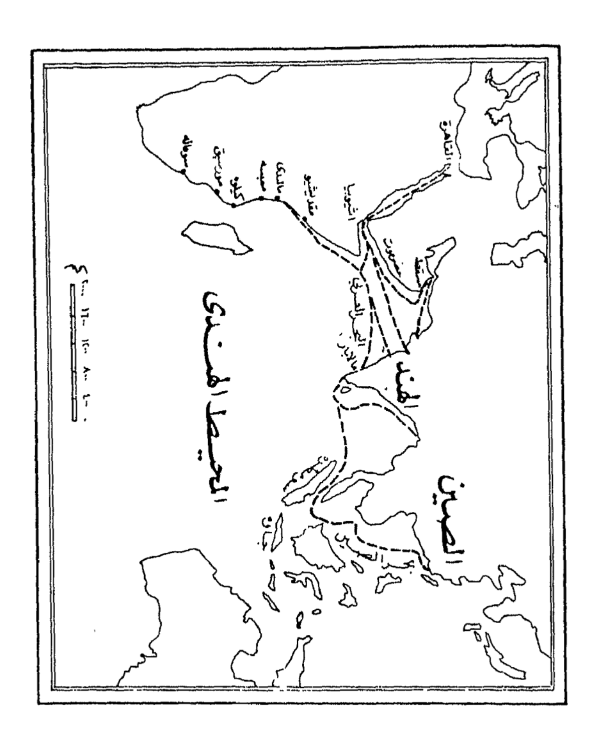
المدارية والعالم العربي قبل ظهور القوى الاوروبية في القرن السادس عشر وما بعده، كما كانت التجارة عبر الصحراء لها ما يكملها عبر الأقليم السوداني، كذلك كان للاتصالات الساحلية عبر المحيط الهندي ما يكملها في داخل القارة وهكذا كانت افريقية جنوب الصحراء وشبه جزيرة العرب على اتصال وثيق قبل وصول البرتغاليين بما يزيد على ألف عام.

وقد تبع تطور التجارة ظهور الاستيطان الساحلي، ونظرا لأهمية هذه التجارة في حياة سكان سواحل شرق أفريقية ظهرت نقوش الداوات (١٩) على جدران المباني ولا سيما المساجد. وقد استمرت تجارة الداوات حتى خلال الفترة الاستعمارية الأوروبية (مثلما ظلت تجارة الصحراء) وعاصرت السفن التجارية بل وكان لها دفعة قوية في أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩/١٩٤٥) نتيجة تحول السفن الآلية للعمل في ميادين القتال ناقلة العتاد والذخيرة والرجال (٢٠).

والرياح التي تؤثر في حركة الملاحة شتاء من نوفمبر الى مارس هي الموسمية الشمالية الشرقية بينما تسود الموسمية الجنوبية والغربية ما بين مايو وسبتمبر، أما شهر ابريل وأكتوبر فهما شهرا انتقال ما بين ظروف الصيف والشتاء لا تأخذ الرياح فيهما اتجاهات ثابته يعول عليها في الملاحة.

من ثم كانت رحلة الشتاء من عمان والجنوب العربي ما بين نوفمبر وفبراير، والسفن التي تبحر قبل هذا التاريخ تتعرض لنسائم وتيارات شمالية ولكنها أقل قوة في دفعها للسفن، وتأخذ ما يتراوح من ٣٠، ٤٠ يوما لتصل الى زنجبار وممبسة. وتقل المدة اللازمة مع ثبات اتجاه الرياح الموسمية الشتوية وازدياد قوتها، ففي ديسمبر تأخذ الرحلة ما بين ٢٠، ٣٠ يوما ثم تقل مرة أخرى الى ما يتراوح بين ٢٠، ٢٥ يوما للرحلة التي تبدأ في يناير، ومن دراسة حركة الداوات الاجنبية في موانى شرق افريقيا يتضح أنها تبلغ الذروة في شهر مارس، أما العدد القليل الذي يرد هذه الموانى من مايو الى نوفمبر فهو في الغالب من الهند (٢١).

وتقوم الداوات برحلة الصيف أو رحلة الاياب ابتداء من اوائل ابريل،



شكل رقم (١٧) طرق التجارة والاتصال بين العرب وأفريقية عبر المحيط الهندي بتصرف عن

Mc. Master, D.N. "The Ocean Going Trade to East Africa "East Afr., Geo . Review, No. 4, April 1966, P. 14.

وتـأخذ الرحلة ما بين ٣٠، ٣٥ يوما قبل منتصف أبر يل، و٢٠ يوما اذا ما تحركت بين منـتـصف أبر يل ومنتصف مايو، من ثم يكون رحيل السفن بطيئا حتى يحل شـهـر اغـسطس وفـي نهـايته لا تكاد تجد داوا أجنبيا كان يزمع الرحيل وما زال ملقيا مراسيه في مواني شرق أفر يقية.

ولـقـد ثـبـت الآن مـن دراسة جنسيات الداوات التي تقوم بالتجارة مع شـرق أفـر يـقـيـة أن ثـلـثـيها مـن المـنطقة العر بية (السعودية، اليمن، عمان، الامـارات الـعـربـيـة، الكو يت والبحر ين). أما معظم الباقي فهو من الهند والبـاكـستان. وتتراوح أحجام السفن بين الكبيرة نحو ٤٥ ألف طن، و بين المتوسطة وحمولتها ١٠ أطنان.

وفـي هـذا الاقليم حمل التجار العرب ومازالوا أعمدة المانجروف، أو كما يـطـلقون عليها بالسواحيلي البوريتي التي تستخدم على نطاق واسع في شبه جزيـرة الـعـرب وايـران فـي بـنـاء أسقف المنازل وصواري السفن، و يشتد الـطلب عليها بصفة خاصة لمقاومتها للقوارض وخاصة النمل، وكذلك لتحملها للـظـروف الجـو يـة المختـلـفـة(٢٢)، وفـضـلا عن المانجروف هناك ثمار نخيل الـز يـت والـسـكـر والمنـسـوجـات، كما تـأتـي الـداوات الى شـرق افر يقية بـالأسـمـاك المجـفـفـة والتمر و بعض المنسوجات الهندية من عمان وحضرموت والفواكه المجففة والعطور والسجاجيد من ايران والتمر والفخار من العراق.

وكان لهذه الحركة والانتقال انتقال للثقافات بين الجانبين، وتشابه في المزروعات فالذرة الرفيعة هي الغلة الرئيسية في الجنوب العربي يليها القمح والـشعير، وحـتـى الحـيـاة الشجر ية يتألف معظمها من نخيل الساجو والمانجو والـبـابـاظ والموز والجوافة فضلا عن القطن والطباق و بذرة الخروع، وأكواخ عـسير المـصـنـوعـة مـن القش والطين وزراعتها المتنقلة التي لا تظهر في جزء آخـر مـن شـبـه جـز يـرة الـعـرب، كـل هذا يجعلها أقرب الى شرق افر يقية والسودان منها الى شبه الجز يرة.

وحمل العرب ضمن ماحملوا العاج كسلعة رئيسية والذهب والتوابل وخاصة القرنفل والقرفة واللبان والبخور، والى الجنوب قليلا قامت عدة موانـي تتاجر في الذهب والحديد والرقيق والعاج، وكان للعاج أهمية خاصة في شرق افريقية سواء خلال العصور القديمة أو الوسطى(٢٣)، فقد كتب المسعودي في القرن العاشر الميلادي يقول : ان الأفيال وفيرة في بلاد الزنج، ومعظم هذا العاج كان يرسل الى عمان، ومنها كان يصدر الى الهند والصين، وكذلك اشتد الطلب عليه في أوربا في مراكز حفر وتشكيل العاج في جنوب ألمانيا والأراضي المنخفضة في العصور الوسطى.

وهكذا على مدى قرون من التجارب والخبرة الطويلة طور العرب القادمون من جنوب الجزيرة والافريقيون على الساحل ثقافة مميزة المعالم أخذت من كل من الشعبين بنصيب، وصهرت العنصرين، وكانت ثقافة ناضجة حين التقى بها الأوربيون بعد خمسة عشر قرنا أو يزيد استوت فيها اللغة السواحيلية وسميت باسم الساحل، وهي ليست لغة عربية مؤفرقة، ولكنها أفريقية معربة، أصولها البعيدة من البانتو ولكنها اتخذت عبر العصور صفات عربية.

وأدخل العرب الفن المعماري العربي في هذه المناطق الساحلية حيث البناء بالأجر والأسمنت مستعملين الجير في التلوين، كما أدخلوا أعمال الأخشاب ونسيج القطن.

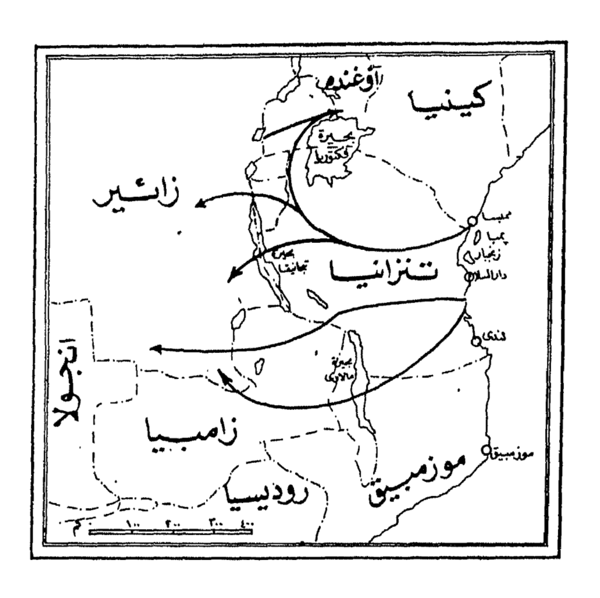
ونشأت على الساحل مواطن متعددة مثل بجمايو، بنجاني، كلوا وسفاله، ودار السلام ومقديشو وممبسة ومركا وغيرها وكلها عليها الطابع العربي (انظر شكل رقم ١٧). وكانت هذه بدايات للطريق نحو الداخل والتي تؤدي الى البحيرات العظمى كفيكتوريا وتنجانيقا(٢٤).

وتختم هذا **بشهادة القس الانجليزي سبنسر ترمنجهام:** لم يكن العرب السواحيلية يشتركون في حملات الاغارة على القبائل لجلب الرقيق، بل كان

اهتمامهم الرئيسي هو التجارة وجمع وتصدير العاج والرقيق سواء بواسطة عملائهم أو الرؤساء المحليين، هذا برغم أن تسسليحهم كان يمكن أن يعطيهم سيادة على الطرق(٢٥).

وعبر التجار العرب بحيرة تنجانيقا الى الكنغو أي الى وسط أفريقية، بل والى جنوب خط الاستواء، وأسسوا مراكزهم في الداخل في كاسونجو Kasongo ووصلوا شمالا الى يامبويا Yamboia ولعل أسماء تيبوتيب Tippo Tip وموني موهارا Muni Mahera ومراكزهم التجارية التي أقاموها لشاهد ودليل على هذه الاتصالات البعيدة في الداخل.





شكل رقم (١٨) توغل العرب في شرق افريقية

قضايا يتهم فيها الأوربيون العرب

١ ــ قضية الرق

حاولت أوربا منذ وضعت أقدامها في القارة ازاحة العناصر العربية ومحاربتها لأنها اعتبرتها عائقا أو حائلا دون الانفراد بافريقية جنوب الصحراء، خاصة بعد ما وجدت أن هذه العناصر أقامت تجارة ذات رواج في الأقاليم التي وصلت اليها وأن علاقتها بالافريقيين علاقة حسنة، علاقة تعاون وعمل مشترك، وبعد أن انفردت أوربا بالقارة كانت الهيئات التبشيرية والادارة الاستعمارية توحي دائما للافريقيين بان العرب هم أرباب النخاسة، وهم تجار الرقيق الذين ساقوا أجدادهم بالسياط ، ومما يؤسف له أن نجد بعض الافريقيين يرددون هذا القول، وكأن تهمة الصاق تجارة الرقيق بالعرب دون خلق الله جميعا حقيقة لا جدال فيها وكأنها لم تكن معروفة منذ العصور الأولى للبشرية .

عرفت الأمم القديمة في حضارتها أنواعا من الرق، كالأمة الاغريقية التي أنجبت سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم ممن تركوا أثرا فكريا ضخما في حياة الأجيال البشرية . فارسطو يوجب وجود الرق حين يقول «لا يزال في العالم أناس مخلوقون للسيادة وآخرون مخلوقون للطاعة، وحكمهم في ذلك حكم الآلات الحية التي تساق للعمل ولا تدري ما تساق اليه » . أما أفلاطون فان جمهوريته لا يقوم بناؤها ان لم يكن فيها رقيق يقوم بالأعمال الشاقة، فيقول : « كلكم أخوان في الوطنية ولكن الاله الذي خلقكم وضع في طينة بعضكم ذهبا يمكنهم من أن يكونوا حكاما، فهؤلاء هم الأكثر احتراما، ووضع في طينة المساعدين فضة، أما العبيد لأن يكونوا زراعا وعمالا، فقد وضع في طينتهم نحاسا وحديدا » .

والرومان الذين اشتهروا بالتقنين، كان المبدأ السائد عندهم أن الرقيق يعتبر شيئا لا شخصاً، وعلى ذلك فليس له ــعلى عكس الحرــ أسرة واتصالة بالنساء لا يعتبر قانونيا وانما أمرا واقعا، وليس من حقه الامتلاك أو الاستدانة أو التسليف أو الوراثة، شأن الرقيق شأن الحيوانات والجمادات التي يمتلكها السيد. و يقال إن قيصر روما عندما فتح بلاد الغال استولى على مليون أسير وضرب عليهم الرق، ولذلك هبط سعر الرقيق حتى صار الواحد منهم لا يساوي أكثر من عشرة قروش بالعملة الحالية، وتطور امتلاك الرقيق عند الرومان فكانوا يتركون للعمل في الأرض، ثم أخذوا يهبونهم الأرض و يورثونها لأبنائهم، ثم حرموا بيع الرقيق الا بالأرض، والأمثلة عديدة ولسنا هنا في حاجة الى القول بأن الرق عرفه الفرس والصيليبيون، واليهود والنصارى والعرب أيضا.

فالرق كان روح كل العصور قبل تحريمه، وعرفته القبائل الافريقية فيما بينها، وكان أساسه أسرى الحرب. ولكن الدول الأوربية التي تتهم العرب بهذا قامت بهذه التجارة بدءا من البرتغال وأسبانيا في الجنوب الى فرنسا . وهولندا، وبلجيكا، وبريطانيا، ثم تعدتها الى الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل. فاذا اتفقنا على أن كلا من العرب والأوربيين عملوا في تجارة الرقيق يصبح الجدل عندئذ في كيفية معاملة الرقيق، وفي مسئولية من قام بنزح الأعداد الضخمة من القارة أو استنزافها.

العرب: اذا بدأنا بالعرب فسنجد أن الرقيق عند العرب لم يقتصر على الرقيق الافريقي، بل كان هناك الرقيق الأبيض الذي كان يأتيهم بواسطة التجار الأوربيين والآسيويين مما وراء القوقاز، وكان يطلق عليهم أحيانا الشراكسة، أي كان هناك الرقيق الأبيض والرقيق الأسود، وفي داخل فئة الرقيق الأسود كان هناك الأحباش أيضا. أما عن تقديرات الرقيق الذي كانت تقوم به العناصر العربية ومعظمه في شرق أفريقية، إذ لم يشترك العرب في تجارة غرب أفريقية على الاطلاق. فيقدر المصدّر من شرق

افريقية في مطلع القرن التاسع عشر بنحو ١٥ ألف سنويا ، كانت تخرج من زنجبار المركز الرئيسي لهذه التجارة في شرق القارة ، ثم ارتفعت الى نحو ٤٠ ألف سنويا في العقد الثالث من ذلك القرن(٢٦). فاذا كانت هذه هي تقديرات الاعداد من شرق أفريقية حيث وسيلة النقل سهلة ورخيصة وهي البحر في ظل نظام الرياح الموسمية الذي سبق أن ذكرناه والذي لا يحتاج الى تجديف ومجهودات عضلية كبيرة ، فأننا ننتظر أن اعداد من كانوا يصلون بطريق البر عبر الصحراء الكبرى الى مصر وليبيا والمغرب العربي أقل من هذا بكثير. ولا تفسر هذه الاعداد القليلة نسبيا الا على ضوء نوع الطلب، فإنه لم يكن يقدر على شراء الرقيق الا السلاطين والأمراء والأثرياء ، من ثم فهؤلاء فئة محدودة ، وأما فيما يختص باستخدام الرقيق فنهم من كان يدخل الجيش حيث تكونت «فرق الجند السودانية» أي فرقة من فرق الجيش ، ومنهم الحرس الخاص بالسلطان ، ومنهم من استخدم في الفلاحة ، ومنهم من استخدم في حراسة حريم السلاطين والأمراء وكان الأطفال من الرقيق في بعض الاحيان يستخدمون كرفقاء لأولاد الأمراء. أما الرقيق الأبيض من النساء فكن يتخذن كعشيقات ويقمن باعداد القهوة وتحضير «النرجيلة» وأحيانا طهي بعض الأصناف الخاصة ، وفي معظم الأحوال كان ينتهي الأمر بهن الى العتق نتيجة الزواج من الأسياد أو أبناء الأسياد، وهذا ليس رأينا ولكنه رأي الباحث اليهودي جبرائيل باير(٢٧). ويذكر دافيدسن عن «حسن المعاملة» أن العرب تركوا أثرا حقيقيا على وجه تلكم الأرض ، أزالوا فدادين من الغاب وزرعوا فوقها محاصيل متنوعة. ولم تكن تجارة العرب للرقيق ، بأبشع من تجارة الأروبيين ، ولعل من محامد العرب في هذا السبيل أن العلاقة بينهم وبين رقيقهم كانت إنسانية إلى حد بعيد. كتب ديوارت بربروسا عام ١٥١٨ عن تجارة الرقيق آنذاك : حال الرقيق في ممبسة تدل على ما لأسيادهم العرب هناك من انسانية ، إذ يعجز الواحد أحيانا أن يميزهم عن أسيادهم ، اذ يبيح هؤلاء لهم أن يقلدوهم في اللباس وفي غيره من شئون

العيش(٢٨) .

ذكرنا هذا ولم نرد أن ندخل في مجالات دينية خاصة بعلاقة الاسلام بالرق ، فلم نذكر مثلا أنه وسع المنافذ التي تؤدي الى التحرير والعتق ، كان يأتي السيد من جاريته بولد ففي هذه الحالة يعتبر الولد حرا من يوم ولادته ، وتصير الحرية لأمه بعد وفاة سيدها ، ومنها أنه اذا جرى على لسان السيد في أي صورة ما يدل صراحة على عتق عبد سواء أكان قاصدا معني اللفظ او لم يكن قاصدا له ، وسواء أكان في حالة عادية أم فاقد الرشد بفعل الخمر أو غيرها من المحرمات فإن عتق العبد يعتبر نافذاً وكذلك اذا اتفق العبد مع سيده على أن يعتقه نظير مبلغ من المال . هذا كما عمد الاسلام الى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء التي يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الأرقاء، فجعله تكفيرا للقتل الناشىء عن خطأ وما في حكمه قال تعالى : (**وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة**) .

الأوربيون : ونود أن نذكر هنا أن بعض الأوربيين اشتروا رقيقا من الساحل الغربي في بدء اتصالاتهم بذلك الساحل في القرن الخامس عشر وقد استغل بعض البرتغاليين رقيقا من الافريقيين في العمل في مزارع قصب السكر في بعض الجزر في ساحل غانا ، كما أن بعضا منهم صدر الى أمريكا الجنوبية للاشتراك في تعدين الفضة عام ١٥٢٠م ، رغم ذلك فالطلب على الرقيق في العمل لم يكن شديدا في تلك الفترة ، وكانت صادرات الرقيق غير ذات أهمية كبيرة . وكان التوسع الكبير في تجارة الأطلنطي في الرقيق في منتصف القرن السابع عشر رد فعل للتوسع في مزارع قصب السكر في جزر الهند الغربية . وقد أحدث هذا التوسع ثورة في الاقتصاد الكاريبي ، ذلك أنه حتى منتصف القرن السادس عشر كان صادر هذه الجزر الرئيسي التبغ ، الذي كان يزرع بواسطة بعض المستوطنين الأوربيين ، ولما كان قصب السكر من محاصيل المزارع الواسعة فهو يحتاج

الـى الأرض ورأس المال والعمل على نطاق كبير، وكانت الأرض متوفرة، وتـوفـر رأس المـال مـن أوربـا ، واشـتـركـت أفـر يـقية بعنصر العمل لا لأن افر يقية كانت مكتظة بالسكان ، ولكن لأنه لم يكن هناك مورد أكثر رخصا مـن تـلـك الـقـارة والـى جـانـب الـرخـص الـنـسبي ، وسهولة الحصول على الافـر يـقـيين ، فـقـد ثـبـت أن الزنوج الافر يقيين أكثر تعميرا نسبيا في جزر الهـنـد الـغربية ، و يرجع هذا لمناعتهم ضد أمراض المناطق الحارة كالملار يا ، والحمى الصفراء ، فضلا عن قدرتهم على العمل في المناخ الحار الرطب أكثر من الأور بيين .

وكـان القرن الثامن عشر هو العصر الذهبي بالنسبة لجزر الهند الغر بية ، حـينما أصـبـحـت المـصـدر والـرئـيـسـي لـلـسـكـر الـوارد لأور بـا ، وكـانـت المراكزالرئيسية في جمايكا (بر يطانية) وسان دومنجو (فرنسية) .

فـاذا كـان عـدد الـرقـيـق الـذين جمعوا للعمل في اسبانيا والبرتغال قبل الـقـرن الخامس عشر بضعة آلاف ، فقد ارتفعت الأرقام في القرن السادس عشر، و بلغت مداها في القرن الثامن عشر الى أن حرمت تجارته في القرن التاسع عشر.

وطـبـقـا لـتقديرات شر يدان Sheridan فان ثلثي الرقيق الذي وصـل الـى الـبـحـر الكار يبي عمل في مزارع قصب السكر وارتفعت النسبة الـى ٨٤٪ فـي جمـايكا (١٦٠،٠٠٠ــ ١٩٠،٠٠٠) عام ١٧٧٠ . ولئن كانت هـنـاك محـاصـيـل أخـرى كـالـكـاكـاو والبن والتبغ فان قصب السكر كان أكثرها أهمية(٢٩) .

وقد نشّط هذه الزراعة ز يادة الطلب على السكر من جانب الأور بيين ، كـنـتيجة لز يادة استهلاك الشاي والبن ، وكنتيجة لتشجيع ودعم الحكومات الاسـتـعـمـار يـة الأور بـيـة لمنتجي السكر في المستعمرات الخاصة بها ، فعلى سـبـيـل المـثـال وضـعـت الحكومة البر يطانية تعرفة جمركية عالية على السكر

الوارد الى بريطانيا من غير مستعمراتها. وكانت الحكومة الفرنسية تعطي منحاً لسفن الرقيق المتجهة الى افريقية من فرنسا، ثم تدفع مكافأة أخرى على كل رأس يصل الى مستعمراتها في جزر الهند الغربية، وهذا تفسير لحقيقة أنه ما أن وافى عام ١٧٨٩م حتى كان ثلثا صادرات فرنسا البحرية تتجه الى مستعمراتها في جزر الهند الغربية، كما أن السكر كان أهم سلعة تستقبلها فرنسا من وراء البحار. وكذلك كان السكر سلعة رئيسية في الواردات البريطانية في القرن الثامن عشر. بل من الناحية التجارية كان البحر الكاريبي أهم تجاريا لبريطانيا من آسيا(٣٠).

وأما عن حجم المفقود السكاني من افريقية نتيجة استنزاف الرقيق فهو تقديري، ويُقدر المصدر من غرب افريقية من تجارة الرقيق الأوربية في أربعة القرون المذكورة، بين ٣٠، ٤٠، مليون نسمة، (٣١) وهؤلاء يشملون من وصلوا أحياء الى العالم الجديد، فضلا عن الذين هلكوا بسبب صعوبات النقل والأمراض، والذين قتلوا في افريقية ذاتها نتيجة الاغارات وعمليات القنص البشري، فاذا كان عدد سكان افريقية يقدر بنحو ٢٠ مليون نسمة حين ذاك، فمعنى هذا أن المفقود يقدر بنحو ٥ر٪ سنويا من جراء هذه التجارة. وكانت أهمية قوى غرب أوربا في تجارة الرقيق الافريقية انعكاسا لتغير الأوضاع السياسية في القارة. وتبين الأرقام التالية أهمية كل من هذه القوى في فترة رواج هذه التجارة.

صادرات الرقيق من غرب افريقية لثلاث القوى الكبرى (١٧٠١—١٨١٠)(٣٢)

بريطانيا	٢ر٠٠٩ر٧٠٠	رأس
فرنسا	٦١٣ر١٠٠	رأس
البرتغال	٦١١ر٠٠٠	رأس

ومن الصعب معرفة نصيب كل جزء من أجزاء أفريقية في هذه التجارة على وجه الدقة ولكن ربما خرج ثلثا الرقيق من ساحل الذهب وأنجولا بالتساوي، وإن كانت هناك مناطق ذاع صيتها في توريد الرقيق مثل الكنغو في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ورغم تفاوت عدد الرقيق من قرن الى قرن فقد نقلت كل من بريطانيا والبرتغال نحو ثلث الشحنات، ونقلت هولندا نحو ١٨٪ منها وفرنسا نحو ١٢٪، بينما كان نصيب الولايات المتحدة الأمريكية ٥٪ وكانت السيطرة للبرتغال على تجارة القرنين الخامس والسادس عشر، ولهولندا خلال ثلاثة أرباع القرن السابع عشر، ولبريطانيا في الفترة بين ١٦٧٢، ١٨٠٨، وبعد ذلك كانت السيادة لسفن الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل واسبانيا وفرنسا. (٣٣)

وفي الحق لم تكن هناك سلعة مربحة في غرب افريقية طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر مثلما كانت سلعة الرقيق، فلا الذهب ولا العاج ولا البهارات استطاعت أرباحها أن تلحق بأرباح الرقيق. وكانت شدة الطلب من عوامل رفع سعر الرأس من الرقيق، بسبب المنافسة الحامية بين التجار الاوربيين من بريطانيين وفرنسيين وهولنديين وغيرهم. فقبل نهاية القرن السابع عشر كان القباطنة يدفعون ما قيمته خمسة جنيهات للرأس ارتفعت الى ١٧ جنيها عام ١٧١٢، ومما هو جدير بالذكر أن القوى الأوربية كانت تمثلها في غرب افريقية الشركات التجارية بدلا من الجيوش والادارة، ذلك قبل القرن التاسع عشر، وكانت هذه الشركات تحصل على احتكارات في أقاليم معينة نظير قيامها ببعض التزامات للحكومات، فكانت شركة الهند الغربية الهولندية تمثل هولندا التي كان لها مصالح في البحر الكاريبي فضلا عن سواحل غرب افريقية خلال القرن السابع عشر، وكانت شركة الهند الغربية أهم الشركات الفرنسية أسسها كولبير بناء على تعليمات ريشيليو (١٦٦٤) فضلا عن شركة السنغال (١٦٧٣) وشركة غينيا (١٦٨٤) وكانت الشركة الملكية الافريقية (١٦٧٢)

هي أهم الشركات الانجليزية. ومما هو جدير بالذكر أنه في بعض الأحيان كان يتم تعاون تام في بعض أنواع التجارة بين هذه الشركات نتيجة حاجة هذا الفرع الى رأس مال ضخم واستثمارات كبيرة لانشاء الحصون والمخازن وتنظيم التجارة لمسافات بعيدة عن الساحل. وقد رحبت الشركات بالاشراف الحكومي كوسيلة لجذب رؤوس الأموال، ولتستغل الشركات نفوذ وسطوة حكوماتها، وفي نفس الوقت لتصبح هذه الشركات وسيلة وأداة لتنفيذ سياستها. (٣٤) مثل هذا التنظيم في الاستنزاف لم يكن معروفا لدى العرب في افريقية فلم تكن هناك شركات وراءها حكومات.

ما سبق كان في عصر اباحة الرق كتجارة مشروعة، فهل انتهى بصدور قانون تحريم الرق عام ١٨٠٧؟ وهل كفت أوربا عن الرق والاسترقاق في القرن العشرين، بل وفي النصف الثاني من القرن العشرين؟ لا كان هناك رق بفضل الأوربيين والأوربيين وحدهم في القرن العشرين، فاذا أراد أصحاب الأعمال في أنجولا (قبل الاستقلال) الحصول على اليد العاملة تقدموا بطلبهم الى الحكومة الاستعمارية، وهذه الأخيرة تعين لهم العمال طبقا لحساب تقديري لعدد العمال اللائقين للتجنيد، ثم ترسل الطلبات بعد الموافقة عليها الى المديرين المحليين في طول البلاد وعرضها، ويجند الزعماء والرؤساء المحليون العدد المطلوب، وكان الرؤساء أو الزعماء الذين يفشلون في إحضار العدد المطلوب يجلدون بلا شفقة. هذا وعلى رجال السخرة أن يطعموا أنفسهم، وكثيرا ما يتعين عليهم أن يحضروا أدواتهم معهم، ولما كان كثير من الرجال قائمين بأعمال السخرة في أمكنة أخرى، فكثيرا ما يستدعي الرئيس أو الزعيم الذي تقع عليه مسئولية شق الطريق مثلا، النساء والأطفال الصغار للعمل، ولهذا كان المرء يرى النساء والأطفال على ظهورهن وغيرهن من الحوامل والفتيات وكلهن يحفرن بأدوات بدائية، ويحملن الأتربة على رؤوسهن.

واذا رفض أحد عمال السخرة العمل يسجن ويجلد، وتجري عملية الجلد

باستخدام سوط جلدي ولكن هناك (البالماتوريا) أيضا، والبالمتوريا تشبه القادوم الخشبي، بيد طولها عشر بوصات، وبرأس أسطواني سمكه بوصة ونصف، وعرضه ثلاث بوصات، وعلى كل من جانبي الاسطوانة خمسة ثقوب على شكل الخمسة.

ويضرب الضحية على راحة يديه ونظرا لقوة الضربة فان الثقوب تمتص لحم راحة اليد ثم تفلته سريعا، مما يسبب للمضروب ألما قاسيا، وهكذا حتى يتم العدد المطلوب من الضربات. ويطلق الافريقيون كلمة (الألم) على البالماتوريا. ويتحمل الافريقي القوي أربع أو خمس ضربات وهو ملتزم الصمت، ولكنه بعدئذ لا يستطيع أن يحبس صراخه. (٣٥)

وعندما نجح ليوبولد الثاني في ان يضع نفسه سيدا على الكنغو (الحرة) وقع هذا البلد تحت اسوأ استغلال للبشر في الفترة من ١٨٨٥/١٩٠٨، فقد استغلت موارده من المطاط والعاج، واقتضى هذا معاملة الافريقيين بمنتهى القسوة، حين كان الجنود يطلقون النار على العامل الذي لا يقوم بجمع حصته أو يقطعون أعضاءه. وكان الضباط البلجيكيون يطالبون جنودهم بان يثبتوا بأنهم لم يبعثروا ذخيرتهم هباء، من ثم كان الجندي مجبرا على احضار عضو من جسم الانسان في مقابل كل رصاصة أطلقت، حتى قدر أن حكم ليوبولد للكنغو فترة الثلاث والعشرين سنة أخذ معه مايتراوح بين خمسة وثمانية ملايين من أرواح البشر.(٣٦) وأدت الاحتجاجات العالمية الى ان يتنازل ليوبولد عن ادارته الخاصة عام ١٩٠٨ الى الحكومة، لتصبح مستعمرة بلجيكية، واذا كانت اعمال القتل قد خفت، فقد استمر الاجبار على العمل كما هو عليه حتى قيض له الله الاستقلال.

ولا تقل عبودية البشر في ناميبيا اليوم عنها في أنجولا وساوتومي أمس. فاذا جلب الرؤساء العمال بنفس الطريقة التي كانت متبعة في أنجولا، فليس للعمال ان يعرفوا الى أين هم ذاهبون، بل تعلق في رقبة كل منهم بطاقة عليها اسمه واسم سيده الذي يذهب للعمل عنده ومكانه، ويرسل

العمال كالقطيع الى محطة السكك الحديدية حيث يرحلون وفي محطة الوصول يقرأ ناظر المحطة البطاقات المعلقة في رقابهم، ويتصل بمركز البوليس لاستلامهم، وهذا بالتالي يتصل بأسيادهم لاستلامهم، وفي كثير من الأحيان يوصف لهم الطريق الذي يسيرون فيه على الأقدام لمسافات قد تزيد على الثلاثين ميلا ليصلوا الى أسيادهم البيض.(٣٧)

أما زالت تهمة الرقيق والاسترقاق لاصقة بالعرب بعد كل الذي ذكرناه عن الباحثين الاجانب لا العرب؟ وهل ما زال الأوربيون أهل الانسانية والرحمة ومن الاسترقاق براء؟

ولا يسعنا في النهاية الا الاستشهاد بالباحث الانجليزي **دافيدسن** حينما يكتب عن تجارة الرقيق التي قام بها الأوربيون فيقول: لم تكن تجارة العرب للزنوج الا نكبة خفيفة على أطراف القارة وفي داخلها، ولكنها اتخذت معنى جديدا حين شرعت السفن الأوربية تنقل آلاف الشباب من الداخل والساحل، وتدمي الحياة في القارة والنخاسة أصبحت على يد الأوربيين تجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود الذي اجتاح أوربا، فقضى على ما يقرب من ثلث أهلها، بل اسوأ، لان النتائج الاجتماعية كانت أشد قسوة من الموت، فالوباء الذي تعرض له الأوربيون انقضى، وانقضت معه آثاره، ولكن القهر الذي تعرض له الافريقيون والذي عاشوه، لم تكن لتنقضي اثاره، ولم يجتح الموت الأسود أوربا الا عددا من السنوات، بينما استمرت تجارة الرقيق تحصد السكان حصدا وتهدد معنويات من يبقى أكثر من أربعة قرون.(٣٨)

واذا تركنا بازل دافيدسن الى غيره من الباحثين المعتدلين فسنجد أن الأستاذين فيج وأوليفر Fage, Oliver وهما من عمد الدراسات التاريخية الافريقية في الجامعات البريطانية يذكران فيما يختص بالعرب في كتابهما «موجز تاريخ افريقية» مايلي:

كان من نتائج الفتح العربي لافريقية وما تبع ذلك من انتشار الاسلام في الثلث الشمالي من القارة ان دخل جزء كبير من هذه القارة في صميم التاريخ أكثر من أي فترة تاريخية أخرى، وفي نفس الوقت تحول البحر المتوسط الى منطقة التقاء شعوب قارات افريقية وآسيا وأوربا، تلتقي عندها آراء أبناء هذه القارات وأفكارهم.

ولم تخسر افريقية نتيجة لهذا كله، بل ما كسبته افريقية من حضارة الاسلام يفوق كثيرا ماكان يمكنها ان تكسبه من اتصالها بأوربا والتي كانت تمر في تلك الفترات فيا يمكن تسميته بالعصور المظلمة التي لم يكن هناك ما يضيء فيها الا شعاع الديانة المسيحية.

وهذا إعلان عن أسواق النخاسة في العالم الجديد

منقول عن صورة بالزنكوغراف لما كان ينشر في صحف العالم الجديد لأسواق النخاسة هناك وقد وردت في

Basil Davidson: Africa in History, P. 188.

Negroes for Sale.

A Gargo of very fine stout men and women in good order and fit for immediate service, just imported from the windward coast of Africa, in the ship two brothers.- Conditions are one half cash or produce, the other half payable the first of January next, given bond and Security if required. The Sale to be opened at 10 O'Clock each day, in Mr. Bourdeaux's Yard at No. 48. on the Bay.

May 19, 1748 John Mitchell

وهذا اعلان آخر

..... Thirty Seafond Negroes

To be sold for Credit, at Private sale

Amongst which is a carpenter, none of whom are known to be dishonest. Also to be sold for Cash, a regular bred young negroe Man - Cook, born in this country, who served several years under an exceeding, good French cook abroad. and his wife a middle aged woman (both very honest) and their two children. Likewise, a young man a carpenter.

For terms apply to the Printer.



٢ ـ قضية الطاقة

أصدرت اللجنة الاقتصادية الافريقية تقريرها عن المسح الاقتصادي والاجتماعي لافريقية عام ١٩٧٥، وفيه تصف الحال بأنه لا يبعث على التفاؤل بالنسبة لست وثلاثين دولة افريقية غير منتجة للبترول بسبب ارتفاع اسعار البترول منذ عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٧٥ بنحو خمس مرات.(٣٩).

وفي الحق لقد تأثرت كثير من الدول الافريقية منذ البداية من الاجراءات البترولية التي اتخذتها الدول العربية ومنظمة الأوبك (Opec) عقب حرب اكتوبر ١٩٧٣، وكرد فعل للدعم الامريكي الذي لا يتوقف لاسرائيل وسنعرض هنا لمدى هذا التأثر، ثم فيما بعد الى مسئولية العرب في هذا المجال.

تطورت خشية الدول الافريقية من آثار حرب أكتوبر أول الأمر، عندما بدأت سياسة الحظر البترولي في نوفمبر ١٩٧٣، وكانت النية اول الامر هي حظره على الدول المعادية، ولكن ادركت الدول العربية أن حظر البترول ضد بعض الدول دون الأخرى لن تكون له فاعلية كاملة نظرا لامكان الدول غير المحظور عليها امداد المحظور عليها بما تحتاجه، ولذلك كانت سياسة تخفيض الانتاج بالنسبة للجميع، وفي هذه الفترة أحست جميع الدول الافريقية ما عدا الدول المنتجة منها بخطر النقص البترولي، واشترك في هذا الخوف الدول التي لها معامل تكرير وتلك التي ليس لديها معامل للتكرير لان كليهما يعتمد على البترول الوارد من الخارج خاما كان أو مكررا.

١ ـ موازين المدفوعات:

غير ان الوضع قد تغير بعد سيولة البترول في السوق الدولية، واصبحت

الشكوى من ارتفاع سعر البترول واثره على الاقتصاديات الافريقية. او بمعنى اصح أثره على ست وثلاثين دولة افريقية غير منتجة، فقد قفزت فاتورة واردات البترول لهذه الدول الى ٢٠٦٢ مليون دولار عام ١٩٧٥، بعد ان كانت ٥١٦ مليون دولار عام ١٩٧٢، وترجع معظم الزيادة الى ارتفاع اسعار البترول المستورد، مما كان له اثره على عجز الميزان التجاري في هذه الدول الافريقية عام ١٩٧٥ بمقدار ٣٧٣٨مليون دولار، بعد أن كان حوالي ٧٠٠ مليون دولار عام ١٩٧٢، وتزيد حدة هذا العجز مع ارتفاع سعر البترول في يناير ٧٧ وديسمبر٧٨، واذا ضربنا مثلا بغانا، وهى تعد من الدول المتقدمة نسبيا في غرب افريقية، وجدنا أنه خلال عامي ١٩٧٣/١٩٧٢ كان هناك ارتفاع مشجع لأسعار صادراتها الرئيسية من الكاكاو والاخشاب، مما أدى الى تحسين واضح في ميزان مدفوعاتها، ولكن الموقف تغير جذرياً في عام ١٩٧٥ بصورة درامية كما صرح مستر (T.E. Anın) رئيس مجلس ادارة البنك التجاري هناك، مما أدى الى اختلال في موازين مدفوعاتها، بل وأثر على مشروعات التنمية، خاصة وقد صادف في ذلك العام هبوط الطلب على الأخشاب من جانب غرب أوروبا، وكان يمكن للموقف أن يكون اكثر تدهورا لولا زيادة انتاج غانا من الكاكاو (صادرها الرئيسي) فاذا كان هذا حال دولة غانا فكيف حال الدول الأخرى، مثل داهومي أو موزمبيق أو الفولتا العليا ؟.

تطور واردات افريقية من البترول(٤٠)

(بمليون الدولار الأمريكي)

الدولة	١٩٦٧	١٩٦٩	١٩٧١	١٩٧٣	١٩٧٥
اثيوبيا	١٢٫٤٢	١١٫٠٨	١٤٫٩٧	٢٩٫٦١	٦٩٫٦٤
كينيا	٣٥٫٦٠	٣٥٫٨٣	٣٥٫٨٣	٦١٫٤٦	١٤٤٫٦٠
اوغندا	١٫٥٠	٨٫٥٦	٢٫٠٠	٦٫٩٩	١٦٫٤٤

موريشس	٥٫٢٥	٥٫٦٠	٤٫٧٩	٧٫٥٣	١٧٫٧٢
ساحل العاج	١٤٫٣٤	١٧٫٨٣	١٩٫٢٩	٣٤٫٥٤	٨١٫٢٨
مالي	٢٫٥٩	٣٫٤١	٤٫٨٩	١٠٫١٣	٢٣٫٨٤
ليبريا	٨٫٠٢	٤٫٦٠	١٢٫٢٧	٣٤٫٨٧	٨٢٫٠٤
المغرب	٢٣٫٣٧	٣٠٫٥٦	٤٢٫٧٣	٨٥٫٩٧	٢٠٢٫٢٨
مصر	٤٨٫٦٥	٤٤٫٥١	٧٥	١٦٥٫٨٥	٣٩٠٫٢٤
السودان	٨٫٣٥	٣٥٫٣٠	٢٥٫٦١	٤٤٫٠٨	١٠٣٫٧٢
زائير	١٤٫١٢	٢١٫٣٠	٢٥٫٣٩	٤٧٫٢١	١١١٫٠٨
كاميرون	—	١١٫٦٢	١٥٫٠٨	٢٩٫٢٢	٦٨٫٧٦

٢ ـ فقر افريقية في موارد الطاقة الاخرى:

ويزيد الامر حدة ان معظم الدول الافريقية اصبحت تعتمد على البترول كمورد رئيسي من موارد الطاقة، فغانا تعتمد عليه بنسبة ٨٠٪ بينما تعتمد عليه تنزانيا بنسبة ٩٥٪، وتفسير ذلك ان القارة فقيرة في التكوينات الفحمية الاقتصادية، فالحقل الوحيد ذو الأهمية في الانتاج يقع في جنوب افريقية وهو العامل الرئيسي في تنمية كثير من أوجه التعدين هناك، ويليه في الأهمية فحم روديسيا، أما الحقول الاخرى فهى قليلة الاهمية، وتتبعثر في نيجيريا والمغرب والجزائر وموزمبيق وزائير، وانتاج كل منها لا يتعدى بضعة مئات من الاف الاطنان ومن أنواع رديئة، وبالتالي لا يوجد الفحم الكوك الصالح للصناعات الثقيلة الا في جنوب افريقيا وروديسيا (٤١).

ورغم غنى القارة بالامكانات الكهربائية فان المناطق التي تزيد فيها هذه الامكانات بعيدة غالبا عن مناطق التصنيع والسكان، اذ ان الامكانات تزيد في افريقية المدارية (Tropical Africa) بينما مناطق الاستهلاك الرئيسي الان في اطراف القارة، ومن المعلوم ان

تكاليف الكهرباء تزداد كلما زادت خطوطها طولا، والحد الاقتصادي لمد هذه الخطوط في الوقت الحاضر هو ٥٠٠ ميل، فاذا لم يظهر ما يقلل من هذه التكاليف، فمعنى هذا أنه في ظل الظروف الحالية ستكون الاستفادة من كهرباء افريقية المدارية ضئيلة.

٣ ــ سعي الدول الافريقية نحو التنمية : ــ

واذا اضفنا الى ما سبق أن الدول الافريقية تسعي إلى الزيادة في التنمية منذ حصلت على استقلالها، وانها سئمت الاعتماد على صادرات المواد الخام ونصف المصنوعة في احسن الأحوال وعانت الكثير من هذا التخصص الشديد، لذلك كان التصنيع هو هدف كل منها، واذا كنا نستطيع ان نعرّف النمو بأنه زيادة الانتاجية العمالية عن طريق استغلال الطاقة والتكنولوجيا فان احتياجات الدول الافريقية للطاقة لا شك سيستمر في ازدياد وخاصة اذا كانت الصناعة هي أساس التنمية. كما لوحظ ايضا في افريقية زيادة نمو المدن على حساب الريف، فعلى سبيل المثال زاد سكان مدينة الجزائر إلى ثلاثة امثالهم في عقد واحد (٣٠٠ الف عام ١٩٥٩ ــ ٩٠٠ الف عام ١٩٧٠) وزاد سكان القاهرة من (٤ ملايين نسمة عام ١٩٦٠ الى ٨ ملايين نسمة عام ١٩٧٧) وزيادة نسبة الحضرية لاشك يتبعها زيادة في الطلب على البترول.

لماذا عجزت الدول الافريقية عن مواجهة مشكلة الاسعار؟

١ ــ طبيعة الاقتصاد الافريقي :

وكان يمكن للدول الافريقية ان تجابه مشكلة زيادة الاسعار وتتحملها كما فعلت الدول المتقدمة حين زادت من أسعار سلعها، ولكن طبيعة الاقتصاد الافريقي والصادرات الافريقية لا تساعد على هذا، فهو اقتصاد أولي يعتمد على صادرات الخامات زراعية أو معدنية، فالخامات تؤلف

٩٢٪ من مجموع قيمة الصادرات، بينما يقل نصيب المنتجات المصنوعة وشبه المصنوعة عن ٨٪. وكان لهذا مثالبه وأهمها التبعية الاقتصادية وإعاقة النمو الاقتصادي. وقد دلت الشواهد على انخفاض اسعار الخامات الزراعية بعد أن شهدت فترة ازدهار في أواخر الخمسينات وكان هذا بصفة خاصة في بعض السلع الرئيسية الخاصة بالدول الافريقية منفردة، فبعض الغلات شهدت كوارث في انخفاض الاسعار بلغت نحو ٥٠٪ من أسعارها في أواخر الخمسينات، كالكاكاو والبن والقطن، وكلها محاصيل صادرات رئيسية لبعض الاقطار الافريقية، وقدر في النهاية أن مجموع الخسائر من الأرصدة الاجنبية الذي خسرته افريقية نتيجة انخفاض الاسعار وبخاصة في المحاصيل الزراعية يزيد على جميع الأرصدة الاجنبية التي استثمرت في القارة، سواء عن طريق القروض، أو الهبات التي حصلت عليها القارة في العقدين اللذين اعقبا الحرب العالمية الثانية. ويلخص هذا الموقف مستر (Phillip Afidou) السكرتير الدائم لوزارة التعدين والقوى ورئيس الاتحاد الوطني لبترول نيجيريا فيما يلي: ان الذي حدث بعد الحرب العالمية الثانية هو تضخم متزايد في أسعار السلع المصنوعة والتي تصدرها الدول المتقدمة مقابل ركود أو هبوط في أسعار الخامات التي تصدرها دول العالم الثالث بعامة والدول الافريقية بخاصة (٤٢).

واشار الى نفس الموقف وزير مالية تنزانيا في تصريح له في باريس في أبريل ١٩٧٥ بأن اسعار الواردات الحيوية لتنزانيا قد ارتفعت بنسبة تتراوح بين ٢٠٪، ٥٠٪ بينما حجم دخلنا من الصادرات، اما ظل كما هو أو عانى من الهبوط، وارتفعت فاتورة البترول وحدها في تنزانيا من ٣٥ مليون دولار الى ١٠٠ مليون دولار في السنة المالية الماضية. (٤٣)

٢ ــ المجاعة ومشكلة الغذاء في افريقية:

ورغم ان مشكلة الغذاء سابقة لارتفاع أسعار البترول، لكنها تفجرت في الاونة الأخيرة بسبب حالة الجفاف الشديد التي أصابت كثيرا من

الأقطار، ولسوء الحظ كانت هذه الأقطار من الدول الفقيرة في نطاق امتد في افريقية من موريتانيا الى النيجر ومالي والفولتا العليا وشمالي نيجيريا وشمال ووسط اثيوبيا (يطلق عليه اقليم الساحل)، وفي مثل هذه الجهات وخاصة في افريقية يعتمد السكان على الرعي والزراعة، وكلاهما يعتمد على ما تجود به السماء من الغيث وزاد من حدة الأمر ان دول نطاق الجفاف هذا باستثناء موريتانيا لا تستغل بها ثروة معدنية تذكر، لا عجب أن تنظر هذه الشعوب الى السماء تستجدي خيرها، وتدعو الله الا يسود الجفاف عاما آخر، فقد استمرت هذه الأحوال الجافة ما يقرب من خمس سنوات، استنفد السكان فيها محاصيلهم من الحبوب، وأصبح ما يقرب من ٢٥ مليونا في افريقية يعيشون في المجاعة فرقت أجسامهم وسقط الالآف منهم صرعى الجوع، واضطروا الى أكل البذور، ومواليد الأبقار الصغيرة، واصبحوا عاجزين عن زراعة محاصيل جديدة.

وانتشرت بينهم الأمراض كالتيفود والدوسنتاريا والحصبة والالتهاب المعوي، وأصبحت الكوليرا وحدها تهدد ١٥ ألفا من السكان في عاصمة النيجر وحدها، وازدادت خطورة المجاعة في الدول الداخلية البعيدة غن البحر، كتشاد والنيجر وفولتا العليا وجمهورية أفريقية الوسطى وهذه أقلها استقبالا للمعونات لسوء وسائل النقل الذي يتمثل في طرق سيئة وانعدام للخطوط الحديدية أحيانا، فيصبح لا محالة من استخدام الطائرات لاسقاط المواد الغذائية في المدن ومراكز الاستقرار، بينما هناك قبائل بعيدة مشتتة لا تصل اليها، بل وتعدت الأزمة سكان البوادي الى الحواضر، لأن سكان الصحراء والريف القريبين من المدن هجروها ورحلوا الى المدن بحثا عن الغذاء وأصبحوا يشكلون بطالة ظاهرة، وأصبحت هذه البطالة من الأمور المألوفة الآن في اديس أبابا وأسمرة ومصوع ونيامي وزندر و باماكو.

وفقدت هذه الدول ايضا جل ثروتها الحيوانية والتي كانت تمثل معظم الصادرات في بعض منها، وتراوح المفقود في العام الواحد مابين ٥٠٠ ألف

رأس من الماشية في أثيوبيا الى معظم الثروة الحيوانية في النيجر.

وأمام هذه الظروف الخطيرة دعا الرئيس الجزائري بومدين في نهاية مؤتمر عدم الانحياز الذي عقد في الجزائر في ديسمبر ١٩٧٣ الى ضرورة عقد مؤتمر للغذاء يعقد في روما خلال شهر نوفمبر ١٩٧٤.

الوقيعة بين الدول الافريقية والدول العربية

الطريف في الأمر أن الدول الكبرى انتهزت فرصة هذه الأزمات، وحاولت الوقيعة بين الدول العربية المنتجة للبترول والدول الافريقية والنامية بعامة، ومن الجائز أنها قصدت الدول الافريقية بوجه خاص على اعتبار أن الدول الافريقية جميعا وباستثناءات قليلة (معروف سببها) أيدت العرب بعد حرب اكتوبر في ضرورة جلاء اسرائيل عن الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧، وأدانتها كقوة معتدية، وكانت الخطوة العملية لهذا هي قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل. فأرادت تلك الدول الكبرى أن تدخل في أذهانهم أن هذا هو الجزاء، وأدى هذا الى أن بعض الحكومات والصحافة الافريقية هاجمت الدول العربية على اعتبار أنها المسئولة عن الأزمات التي تعانيها الآن، ونريد أن نناقش مدى مسئولية الدول العربية عن الأزمات التي تعانيها بعض الدول الافريقية بعد عام ١٩٧٣.

دول افريقية البترولية غير العربية استفادت من حرب اكتوبر:

إذا بدأنا بالنقطة الأولى وهي أن الدول العربية قد استفادت استفادة كبرى من حرب اكتوبر وكان هذا على حساب أرصدة دول أخرى ومنها الدول الافريقية، فنحب أن نشير هنا الى أن الدول المنتجة للبترول ليست هي الدول العربية فقط، بل هناك دول غير عربية كفنزويلا وايران والاتحاد السوفيتي تنتج النفط أيضا كذلك تزايد انتاج الدول الافريقية

الأخرى بسرعة نتيجة الحظر البترولي العربي واغلاق قناة السويس، لأنه صادف أن كانت بقية الدول الافريقية المنتجة في هذه الفترة واقعة في غرب افريقية وبعيدة عن القناة وقريبة من أسواق أوربا وأمريكا أكثر من دول الخليج، فبلغ انتاج جابون ما يزيد على ٩ ملايين طن عام ١٩٧٤، بينما كان نحو ٥ ملايين طن عام ١٩٧٠.

وكذلك ارتفع انتاج أنجولا من ٥ ملايين طن الى مايقرب من ٩ ملايين طن في التاريخين المذكورين وحتى جمهورية الكنغو الشعبية ارتفع انتاجها المتواضع من ٣٦٥ ألف طن الى ٢ر٤ مليون طن. واستفادت الدول الافريقية المنتجة من عوائد البترول وأحيانا كانت نسبة استفادتها أكبر كما يتضح من الجدول التالي (٤٤)

الدولة / السنة	فوائد الحكومات من البترول (مليون دولار)	صادرات البترول (مليون برميل)
(ليبيا)		
١٩٧٣	٢٣٠٠	٧٩٤
١٩٧٤	٧٦٠٠	٥٤٧
مدى التغير٪	+٤ر٢٣٠	—١ر٣١
(نيجيريا)		
١٩٧٣	٢٠٠٠	٧١٥
١٩٧٤	٧٠٠٠	٧٨٥
مدى التغير٪	+٢٥٠	+٨ر٩

وكان تدفق عوائد البترول هو مفتاح التنمية الاقتصادية في نيجيريا واصبحت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا، كما في مشروع التنمية الخمسية الثالث الذي أعلنه الرئيس السابق جوون (Jowon) في نيجيريا في مارس ١٩٧٤.

وحتى يرد السهم الى الدول المتقدمة التي حاولت توجيهه الى الدول المنتجة للبترول والدول العربية بصفة خاصة، نريد أن نسأل : لقد حققت بعض الدول المتقدمة كاليابان والمانيا الغربية فوائض ضخمة من الأرصدة اعتمادا على خامات وبترول العالم الثالث بصفة عامة، فهل سمعنا أحدا أرجع مشكلات العالم الاقتصادية الى استغلال هذه الدول المتقدمة؟ ألسنا نعرف أنه في عام ١٩٧٣ كان لدى اليابان وحدها فائض قدر بنحو ١٩ ألف مليون دولار من الذهب والنقد الأجنبي، وتسبقها المانيا الغربية في هذا المضمار، فهل نشرت هذه الأرقام وعلق عليها أحد؟ كل ما في الأمر أن المستفيد من ارتفاع أسعار المنتجات الصناعية والأسمدة والقمح هي الدول المتقدمة في أوربا وأمريكا واليابان، بينما المستفيد في حالة البترول هي دول نامية، فما يعتبر تصرفا صحيحا بالنسبة للدول المتقدمة هل يعتبر خطأ بالنسبة للدول النامية؟ ماذنب الدول النامية كي تستورد المنتجات الغذائية والأسمدة والمصنوعات بنفقات تبلغ ضعف نفقات البترول؟

الدول العربية في حاجة الى تنمية:

يتناسى الذين ينشرون أرقام عوائد البترول أنه مادة سرعان ما تنضب، وان الدول المصدرة الآن سوف تحدد الانتاج في المستقبل للمحافظة على هذا المورد أطول مدة ممكنة، ويكفي أن الدول المتقدمة تستهلك وحدها أكثر من نصف استهلاك العالم كله.

ان الحسابات الخاطئة لا تضع في الاعتبار أن دول البترول دول نامية في حاجة الى تنمية اقتصادياتها بدءا من السعودية الى العراق والكويت والجزائر وليبيا وقطر والبحرين، ومع هذا فالمبالغ المرصودة للتنمية عرضة للتعديل بحيث ترتفع كل عام، ذلك أنه بعد تخفيض سعر الدولار جرى تعديل لسعر العملات المحلية مرات متوالية، يكفي أن نقول بأن هناك في العالم العربي ٢٠٠ مليون فدان قابلة للزراعة وينقصها ضمن ما يلزمها

الاستثمارات، فهل تترك هذه الأراضي وتظل الدول العربية مستوردة للقمح والذرة واللحوم؟ آن الأوان لقيام قاعدة صناعية في الدول المصدرة للبترول. ولماذا هذا الحشد من المصانع في الدول المتقدمة؟ لماذا لا تقوم صناعة البلاستيك والمنسوجات الصناعية والبروتينات والفيتامينات والأدوية وغيرها من المواد التي تعتمد على البترول كمادة خام في نفس الدول المنتجة له؟

ارتفاع اسعار السلع المتقدمة كان سابقا لارتفاع سعر البترول عام ١٩٧٣:

ان سهم الاتهام مردود إلى الدول الصناعية لأكثر من سبب، منها أن أسعار المواد الغذائية كانت آخذة في الارتفاع قبل ارتفاع أسعار البترول، بل إن أسعار المنتجات الصناعية قد ارتفعت قبل أزمة الطاقة، فعلى سبيل المثال ما بين يولية ١٩٧٢، و يوليو ١٩٧٣ أي قبل الارتفاع الأول لسعر البترول.

- تضاعف سعر القمح، ثم ارتفع مرة أخرى في النصف الأخير من عام ١٩٧٣.
- سجل سعر السكر ارتفاعا بلغ أربعة أمثال سعره في أقل من ثلاث سنوات
- تضاعف سعر السماد.
- ارتفع سعر الاسمنت أربع مرات.

ولم يتحدث أحد عن التضخم في أسعار المواد المستوردة للدول النامية، زراعية أو صناعية والتي تنتجها الدول المتقدمة. كان السعر المبدئي لبرميل البترول من دول الخليج نحو ٢٫٢٥ دولار لعام ١٩٤٧ خفض الى ١٫٨ دولار وظل هذا السعر البخس حتى عام ١٩٦٩، أي ظل العالم المتقدم يعتصر انتاجنا في مقابل سعر ضئيل، على حين ارتفع سعر القمح ثلاث

مرات والسكر ١٦ مرة، فكان من الواجب رفع سعر البترول لنحصل بدورنا على احتياجاتنا ورفاهية شعوبنا.

أين مساعدة الدول المتقدمة للدول الافريقية قبل ارتفاع سعر البترول؟

إن ما يدعو الى الدهشة أن يدشن الانسان العقد الحالي بغزو القمر، مبرهنا بهذه البراعة الخارقة على ان قدرته العلمية والفنية هي في مستوى أعقد المشاكل التي تطرحها الطبيعة، في حين يكاد عجزه يكون مطلقا أمام البؤس والفقر الذي يسود معظم سكان العالم. لقد انتهزت دول العالم المتقدم فرصة ارتفاع أسعار البترول لتوحي للدول النامية غير المنتجة بما فيها الدول الافريقية أن هذا الارتفاع سيزيد في أزمتها. ولكن هل كان من الممكن النظر اليها نظرة خاصة؟ لا نعتقد هذا، لأنه لم يكن عمليا وضع أسعار متباينة للبترول، واحد للدول المتقدمة، والثاني للدول النامية والافريقية بخاصة، ذلك أنه في ظل سياسة الحظر التي صحبت حرب أكتوبر على بعض الدول، كان من المشكوك فيه أنه تم على الوجه الأكمل نظرا لامكانية تغيير سير الناقلات فى عرض المحيط.

ان الدول المنتجة للبترول تعرف أن ارتفاع أسعار البترول قد يؤذي بلدان العالم الثالث *، ولكنها ترى أن مسئولية المساعدة كانت تقع على عاتق الدول المتقدمة منذ زمن طويل، وقد اتفقت الدول في أكثر من مؤتمر للتجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة (الانكتاد)

United Nations Conference on Trade and Development (Unctad)

---

* ظهر تعبير «دول العالم الرابع» ليشير الى الدول الأكثر تخلفاً The Least developed وهي التي تواجه مواقف صعبة بسبب ارتفاع قيمة وارداتها من البترول والمواد الغذائية ، و يبلغ عدد الدول الافريقية في هذه الفئة ستاً وثلاثين ، من مجموعها العام الذي يبلغ خمساً وأربعين دولة .

على أن تخصص الدول الصناعية نسبة ١٪ من دخلها لمساعدة الدول النامية، ولكن هذه النسبة لم تدفع أبداً(٤٥)، وناشد روبرت مكنمارا رئيس البنك الدولي في الجلسة الافتتاحية للبنك في أكتوبر ١٩٧٤ — ناشد الدول المتقدمة أن تهرع الدول الصناعية الى نجدة الدول النامية عن طريق زيادة مساعداتها الحكومية لها، مذكرا اياها بأن مساعدات عام ١٩٧٤ وصلت الى أدنى مستوى لها خلال السنوات الأربع الأخيرة. أن الديون المستحقة على الدول الافريقية لصالح الدول المتقدمة ارتفعت من ٩٢٠٠ مليون دولار عام ١٩٦٧ الى ٢٨٥٠٠ مليار عام ١٩٧٤. فهل هناك دولة متقدمة تعفي الدول النامية حتى من الفوائد فقط؟ لقد تم منح مساعدة (مشروع مارشال) عقب الحرب العالمية الثانية ضمن اطار تحالف سياسي وعسكري بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية وقد بلغت المساعدة التي قدمها بلد مصنع الى بلاد مصنعة أخرى نحو ٣٪ من الدخل الاجمالي للولايات المتحدة وكان تعبئتها واستخدامها على وجه السرعة وبالصورة الكاملة التي تمت بها ميقيم الدليل على أن الامكانات المالية يمكن تأمينها بمنتهى السهولة على مستوى البلاد المصنعة عندما تتوفر الارادة السياسية.

الدول المنتجة للبترول رائدة للدول الافريقية:

ان دول البترول ومنها الدول العربية مهما بلغ غناها فهي من دول العالم الثالث، وتعتبر رائدة للدول المنتجة للمواد الخام، وقد رأينا مدى اعتماد الدول الافريقية على الخامات، لذلك لا توجد دولة منتجة ومصدرة للمواد الخام في افريقيةأو غيرها الا وتبدي اعجابها بمنظمة الأوبك بدرجة أو بأخرى، فقد حققت بنجاح ما كانت الدول الافريقية تتوق اليه لانها فرضت ولأول مرة السعر الذي تريد أن تبيع به للدول الغنية الصناعية، وقد شجعت بهذا أكثر الدول المنتجة للخامات ومنها الدول الافريقية لمحاكاتها أو للتخطيط للعمل على نمطها. وسواء كانت اتحادات بعض المواد

الخام كانت موجودة قبل ارتفاع سعر البترول أو ظهرت بعدها، فهي تعتبر اتحاد مصدري البترول (OPEC) رائدا في هذا المضمار.

فهناك اتحاد منتجي الكاكاو (٧٠٪ انتاج افريقي) واتحاد منتجي البن (٣١٪ انتاج افريقي)، وهناك اتجاه من منتجي النحاس (٢٥٪ انتاج افريقي) للحد من انتاجه، و يناقش منتجو البوكسيت (خام الالومنيوم ٨٪ انتاج افريقي) امكان وضع حد أدنى لسعره، ومنظمة الدول المصدرة للفول السوداني (٧٥٪ من الصادر العالمي افريقي) هذه الاتحادات وغيرها والتي تشترك فيها الدول الافريقية شجعتها منظمة الأوبك على أن تتخذ قرارات فيما يختص بانتاجها وصادرها. و يبدو أن هناك اتجاها من الدول المنتجة للبترول لتمويل بعض المشروعات المقدمة من الدول المنتجة للخامات وذلك لتقوية موقفها في المساومة أمام الدول المتقدمة.

ارتفاع سعر البترول يفيد الأقطار الافريقية المنتجة للخامات:

ولا ننسى أن ارتفاع البترول أفاد الدول الافريقية بطريق غير مباشر، عن طريق رفع أسعار السلع التخليقية (Substitutes)، والتي أصبحت منافسا خطيرا لهذه الخامات، وتمثل هذا بصور متعددة، ففي حالة القطن (افريقية لها ٢٥٪، ١/٤ الانتاج العالمي، +٧٠٪ من الأقطان الطويلة التيلة) زادت باطراد قوة تحدي الألياف الصناعية المشتقة من البترول، فقد بلغ الاستهلاك العالمي من الألياف الصناعية عام ١٩٦٨ حوالي ٤٧٪ من اجمالي الألياف (fibres) المعروضة مقابل ٢٧٪ عام ١٩٥٨. وكان هذا لخاصية البس واغسل (wash and wear) وهي ميزة موفرة للجهد والمال بالنسبة للمستهلك، بل استحوذت الألياف الصناعية على بعض أوجه الاستعمالات الاخرى التى كان ينفرد بها القطن كاطار السيارات والباراشوت وشباك الصيد ومنتجات التريكو، بل ان الأقمشة الرفيعة المصنوعة من القطن الخالص أصبحت الآن تواجه منافسة من منتجات الألياف الصناعية بنسبة ١٠٠٪ مثل كوانا (Quana) وهو

صنف جديد له مظهر الحرير انتجته شركة (Dupont) الامريكية ، وتعدت منافسة الألياف الصناعية للقطن ناحية الخصائص الى المنافسة في الأسعار، فأصبحت اسعار الألياف البوليستر قريبة جدا من أسعار القطن ، خاصة اذا أدخلنا في الاعتبار ارتفاع نسبة المعدوم في الصناعة القطنية ، ليس من شك أن ارتفاع سعر البترول يؤدي بالتالي الى ارتفاع سعر مشتقاته المنافسة للخامات ، ويجعل من الممكن الرجوع للخامات النباتية مرة أخرى .

وما قيل عن القطن يقال عن البولي بروبيلين (Polypropylene) ومنافسته للسيسل (٦٦٪ انتاج افريقية) الذي تصنع منه حبال السفن والبالات، فقد تميزت الحبال المصنوعة من البولي بروبلين بقوة احتمالها عن السيسل ويمكن أن يكون عامل السعر محددا لاستهلاكه .

(استراتيجية الدول العربية نحو الدول الافريقية)

انتبهت الدول العربية الى هذه الاستراتيجية الاستعمارية التي تحاول القاء التبعة على الدول المنتجة للبترول وخاصة الدول العربية ، وبذر بذور الشقاق بين الدول العربية والافريقية ، فانعقد مؤتمر القمة العربي في الجزائر في نوفبر ١٩٧٣ لتدعيم التضامن العربي الافريقي ، وحتى تحس الدول الافريقية بأن الدول العربية لم تنسها كما لم تنس الدول الافريقية شقيقاتها العربيات ، اقر المؤتمر فرض حظر بترولي على البرتغال وروديسيا وجنوب افريقية على اعتبار أنها دول معادية للتحرر الافريقي ، كما أقر المؤتمر اقامة صندوق عربي افريقي برأسمال قدره ١٠٠ مليون دولار زيد فيا بعد الى ٢٠٠ مليون دولار، لمساعدة الدول الافريقية التي تواجه صعوبات اقتصادية بسبب ارتفاع أسعار البترول ، ووضعت اللجنة المنبثقة عن منظمة الوحدة الافريقية أربعة عوامل اقتصادية أخرى في الاعتبار لرفع نصيب الدول الافريقية من هذا الدعم وهذه العوامل هي : الجفاف ،

الدول الحبيسة، الدول التي لم ترتفع أسعار صادراتها بنسبة كبيرة، والدول التي مستوى دخل الفرد فيها ضئيل.

وأنشىء كذلك بنك عربي للتنمية الزراعية والصناعية لأفريقية في الخرطوم في يناير ١٩٧٤ برأسمال مبدئي قدره ١٩٥ مليون دولار، زادت منذ نهاية نوفمبر ١٩٧٤ الى ٢٣١ مليون دولار ثم كان مشروع الصندوق العربي لتقديم المعونة الفنية للدول الافريقية، هذا وقد تطور مبلغ المعونة العربية الاقتصادية لافريقيا من ١٤٤ مليون دولار عام ١٩٧٣ الى ١٣٣٢ مليون دولار عام ١٩٧٧، هذا غير المعونات الاقتصادية الثنائية.

وكانت هناك رغبة من الدول الافريقية لدول الأوبك في أن تتبع سياسة السعر المزدوج أي أن تبيع للدول الافريقية بسعر خاص مخفض، وتبيع للدول الأخرى بسعر عال، ولكن الفكرة لم تجد قبولا لأنه لا يمكن التحكم في هذا الاجراء، و يكفي على سبيل المثال الاستشهاد بما حدث في فترة الحظر البترولي، فقد قررت منظمة الدول العربية المصدرة للبترول (الأوابك Oapec) بأن هناك نحو ٣٫٥ مليون طن من البترول العربي تسربت الى الولايات المتحدة الأمريكية بين ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ وآخر ديسمبر من ذلك العام، فامكانية التسرب ممكنة الى حد ما لأنه يمكن الشحن والتفريغ بين الناقلات في أعلى البحار.



الدول العربية والأفريقية

مواجهة أو تضامن؟

أخيرا في ختام هذا لا نجد مواجهة أو تناقضا بين العرب والأفارقة، ولا بين افريقية شمال الصحراء وافريقية جنوبها، وليس هناك من داع لأن نقول ان هناك تجانسا تاما بين أجزاء افريقية، ولكن الذي يجب أن يعرفه الجميع أن العروبة ليست لها ارتباطات سلالية تجمع بين أفرادها، أو تقتصر على سلالة معينة، وانما هي رباط لغوي ثقافي حضاري يجمع بين الألوان جميعا من الأبيض الى الأسود وما بينهما من درجات، ولو لم يكن هذا هو مضمون العروبة لما أصبح كل من يسمون عربا الآن سواء في آسيا أو افريقية قد أصبحوا عربا وكما أن العروبة ليست سوى رباط حضاري لغوي ثقافي، كذلك الافريقية ليست رباطا سلاليا، بل رباطا جغرافيا حضاريا سياسيا، بصرف النظر عن اللغة والدين والسلالة.

تاريخ مشترك:

واذا كانت القومية الافريقية ارتبطت بها فكرة الحرية، وأن هذا الشعار هو الذي كان ينادي به المواطنون في شوارع أكرا في أوائل الخمسينيات وحاربت من أجله شعوب موزمبيق وأنجولا، فهذا الشعار هو أيضا الذي نادى به المصريون من مصطفى كامل الى سعد زغلول في العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن، واستمر بعد ذلك حتى جلاء الجيوش البريطانية في الخمسينات، وهو نفس الشعار الذي نادى به الليبيون والتونسيون والسوريون واللبنانيون والمغاربة، واذا كانت افريقية وجنوب الصحراء قد خضعت لسطوة الاستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فان سكان افريقية شمال الصحراء والشام والعراق قد خضعوا لنفس النفوذ، وكان النصف الثاني من القرن العشرين هو عصر انحسار المد

الاستعماري سواء في افريقية أو العالم العربي، كل ما في الأمر أنه كان أكثر تبكيرا في بعض أقطار العالم العربي. وقابل استيطان الأوربيين في كينيا وتنجانيقا استيطان الفرنسيين في المغرب العربي وبصفة خاصة في الجزائر. وقابل استيلاءهم على الأرض وحرمان الوطنيين منها في كينيا. استيلاؤهم على أراضي الجزائر الخصبة، فالتناظر واضح بين المرتفعات البيضاء في كينيا والتل التونسي والجزائري، بل إن الصورة تتكرر في أكثر من موقع، فقد عطل المستوطنون استقلال الجزائر، كما عطل المستوطنون استقلال كينيا عن جارتيها أوغندا وتنجانيقا. واذا كان كينياتا تعرض للنفي وجوشوا نكومو تعرض للسجن فقد نفى سعد زغلول وعبد الكريم الخطابي والملك محمد الخامس وحكم على عمر المختار بالاعدام رغم شيخوخته. اذن ما بين هؤلاء وأولئك تاريخ مشترك وتحد للقوى الأجنبية، وانجاز تفخر به هذه الدول، افريقية وعربية، وهو التحرر.

اقتصاد متماثل:

فاذا أضفنا الى التاريخ المشترك الظروف الاقتصادية المتشابهة، أدركنا المصلحة المشتركة، فالمشكلات التي تعانيها الدول الافريقية والدول العربية في معظمها واحدة، وهي صورة مكبرة أو مصغرة من مشكلات العالم النامي، فالدول العربية والافريقية هي دول نامية يعتمد وما زال اقتصادها على الحرف الأولية كالزراعة والرعي والتعدين، ولم يكن الاستعمار يسمح أو يشجع على قيام الصناعة لتظل أسواق الدول العربية والافريقية مفتوحة أمام المنتجات الأوروبية، وهذا أمر طبيعي وكان منتظرا من الدول الاستعمارية، وليس هذا رأينا وحدنا بل هو رأي واحد من أكبر الاقتصاديين البريطانيين وهو (نيركسة) في محاضرته عن الأثر الاقتصادي للاستعمار. فكانت النتيجة أن اصبحت صادراتنا جميعا من المواد الخام التي تصدر الى أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان لتصنيعها، ثم عودتها الينا مصنعة نشتريها بأعلى الأسعار ليرفع العالم الصناعي من مستوى معيشته على

حساب مستوى معيشة شعوبنا.

فاذا كانت الزراعة تمثل الحرفة الرئيسية وعماد الصادرات في السنغال، و بنين وتوجو، وغانا، واثيوبيا، وساحل العاج، وأوغندا فهى الحرفة الرئيسية وعماد الصادرات في تونس، والمغرب، وسوريا، والعراق، ومصر، والسودان. وبينما تعتمد مصر والسودان على القطن ومنتجاته، كسلع تصدير أساسية، وتعتمد تونس على زيت الزيتون والفاكهة، والمغرب على الخضروات والفاكهة، كذلك تعتمد السنغال والنيجر على الفول السوداني وأوغنذا واثيوبيا على البن، ومالاوي على الدخان وساحل العاج على البن والكاكاو. وكما تصدر ليبيريا وسيراليون الحديد خاما، وتصدر زائير وزامبيا مركزات النحاس، وافريقية الوسطى الماس، تصدر الجزائر الحديد والبترول وتصدر تونس والمغرب الفوسفات، وتصدر ليبيا والكويت والسعودية البترول خاماً، كما تفعل نيجيريا والكنغو. ومن هنا كانت اقتصادياتنا كدول عربية وافريقية تتميز بالتماثل في طريقة استغلالها، واعتمادنا جميعاً على صادراتنا في الحصول على العملات الأجنبية اللازمة لنمونا الاقتصادي والاجتماعي، وكان هذا معناه التبعية الاقتصادية للغرب وعدم الاستقرار الاقتصادي وذلك لتعرض اقتصاديات هذه الاقطار للذبذبات الحادة في الاسعار والتي تحددها أسواق الدول الأوروبية والأمريكية، و يكفي أن نذكر الرواج الذي لاقته خامات الدول العربية والافريقية اثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها لشدة الحاجة اليها لتموين الجيوش الأوروبية ثم للحصول على غذاء للأوربيين ولكن هذه الصورة انعكست منذ الستينات حيث شاهدت هذه الخامات العربية والأفريقية نكسة، وكانت هذه النكسة في الأسعار في نفس الوقت الذي بدأت فيه معظم هذه الدول تحصل على استقلالها، حيث استقلت سياسياً ولكنها وجدت نفسها تابعة اقتصاديا .

صعوبة مواجهة الدول الافروعربية لمشكلاتها منفردة:

ليس من شك بأن الدول العربية والافريقية تجد صعوبات في تنفيذ برامج التنمية فيها منفردة، وفي بعض الحالات تعجز امكانات الدولة الواحدة عن مواجهة هذه المشكلات بالحلول المناسبة، ففي ظل الثورة التكنولوجية المعاصرة، أصبحت الصفة التي يتميز بها النشاط العلمي والأبحاث العلمية هي العمل الجماعي والأبحاث المشتركة لأنها تتطلب معدات وأجهزة باهظة التكاليف، فضلا عن خبرات متنوعة وعلى مستوى عال مما لا يمكن لموارد دولة واحدة أن تتحملها، و يكفي أن تعلم بأن الولايات المتحدة الأمريكية تصرف ٢١ مليار دولار سنوياً على الأبحاث، وتنفق الدول الأوروبية نحو ٦ مليارات دولار في هذا المجال. هذا كما يصعب توفير الخبرات اللازمة في دولة واحدة في بعض الأحيان، من ثم يتطلب الأمر تكوين مجموعات عمل عربية أفريقية مشتركة قادرة على مواجهة المشاكل التي تتعلق بالتنمية وخاصة في مجال استخدام التكنولوجيا الحديثة، وتجميع الطاقات لمتابعة التطور المذهل في هذا الميدان.

ومن المسلم به أيضاً وفرة الموارد الطبيعية لدى الدول الأفروعربية، ومع ذلك فمعظمها غير مستغل، فإذا تركنا الأرض التي يمكن استصلاحها للزراعة، فهناك الثروة المعدنية التي ذكرناها وغيرها من الامكانات التي يمكن أن تقوم عليها قاعدة صناعية ضخمة كالسدود التي تقام على الأنهار، و يستفاد منها بطاقات كهربائية ضخمة، واستغلال هذه الثروات الكامنة يزيد من معدل التنمية الاقتصادية والاجتماعية فيها، ولكن استغلال هذه الثروات تقف أمامه صعوبات متعددة، نذكر منها عدم توفر وسائل النقل، وضيق الموانيء، وقلة الطرق المناسبة، والتكاليف الباهظة، مما تعجز عنه موارد الدولة الواحدة، أما اذا تكلمنا عن الصناعة وهي أمل الدول النامية بوجه عام والتي تُخرج الدول الأفروعربية من حالة التبعية للدول المتقدمة لأنها ستقلل من الاعتماد عليها في تصريف المواد الخام، وفي جلب السلع

الصناعية، فضلاً عن الأثر الذي يتركه التصنيع على المستوى العام للتعليم والمهارات وبث روح الابتكار، فإن هذه الصناعة لا يمكن أن تقوم في دول منفردة تتميز بضيق السوق، وقلة الموارد المالية، والخبرات الفنية، فالصناعة الحديثة في الدول المتقدمة والتي تكتسح بها العالم النامي ومنه الدول الأفروعربية، هي صناعة آلية ضخمة ذات انتاج عملاق، يتعدى الحدود القومية في تصريفه الى ما وراء البحار، ثم إذا أرادت دولة عربية أو افريقية قيام صناعة منفردة فيها فإن الآلات الضخمة يمكنها أن تغطي احتياجات السوق المحلية الضيقة لبضعة أسابيع، وتظل آلات الانتاج معطلة بقية العام.

لهذه العوامل مجتمعة لابد من استخدام خبرات وامكانات واسعة، وزيادة امكانات تنفيذ مشروعات النقل والتخزين وتوليد الكهرباء وقيام قاعدة زراعية وصناعية متطورة.

ضرورة التكتل في عالم التكتلات:

إن الفترة التي يمر بها العالم اليوم هي فترة التكتلات السياسية والاقتصادية، فهناك الجماعة الاقتصادية الأوروبية EEC أو مايعرف بالسوق الأوروبية المشتركة، وهناك الكوميكون أو مجموعة دولة المعسكر الاشتراكي وغيرها من التكتلات التي تبغي مصلحتها أولاً، وهذه التكتلات الضخمة من الملاحظ أنها بين الدول المتقدمة، على حين أن الدول الأفروعربية تنتمي لمجموعة الدول النامية التي تعتمد على تصدير المواد الأولية الى الدول المتقدمة، وهذه الأخيرة كما سبق أن ذكرنا تتحكم في الأسعار وتجعلها في صالحها وتسيء الى مصالح الدول الأفروعربية بحيث اتسعت الفجوة وما تزال تتسع بين الجانبين. واذا كانت الدول المتقدمة قد انتبهت الى ضرورة التكاتف ضمن كيانات سياسية واقتصادية ضخمة، وأخذت تجمع قواها في تخطيط وتنفيذ مشترك، فما أحوج الدول الأفروعربية الى هذا التعاون فيما بينها، وتبدو ضرورة التعاون الاقتصادي بين الدول الأفروعربية للوقوف

صفاً واحداً أمام الدول المتقدمة، حين تحاول هذه شق صفوف الدول العربية والافريقية، وإحداث انشقاق بينها، وقد تعددت هذه المحاولات، وكان آخرها محاولة الدول المتقدمة اجتذاب الدول النامية المستهلكة للبترول الى صفها بحجة أن الدول البترولية المصدرة ومعظمها عربية هي المسئولة عن التضخم في الأسعار الذي تعاني منه الدول غير البترولية، وذلك بهدف شق صف الدول النامية.

ويمكن أن نختتم حديثنا في هذا المجال بالقول بأنه اذا كانت الخمسينات والستينات هي سنوات الحسم السياسي وسنوات الاستقلال للدول العربية والأفريقية، فإن السبعينات والثمانينات يجب أن تكون سنوات تعميق الاستقلال السياسي عن الدول الأوربية، بمواجهة مشكلات التنمية فيها، فلم يكن التخلص من الاستعمار وتحقيق الاستقلال هو نهاية المشاكل بالنسبة للشعوب الأفروعربية، بل يعتبر بداية لمشكلات أعمق أساسها إقامة اقتصاد وطني سليم لا يعتمد على الخارج، ولا على التبعية للدول المتقدمة.



الحواشـــــي

(١) المرجح أنه رحالة أو تاجر اغريقي عاش في الاسكندرية في القرن الأول الميلادي، وتحدث عن المناطق التي شاهدها بنفسه، وتوجد ترجمة انجليزية لهذا الكتاب بعنوان The Prepiplus of the Erythnean Sea, Newyork, 1912.

(٢)
Huzayyin. S. A., "Arabia and the Far East" Their Commercial and Cultural Relations in Graeco - Roman and Irano - Arabian Ttimes, Cairo - 1942. pp. 5,6.

(٣) سورة يوسف (٥٩ — ٦١)

(٤) سورة يوسف (٦٣ — ٦٤)

(٥) عباس عمار: «المدخل الشرقي لمصر»، القاهـرة ١٩٤٢ ص ٩٠، ٩٣

(٦) محمد عوض محمد: «السودان الشمالي» سكانه وقبائله، القاهرة ١٩٥١

(٧) محمد عوض محمد: «الشعوب والسلالات الافريقية»، القاهرة ص ٣٣٨

(٨) محمد عبدالغني سعودي: «الوطن العربي»، القاهرة، ١٩٧٨ ص ٥١٨، ٥١٩

(٩)
Law, R.C.C. "The Garamantes and Trans - Saharan Enterprise in Classical Times", Jour. Afr. History, vol IIII, no. 2, pp, 82, 83.

(١٠)
Davidson. B. "Africa in History", London. 1970. pp. 62, 64.

(١١)
Hopkins, A.G. "An Economic History of West Africa',, London 1973. pp. 80.81.

(١٢)
Barber. W. "The Movement ınto the World Economy" in "Economic Transition in Africa" London 1964 p. 300, Oliver R., Fage J., A short History of Africa, Penguin, 1962, p. 61.

ويقول دافيدسن في كتابه افريقية في التاريخ، أنه لولا ذهب غرب أفريقية الذي كان ينقل عبر الصحراء ماكان في الامكان لأوروبا أن تستخدم الذهب كوسيلة نقدية في العصور الوسطى، فكان الملوك يصكون عملاتهم من ذهب غرب

افريقية بل انه في عام ١٨٣٢ عندما استولت فرنسا على الجزائر وجدوا مخزناً به مالا يقل عن ١٥٥٠٠ رطل من الذهب، ليس من شك أنها أتت عبر الصحراء (راجع الكتاب المذكور ص ٦٥).

(١٣)
Bovill, E.W. "The Golden Trade of the Moors" 2nd Edition, 1968., p. 236.

Ibid., p. 239. (١٤)

(١٥)
Hopkins, A.G. "An Economic History of West Africa", P. 86.

(١٦) دكتور صابوري بيوبكو مؤرخ نيجيري، وكان مديراً لمعهد الدراسات الافريقية في جامعة Ife وانظر أيضاً:

Meek, C.K. "Tribal Studies in Northern Nigeria, London 1931

Warmington, C. "TheAncient Explorers" Pelican 1963. p. 21.(١٧)

Huzayyin, "Arabia and the Far East". p. 36. (١٨)

(١٩) كلمة «داو» وجمعها داوات هي ألفاظ سواحيلية أكثر منها عربية، وان كان يستعملها الجميع في شرق أفريقية، ويستعمل العرب كلمة سمبوك (سنبوك) الفارسية الأصل، وهي عبارة عن المراكب الخشبية التي كانوا يستعملونها في الملاحة معتمدين على الشراع والجداف، وهي تختلف حجماً ونوعاً.

(٢٠)
Mc Master, D.N. "The Ocean - Going Trade to East Africa," East African Geogr. Review, no.4.April 1966 p. 15.

Ibid., p. 18 (٢١)

(٢٢) حدثت تطورات جديدة في تجارة أخشاب المانجروف، فأصبح ما يقطع من زنجبار وبمبا قليلاًاذا ما قورن بجهات أخرى مثل الفروع الخمسة لدلتا نهر روفيجي، وكذلك الحال في ضواحي بلدة لامو، حيث الظروف الصحية أفضل، وتقوم مصلحة الغابات في كينيا بالاشراف على هذا الاقليم منذ عام ١٩٥١، هذا وتجد أخشاب

المانجروف منافسة قوية في شبه جزيرة العرب من جانب مواد البناء.

(٢٣)

Beach, R.W. "The East African Ivory Coast Trade in the Nineteenth Century" Jour. Afri. Hist, vol. III, 7, 1967, p. 770.

(٢٤) وصل العرب الى أوجيجي على بحيرة تنجانيقا في نفس الوقت الذي وصل فيه الرحالة في عهد محمد علي الى غندكرو في السودان، فعندما وصل برتون وسبيك الى أوجيجي في يناير ١٨٥٨ قابلا تاجراً عربياً يدعى محمدبن شهاب الذي كان يعيش هناك منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. وعندما وصل ليفنجستون عام ١٩٦٩ كان العرب الذين يعيشون في أوجيجي يتاجرون غرب البحيرة، وكانت بلدة كيسنجا الى الغرب من البحيرة من المراكز التجارية العربية عام ١٨٥٩ وكذلك وضع المرشد العربي المشهور شهاب الدين أحمدبن ماجد دليلاً بحرياً (وهماني) ممتازاً استند فيه الى خبرته الشخصية والكتب السابقة، وحينما وصل فاسكوداجاما الى ماليندي في شرق أفريقية، بحث عن أحد الأدلاء يحمله الى الهند، وهناك لم يجد الا أحمدبن ماجد هذا، فأقنعه بقيادة سفن البرتغاليين عبر المحيط الهندي الى كلكتا. انظر في هذا مقالة **Beach** التي أشرنا اليها من قبل فضلاً عن

Trimingham, S., "Islam in East Africa", Oxford U.P., 1964, P. 24

(٢٥) Ibid. p. 24.

(٢٦)

Neumark, D. "Foreign Trade and Economic Development in Africa", Stanford, 1964, p. 50.

(٢٧)

Bear, G. Slavery in Egypt in the Nineteenth Century Journal of African History, Vol, VII,3.1967, pp.422.

(٢٨) بازل دافيدسن: «أفريقية تحت أضواء جديدة»: الترجمة العربية لجمال محمد أحمد دار الثقافة العربية — بيروت — ص ١٧.

(٢٩)

Hopkins, A,G, "Economic History of West Africa", Longmans, 1973, p, 90 %

(٣٠) Neumark, op, cit., p. 51.

(٣١) Ibid., p. 51.

(٣٢) Hopkins, A, G., "Economic History of Africa"; p. 91.

(٣٣) Neumark, p, 54,.

(٣٤) Hopkins, op. cit., p. 92.

(٣٥) بازل دافيدسن : صحوة أفريقية ، ترجمة عبدالقادر حمزة ، الألف كتاب ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ وراجع أيضاً عن مهازل البرتغاليين في أفريقية :

James Duffy, "Portugal in Africa", Penguin, 1962, pp. 149. 191.

(٣٦) محمد عبدالغني سعودي : «الجغرافية والمشكلات الدولية» ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٣٩١ وراجع

Emerson, E., "From Empire to Nation". Harvard, 1960.

(٣٧) First, R., "South West Africa". Penguin, 1963

(٣٨) بازل دافيدس : «افريقية تحت أضواء جديدة» : ص ١٩٣ ــ ١٩٥ .

(٣٩)

U.N., ECA., "Survey of the Economic and Social Conditions in Africa for the year 1975"

(٤٠)

U.N., ECA., "Association of African Central Banks", Addis Ababa, August 1975, Impact of Energy Crisis on Trade and Development ofAfrican Countries, P.P. 5-16.

(٤١) محمد عبدالغني سعودي : «الاقتصاد الأفريقي والتجارة الدولية» ، القاهرة ١٩٧٣ .

(٤٢) Africa Magazine. London, Sept. 1975, p. 37.

(٤٣) Ibid., P. 37.

(٤٤) Ibid., P. 36.

(٤٥) Ibid., P. 37.

قضية اللغة

اللغة وسيلة الاتصال والتعبير عن الكيان الذاتي

يرى الباحثون أن وحدة اللغة عنصر هام من عناصر الوحدة القومية، وأنها أكبر عامل يولد في نفوس الناس إرادة الانتظام في أمة واحدة، واذا كان الانسان يتميز عن الحيوان بأنه مدني (اجتماعي) وأنه ناطق (مفكر)، فإن الشعوب تتميز بعضها عن بعض بأن لكل منها لغة خاصة تتكلم بها، فما لا شك فيه أن اللغة هي أقوى رباط معنوى بين الأفراد، وكما قالوا فاللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، ومعنى هذا أن لكل قوم لغتهم. ومتى تفاهم الأفراد بلغة واحدة تقارب تفكيرهم، ونشأ فيهم شعور بالتعاطف، قلما ينشأ مثله بين أفراد يتكلمون لغات مختلفة، وهذا التعاطف عامل عظيم في جعل المتكلمين لغة واحدة يؤلفون أمة واحدة، ولما كانت اللغة هي عماد الثقافة للأمة، والثقافة بالنسبة للأمة هي بمثابة الروح بالنسبة للانسان لذلك يذهب البعض الى أن الأمة ليست ملايين من البشر، يعيشون على نفس الأرض أو يرجعون لأصل واحد فحسب، بل الأمة أيضاً وحدة من الفكر والشعور والارادة والعمل. ومن أجل المشاركة في الفكر والشعور والارادة والعمل، لابد وأن يكون هناك اتصال بين اعضاء الجماعة القومية، ومن ثم كان للغة المشتركة أهميتها وأثرها كأداة فعالة في تشكيل الوحدة القومية، ومن الناحية النظرية يفترض أن العقل البشري يفكر مجرداً ولكنه من الناحية الفعلية يفكر بلغة ما. لذلك فالوحدة التي تتم بين أناس يتكلمون لغة واحدة، لابد أن تكون قوية لأنها تخلق فيهم أرقى أنواع الوحدة وأكثرها ضرورة للانسان، وهي وحدة الفكر، فالصيحة التي نسمعها أحياناً في الدول التي تتعدد فيها اللغات وهي «شعب واحدة ولغة واحدة» ليست شعاراً سياسياً أجوف بأي حال، ويزيد على وحدة الفكر والمشاعر أن اللغة تعتبر الوعاء الذي تتجمع فيه وتختزن خبرات الأمم خلال الأزمنة المختلفة، وإنجازاتها الأدبية، والفنية،

والعلمية ، تختزن فيه آلامها وآمالها ومشاعرها بوجه عام . إن وحدة الفكر والشعور والسلوك هي ما تعطي في النهاية الشخصية القومية .

وقد قام كثير من المحللين بتقدير أثر اللغة على القومية الأوروبية ، فأشاروا مثلاً الى تلك العلاقة المطردة بين التنوع اللغوي في أوروبا بين عامي ١٨٠٠ ، ١٩٣٧ وزيادة عدد الدول الأوروبية المستقلة في نفس تلك الفترة ، وأشارت الدراسات المتعددة الى أثر اللغة الواحدة في تقوية الاحساس بالهوية القومية والولاء ، وكيف أن هؤلاء الذين يتكلمون لغة معينة يحسون أنهم مختلفون عن الجماعات الأخرى .

لذلك كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين ، تعمل الدول المستعمرة جاهدة على قتلها لنشر لغاتها وبث ثقافتها ، لما في ذلك من تأثير كبير في وأد الروح الوطنية أو خلق شعور بالرضى عن أفاعيل الدول الاستعمارية ، وكثيراً ماكان اختلاف اللغة والثقافة عاملاً على نشوب الثورات والحركات الانفصالية سواء في التاريخ القديم أو الحديث ، ففي بلجيكا في وقت ما مثلاً هدد الانقسام اللغوي الى فلمنك Flemish ووالون Walloonوحدة الدولة ، ذلك أن الوالون اللاتينيين كانوا يتجهون في عواطفهم نحو فرنسا ، بينما الفلمنك الألمان يولون وجوههم شطر ألمانيا ، وكانت الغلبة لعنصر الوالون بعد الاستقلال مباشرة ، ولذلك جاهد الفلمنك للمساواة بهم ووصل الفريقان أخيراً الى المساواة معاً ، وخفت مرارة الشعور الذي كان يكنه كل فريق للآخر .

وتعتبر مشكلة الأقلية الألمانية في الالزاس واللورين طريفة من ناحية ، وتعطي مثلاً حياً على أثر اللغة في عملية الدمج والوحدة من ناحية أخرى ، ذلك أن إقليم الالزاس واللورين في فرنسا يقع قرب الحدود الألمانية ، اشتهر بحديده وبوتاسه ، ونظراً لأنه متاخم لألمانيا فقد كان دائماً يتبادله الألمان والفرنسيون تبعاً لميزان القوى بينهما ، واستمر تبادل الاقليم نحو أربع مرات منذ عام ١٨٧٠ ، وبمقتضى معاهدة فرانكفورت عام ١٨٧١ ضمت ألمانيا

الاقليم اليها حتى تضعف من قدرة فرنسا الدفاعية ، وللحصول على حديد اللورين ، وكان هذا من عناصر قوة ألمانيا العسكرية قبل الحرب الأولى ، ولم يرض الفرنسيون عن هذا الوضع نظراً لأنهم وجدوا جيلاً من الألمان بدأ يتكاثر في اقليم يعتبرونه جزءاً من أراضيهم ، ولكنها لم تستطع شيئاً حتى ضمته بعد الحرب الأولى ثم استرجعته ألمانيا بعد غزوها لفرنسا عام ١٩٤٠ ، ثم خرجت ألمانيا مغلوبة في الحرب العالمية الثانية ، وضم الاقليم الى فرنسا .

ماذا تفعل فرنسا أمام الأقلية الألمانية في الاقليم حتى تدمجها في الشعب الفرنسي ؟ اتجه التفكير الأساسي الى اللغة ، فإلغاء الألمانية أو التقليل منها سوف يقلل من ولاء هؤلاء السكان بمضي الزمن لألمانيا ، فكانت الخطة هي السماح للطفل عندما يذهب الى المدرسة ، أن يدرس اللغة الفرنسية في ثلاثة الأعوام الأولى ولا يدرس الألمانية لغة الوطن الأم خلال هذه الفترة ، ثم بعد ذلك يدرس الفرنسية فضلاً عن الألمانية حتى يجيد الفرنسية إجادة تامة ، واذا احتج بعض السكان على هذا على اعتبار أنه تدخل في حرية اللغة فإن المنطق الفرنسي يرد عليهم بأنه مادامت الالزاس واللورين جزءاً من فرنسا فمن صالح أبناء الاقليم اتقان الفرنسية الى جانب الألمانية لأنهم سيعملون في فرنسا(١) .

وكثيراً ماتعترف الدولة بحرية استعمال الأقليات للغاتها وتدريسها في مدارسها ، لا بغرض تشجيعها ، ولكن للخوف من المطالبة بالانفصال عن جسم الدولة اذا منعتها من استعمال هذا الحق . ولنأخذ مثلنا من بلد ألف مليون النسمة أو ربع البشر الذين يعيشون على سطح الأرض ، فتظهر هنا الطرافة حيث يفهم الصينيون بعضهم حين يكتبون وقد لا يفهمون بعضهم حين يتكلمون ، ذلك أنه من المتعارف عليه ان كل لغة في معظم الأحوال لها أصوات تمثلها رموز معينة وهي: Phonetic Written form على عكس الصينية فالرموز تدل على أشياء وأفكار لا أصوات (Sounds) ، من

ثم فقراءة وكتابة اللغة الصينية أكثر صعوبة مما هو في اللغات التي لها أبجدية صوتية، ونعود الى موضوعنا، ونذكر أنه حين نقول اللغة الصينية فليس المقصود بها لغة يتكلمها كل الصينيين، وإنما لغة الغالبية أو الهان Han أي الوطنيين، وهم يمثلون ٩٤٪ من سكان الصين ومن ثم كانت أكبر كتلة متجانسة في الصين سواء في لغتها أو تقاليدها أو ثقافتها، وان كانت هذه بدورها تضم لهجات عديدة بحكم اتساع الصين، أما الستة في المائة الباقية، فهي تمثل أقليات لغوية، واذا كان الحزب الشيوعي الصيني يعترف بأن اللغة هي إحدى أسس القومية، الا أنها في نظره ليست الوحيدة، فهناك الاقليم المشترك والروابط الاقتصادية والنفسية المشتركة، وهذه كلها لا تقل أهمية عن اللغة في تحديد الأقلية القومية. وتحتفظ الحكومة الصينية لنفسها بالحكم النهائي في اعتبار مجموعة ما أقلية قومية أم لا، وبمقتضى هذا القرار تعترف الحكومة الصينية بوجود أربع وخمسين قومية في الصين كل لها لغتها التي تميزها (٢).

وقد قامت سياسة الحزب على الاحتفاظ بشخصية كل قومية، وان تنمو في داخل أطرها الثقافية، وأن تعطي للغة كل قومية أهميتها، ويعزو البعض عمل الدولة والحزب على الحفاظ على هذه الاقليات اللغوية ومساندتها وعدم القضاء على لغاتها الى عدة أسباب أهمها:

(١) ان الاتحاد السوفيتي كان المثل والنموذج الذي حذا الصينيون حذوه وكان هذا هو مدخله أو طريقته في التعامل مع الأقليات غير الروسية.

(٢) استولى الحزب على جميع أراضي الأقليات القومية إما بالقوة أو نتيجة استسلام النخبة فيها عندما وجدوا أن معظم الصين أصبحت خاضعة له، ومن ثم تصبح المقاومة من السذاجة بمكان.

(٣) وقوع معظم أراضي الأقليات على الأطراف وهي عادة مخلخلة السكان، بعيدة عن طرق المواصلات الجيدة، كما تتميز بوعورتها، لذلك وجدت الحكومة أنه من الصعب ممارسة الضغوط في مثل هذه الأقاليم.

(٤) خوف الحكومة الجديدة من تدخل قوى أجنبية، خاصة وان إلغاء اللغات المحلية سوف يثير أناساً هي في أشد الحاجة الى ولائهم في فترة نشأتها.

(٥) اعتقدت الحكومة الصينية بأن وجود أقليات لغوية لن يسبب مشكلات نظراً لأنه لا توجد قومية من هذه القوميات متقدمة تكنولوجياً كما هو الحال عند الهان الصينيين والذين يكونون الغالبية العظمى، فهذه الأقليات سوف تتعلم لغة الهان مع مرور الزمن وذلك لتلحق بركب التقدم والاشتراكية.

وهكذا أقر برنامج الحزب الجديد عام ١٩٤٩ حرية الأقليات في تنمية لغاتها، وذهب دستور الدولة عام ١٩٥٤ الى أبعد من هذا في نصه على أنه يمكن لأقاليم الأقليات استخدام لغة أو أخرى من اللغات الشائعة في تلك الأقاليم لانجاز معاملات الدولة الرسمية، كما يمكن للمحاكم استخدام اللغات المحلية عند نظر القضايا، واصدار الحكم بها، وأقر مؤتمر تعليم الأقليات الصينية المنعقد عام ١٩٥١ بأن تدرس اللغات المكتوبة منها في المرحلتين الابتدائية والثانوية، أما تلك الأقليات التي ليست لها لغات مكتوبة فيجب معاونتها على كتابتها، وأن يكون التعليم فيها باللغة الصينية (الهان) أو باحدى لغات الأقليات القومية، ان وجدت كتب دراسية مكتوبة بها، ووافق أعضاء المؤتمر بالاجماع على ادخال لغة الهان في جميع الفرق الدراسية بمدارس الأقليات طبقاً لاحتياجات ومتطلبات تلك الأقليات (٣). والسبب الرئيسي هو الحفاظ على الأقليات اللغوية دون المطالبة بالانفصال، هذا وقد اعترفت بريطانيا بلغات اسكتلندا وويلز، واعترفت فرنسا بلغة البريتون، وفي أحيان أخرى قد لا تمنح الدولة حرية لغوية للأقليات خوفاً من أن يكون هذا عاملاً مساعداً ومشجعاً على الانفصال، واضعافاً لكيان الأمة، فعلى سبيل المثال، كانت هناك أقلية نمساوية في التيرول تقدر بنحو ٣٠٠ ألف نسمة لم تعطها ايطاليا حرية لغوية. بل غيرت أسماء شوارعها، وأجبرتها على استعمال اللغة الايطالية في المدارس والكنائس،ولم نذهب بعيداً؟ وكانت أمامنا محاولات فرنسا

لفرنسة المغرب العربي بصفة عامة، والجزائر بصفة خاصة، لولا قوة اللغة العربية وصمودها، وكذلك استغلال التفتت اللغوي في بقية القارة الافريقية وفرض لغة كل دولة مستعمرة على شعوب القارة.

ذكرت أمثلتي أخيراً من أوروبا متعمداً، وذلك لنعرف كيف يفعل الأوروبيون بعضهم مع بعض فيما يختص بموضوع اللغة، لأن اللغة ليست مجرد وسيلة أو آلة لترجمة الفكر والاتصال بالغير في افريقية، بل هي أيضاً لتأكيد الذات الافريقية.

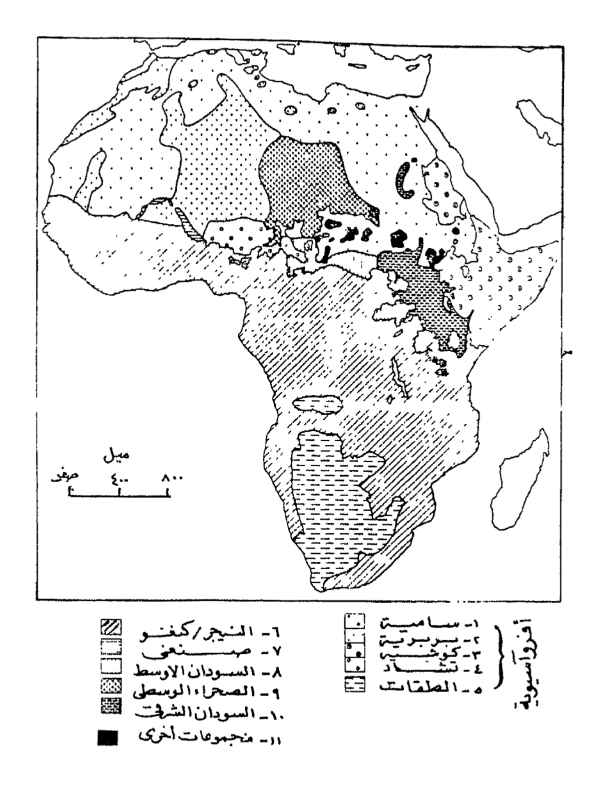
تعدد اللغات الافريقية

عندما حصلت أوغندا على استقلالها كان راديو أوغندا يذيع بست لغات هي الانجليزية واللوجاندا والرونيورو والاتيزو واللو والروتورو.

وفي مارس سنة ١٩٦٧ عندما افتتح الرئيس السابق لأوغندا ندوة عن وسائل الاتصال الجماهيري في شرق افريقية ذكر في خطبته الافتتاحية أنه أضيفت الى اللغات السابقة عشر لغات أخرى ستذيع بها اذاعة أوغندا، ثم أضيفت عدة لغات أخرى في سبتمبر سنة ١٩٦٩ ليصل الرقم الى ثماني عشرة لغة !! وهذه اللغات هي :

الانجليزية	English		
لوجاندا	Luganda	لوسوجا	Lusoga
لانيولي	Lunyole	لوساميا	Lusamaba
سيبي	Sebei	رونيورو	Runyoro
روتورو	Rutoro	رانيا نكوري	Runyan Kore
روكيجا	Rukiga	لوو	Lwo
الاتيزو	Ateso	كاراموجنج	Karamojong
مادي	Madi	كاكوا	Kakwa
لوجبارا	Lugbara	اللور	Alur
كوماني	Comani	هندوستاني	Hindustani

ومع ذلك فقد أعلن الرئيس أوبوتي عام ١٩٦٧ بأن الأربع عشرة لغة التي كان يذاع بها في ذلك الحين لم تكن ضرورية تماماً، وأضاف «ومع ذلك فلكوني في مركز السلطة والحكم فلا بد لي من مراعاة الأحاسيس والمشاعر السياسية Political feelings للسكان ووضعها في الاعتبار عند تشكيل سياسة الدولة.»



شكل رقم (١٩) المجموعات اللغوية في افريقية عن :

D. Stamp. "Africa" A Study in Tropical Development, London, 1965, p. 140.

كل هذا الخليط من اللغات في مساحة من الأرض تبلغ نحو ثلث مليون كيلو متر مربع ، وبعدد من السكان يبلغ نحو ١٠ ملايين نسمة ، فكيف الحال على مستوى القارة بمساحة تزيد عن مساحة أوغندا بنحو ٩٠ مرة وبسكان يبلغون قدر سكان أوغندا سبعا وثلاثين مرة لا شك أنكم تتصورون حجم المشكلة وضخامتها .

وقد أشار الى هذه الحقيقة كل من باسكوم وهرسكوفيت حين يقولان : «تعتبر افريقية من الناحية اللغوية من أشد المناطق تعقيداً في العالم . وربما لا ينافسها في ذلك سوى سكان أمريكا الجنوبية ، ويقدر عدد اللغات في افريقية عادة بثمانمائة لغة ، بينما تقدرها خريطة مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن بنحو ١٥٠٠ لغة فضلاً عن اللغات الأوروبية ، غير أننا اذا ذكرنا أن هناك ألف لغة أو أكثر جنوب الصحراء فليس معنى هذا أن هناك ألف جزيرة لغوية كل منها منعزل عن الآخر، وأن أفراد هذه الجزر لا يستطيعون الاتصال ببعضهم ، ذلك ان ثنائية اللسان ، بل وتعدده كان منتشراً إبان الفترة الاستعمارية ، وربما زاد الآن ، ويرجع هذا الى الرغبة في إيجاد نوع من الاتصال عبر الحواجز اللغوية ، ان كانت هناك رغبة في ايجاد علاقات تجارية وغيرها .

ويزيد على ذلك أن أنماط الاتصال والسياسات التعليمية قد أعيد تنظيمها بواسطة القوى الاستعمارية والدول المستقلة (٥) . فكل دولة استعمارية فرضت لغتها كلغة للادارة وللتعليم وللنخبة من الوطنيين لأكثر من غرض في رأيهم مثل :

(١)تيسير الاتصال بين الادارات الاستعمارية والسكان الوطنيين .

(٢)نقل الحضارة الأوروبية الى السكان الوطنيين ، ومن الطبيعي أن السبب الأول هو الأساسي ، أما الغرض الثاني فهو للدعاية لا أكثر.

ذكرنا أن اللغة عند غالبية الكتّاب ليست بعداً أساسياً للقومية

فحسب، وإنما هي أيضاً مقياس ومعيار دقيق لها، فأين تقع الدولة الافريقية على هذا المقياس؟ وما بالك اذا انتقلنا من الدولة الى القارة؟ يالأسف لابد وأن نقرر بأن اللغة قد تكون نقطة الضعف الكبرى في بناء القومية في الجزء الأكبر من القارة، ذلك أن القارة تضم عدداً لا حصر له من اللغات واللهجات، وأيا ماكان الرقم الدقيق لعدد اللغات في افريقية، فهذا في جملته معناه أن افريقية وحدها تضم نحو نصف لغات العالم قاطبة (٦).

ولو نسبنا هذا الى عدد السكان في القارة، لكان متوسط قوة اللغة الواحدة في افريقية لا يزيد عن ثلث المليون إن لم يقل، وهذا وحده كفيل بأن يكون عقبة في سبيل التماسك والترابط، ولكن لما كان هناك لحسن الحظ لغات واسعة الانتشار عالية القوة كاللغة العربية فإن هناك بالضرورة ولسوء الحظ لغات تقل كثيراً جداً عن هذا المتوسط النظري.

افريقية الجنوبية

ويتكلم السكان في افريقية جنوب خط الاستواء، لغة أو أخرى من ٣٥٠ لغة تنتشر هناك يطلق عليها البانتو (Bantu)(٧)، وهذه المجموعة تدخل ضمن أسرة لغوية واحدة تتشابه جميعاً في مفرداتها وقواعدها، ويظهر أنها كلها مشتقة أصلاً من لغة واحدة سابقة عليها جميعاً يطلق عليها: السابقة للبانتو Proto-Bantu وكلمة البانتو ذاتها معناها الناس. ومن أشهر لغات البانتو لينجالا Lingala وهي اللغة الرئيسة في زائير الآن، وبدأت زائير في اعتبارها لغة رسمية، ويتكلمها أصلاً عدة ملايين من السكان، وهي أصلاً لغة سكان وسط زائير وانتشرت في البلاد بعد أن أدخل البلجيكيون عدداً منهم في الجيش، وانتشروا في البلاد، وانتشرت لغتهم معهم. ومن لغات البانتو أيضاً النجوني (Nagoni) في جنوب شرقي

جمهورية جنوب أفريقية وتضم مجموعة لغات الزولو، والاكسوزا والسوازي، وهناك البمبا التي يتكلمها عدد كبير من سكان زامبيا، وفي غرب افريقية تتعدد اللغات ومن أشهرها اليوروبا لغة سكان جنوب غرب نيجيريا ويتكلمها نحو ١٥ مليون نسمة، ولغة الايبو في جنوب شرقي نيجيريا ويتكلمها نحو ٩ ملايين نسمة، وهناك الماندي بلهجاتها المختلفة من البمبارا والديولا المعروفة في غينيا وما جاورها والولوف في السنغال، والفولاني التي تنتشر من السنغال الى شمال نيجيريا، غير أن أكثر اللغات انتشاراً في غرب افريقية بحيث أصبحت لغة تفاهم مشترك (٨) هي لغة الهوسا.

أما في شرق افريقية فهناك العديد من اللغات كالانكولي والسوكوما والبمبا والتونجا غير أن السواحيلية هي لغة التفاهم المشترك.

واذا عرضنا توزيع اللغات بصورة أخرى يظهر لنا مدى التمزق والتفتت اللغوي، ففي زائير ٤ لغات رئيسية بالاضافة الى مايزيد على ٤٠ لغة فرعية، بينما في تنزانيا أكثر من ١٠٠ لغة ولهجة بين اثني عشر مليوناً من السكان، وفي ليبيريا ٢٠ لغة وطنية بين ١٫٥ مليون. ويتكلمون في غانا ٣٤ لغة بالاضافة الى ١٥ لغة إضافية يتكلمها الأجانب ويزداد التنوع والاختلاف في أكرا (عاصمة غانا) وضواحيها فقد قام الاجتماعيون بعمل مسح لغوي، فوجدوا في ضاحية المدينة ٧٠ لغة يتكلمها ألفا شخص فقط، كما ظهر أن ٦٩٪ من سكان هذه الضاحية يتكلمون بلسانين، ٧٠٪ لديهم كفاءة في لغة أو لغتين (٩).

وتقوم الاذاعة ببث برامجها بالانجليزية، بالاضافة الى بث بعض البرامج كل أسبوع بخمس لغات، وتبلغ نسبة الاذاعة باللغة الانجليزية الى ما يذاع باللغات الأخرى ٣ : ١، وترتفع هذه النسبة الى ١٤ : ١ في الارسال التليفزيوني.

وفي نيجيريا يتراوح تقدير عدد اللغات بين الخمسين ومائة اللغة، وان كان الرقم الحقيقي مازال مجهولاً، وتقوم الاذاعة النيجيرية بالبث باللغة الانجليزية فضلاً عن ثماني عشرة لغة نيجيرية (١٠).

وهكذا لا يوجد في افريقية (جنوب الصحراء الكبرى) دولة واحدة موحدة لغوياً ربما باستثناء الصومال.

غير أن ثمة نقطة بالغة الأهمية، فلشد ما بولغ في تصوير تعدد وتفتت اللغات في افريقية جنوب الصحراء، ولكن الحقيقة الموضوعية هي أن كثيراً جداً مما قد يسمى (بغير دقة) لغة هو مجرد لهجة، ولم يباعد بين الألسنة سوى العزلة الجغرافية والبشرية الطويلة، ولهذا فقد يكون عدد اللغات أقل من هذا بكثير، ومما قد نستشهد به في هذا السبيل سرعة انتشار اللغات المشتركة في أجزاء كبيرة وما انتشارها الا للتقارب في لهجات هذه الأقاليم.

وتتميز هذه اللغات جميعاً بأنها غير مكتوبة باستثناءات تعد على أصابع اليد، فهي تعتمد على الرواية، ومن المعروف في افريقية مثلاً أن العقود الشفهية بين الأفراد لها قوة الغقود المكتوبة في المجتمعات الأخرى، ولذلك اعتمد التراث في جزء كبير منه على ما يتناقله الرواة من جيل الى جيل لأنه غير مكتوب. وتقع مسئولية هذا العمل على أناس معدودين في القبيلة، وهم من كبار السن عادة ويعرفون عند الماندنج مثلاً باسم Griots (١١). ولما كان التراث السابق غير مكتوب، يصبح الخطر الكبير الآن في أفريقية المعاصرة واضحاً للغاية حيث التطورات السريعة من جانب، ووفاة هؤلاء الكبار من جانب آخر. وكما قال G. Vielliard وهو مؤرخ وباحث اجتماعي في المعهد الفرنسي لافريقية السوداء «عندما يتوفى رجل مسن في أفريقية فعنى هذا احتراق مكتبة كاملة».

ورغم أنها غير مكتوبة في معظمها (١٢)، فإن هذا التراث الشفهي

غني بأنواعه، فعلى سبيل المثال يمكن تمييز سبعة ضروب منه لدى شعب اليوريا في غربي نيجيريا وهي الأساطير، والقصص، والفوازير، والأمثال، والحكم والأغاني والتعاويذ والدوبيت Couplets التي تصاحب الاحتفالات الدينية.

ويكن الناس احتراما خاصا لهؤلاء الذين يحفظون الامثلة ويستعملونها في الوقت المناسب، اما القصص والاساطير فعادة ما تحكي في الليالي المقمرة كما يحدث عند الايبو في جنوب شرق نيجيريا والتي غالبا ما يكون فيها بطل القصة السلحفاة الذكية وعدوها الفهد. كما أن هذه اللغات غنية بالأشعار التي تنشد في المناسبات المختلفة، وأهمها المناسبات الاجتماعية كالزواج، وولادة الأطفال، والدفن، وعادة ما يصحب إنشاد الاشعار على الموسيقا الرقصات الخاصة بكل مناسبة.

ورغم أن هذه اللغات غير مكتوبة، فهي غنية بمفرداتها، ففي لغة الايبو في جنوب شرق نيجيريا، هناك أربعة أفعال Verbs بمعنى «يأكل» يتوقف استعمال كل منها على نوع الطعام، وهناك ٢٠ كلمة تصف سير الانسان.

لغات التفاهم المشترك او لغات التعامل

(أ) السواحيلي

احدى اللغات الرئيسية في العالم، أو أحدى اللغات المليونية، واللفظ السواحيلي مشتق من اللفظ العربي السواحل جمع ساحل، ومعناها هنا سكان السواحل، ويقصد بها السواحل الشرقية لافريقية ويستخدم اللفظ عامه لكل سكان هذه السواحل، وهم خليط من الافريقيين والعرب والايرانيين. ويرجع هذا الى موقع هذا الجزء مطلا على المحيط الهندي ومقابلا للسواحل الجنوبية لشبه جزيرة العرب والخليج العربي. وبالتالي نشاط الاتصالات بين الجانبين نتيجة تضافر الظروف الجغرافية في هذه

المنطقة من المحيط الهندي. من ثم كانت السواحيلية هي لغة من لغات البانتو الافريقية، ولكنها استعارت كثيراً من ألفاظ اللغات الاخرى وأهمها العربية والفارسية. وترجع اهميتها كلغة افريقية الى انها أهم لغات شرق افريقية إذ يتكلمها اكثر من مليون نسمة كلغة أم، فضلا عما يزيد على اثنى عشر مليونا آخرين يتكلمونها كلغة ثانية الى جانب لغاتهم الاصلية، وازدادت أهميتها بعد الاستقلال، حيث أصبحت اللغة الرسمية الحكومية لتنزانيا وكينيا، ويمتد توزيعها الجغرافي ليشمل رواندا و بوروندي Rwanda , Burundi وحتى شرق زائير اما على الساحل فتمتد من جنوب الصومال الى شمال موزمبيق. ويمكن أن نضيف أيضا أنها تفهم في موانى البحر الاحمر الجنوبية، وعلى طول سواحل شبه جزيرة العرب وعمان. لهذا الانتشار الواسع كانت السواحيلية هي اللغة التي اتفقت حكومتا كينيا وتنزانيا على أن تكون اللغة الرسمية الوطنية البديلة للغة الانجليزية بعد خروج بريطانيا، وتستعمل كلغة للتدريس في كل مدارس تنزانيا، ولها مناهجها في جامعات كينيا وأوغندا.

و يبدو أن السواحيلية بأشكالها ولهجاتها المعروفة الان بدأت في الظهور منذ القرن الثالث عشر الميلادي. وأخذت بعد ذلك نحو قرنين لتصبح وسيله التفاهم الرئيسية في هذه المساحة الضخمة من القارة، على العموم يرجع أقدم مخطوط سواحيلي الى عام ١٧٢٤م، ولكن من المعروف أن الأعمال الموجودة في هذه المخطوطة ليس من اللازم ان تكون قد ألفت في ذلك التاريخ، أو انتقلت من الاصل العربي الذي سبق ان كتبت به قبل ذلك. و يقسم الباحثون الادب السواحيلي الى ادب شفهي وأدب مكتوب، ويحتل الادب الديني الجزء الاكبر سواء في الادب الشفهي أو المكتوب، وحتى الكتابات غير الدينية نجد عليها المسحة الاسلامية، و يركز الفلكلور على القصص التي تبرز فيها اعمال البطولة المستمدة من الاساطير القديمة، وأحيانا تكون الحيوانات أبطال هذه القصص مثل الأسد والضبع والعنكبوت

والحية والتنين، وكما هي العادة في القصص العربي الاسلامي اذا كان بطل القصة إنسانا فهو في معظم الاحيان مسلم، كما يضم هذا القصص كثيراً من الروايات المقتبسة من قصص السندباد(١٣).

ومن الواضح أن طبقة التجار في المدن الساحلية كانوا أصحاب الفضل في إدخال كثير من الالفاظ العربية بل والثقافة العربية في الثقافة السواحيلية، لذلك كان الاقتراض من الافكار العربية والاسلوب العربي يظهر أوضح ما يكون في الفلكلور السواحيلي الذي ينتشر في الحضر حتى ولو كان الأصل غير عربي مثل قصة (الرجل الذي يعرف لغة الحيوان)، فيحكى أن رجلا كان له ثور وحمار، وكان الثور يعمل في الحقل على الدوام و يشقى كثيرا، بينما لم تكن مهمة الحمار سوى حمل الرجل، فاشتكى الثور للحمار من التعب الذي يعانيه، فنصحه الحمار بالتمارض، ولما كان صاحبهما يعرف لغة الحيوان، فقد أخذ يضحك و يقهقه، وجاءت زوجته على قهقهته، وأرادت معرفة سر ضحكه باصرار، فلما كثرت أسئلتها وازداد الحاحها ضربها زوجها ونهرها بشدة كيلا تتدخل في شئونه مرة أخرى.

ومن الواضح ان هذه القصة ليست افريقية الأصل لان الثور لا يستخدم في الاعمال الزراعية لدى شعب شرق افريقية وانما الذي يقوم بالعمل الزراعي هو المرأة الافريقية مستخدمة المعزقة وهذه القصة مأخوذة عن أصل هندي.

على العموم يمكن تمييز ثلاثة أنماط من القصص السواحيلي وان كانت الحدود بينها ليست واضحة. وتتكون المجموعة الأولى من قصص تنتمي لاصل بانتوي (افريقي) وغالبا ما تركز على الحيوان مثل قصة القرد والسلحفاة، والسنجورا والضبع والاسد و يظهر في المجموعة الثانية الحبكة القصصية العربية ولكنها مليئة بتفاصيل يمكن ارجاعها الى التراث الافريقي مثل قصص «اللصوص الاذكياء» و«السلطان المجنون» و «الصياد والروح الشريرة»، اما المجموعة الثالثة فهي معروفة ومنتشرة في

الاوساط العربية مثل القصص الديني الذي يدور حول سيرة الانبياء، وقصة الخلق، والقصص المرتبط بسكان الحضر مثل قصة «السلطان والصياد»، «محمد والسبعة لصوص»، وهذا النوع الاخير صارت جذوره عميقة في الادب الروائي السواحيلي، بل ان الادب الحديث اصبح يستقى مادته من هذه الموضوعات القديمة، فالاديب السواحيلي المعاصر شعبان روبرت كتب قصة «عديلي واخواته» معتمداً على قصة «عبد الله بن فضل» احدى قصص الف ليلة وليلة.

كذلك تعرف السواحيلية الشعر والملاحم الادبية، ولعل الشعر هو أكثر الضروب الادبية دراسة في الادب السواحيلي، اذ نشرت فيه دراسات عديدة، ويتضح فيه الاثر العربي والاسلامي، ويحمل بحران من بحوره الأربعة أسماء عربيه وهي المشارى والرباعي، اما البحران الآخران فأسماؤهما سواحيلية وهما نيمبو Nyimbo أي الاغاني، والتنزي Tenzi ويعتبر النيمبو أو شعر الاغاني حقلاً جيدا سواء لدارسي الادب الشفهي للسواحيلية او للانثروبولوجيين، بينما شعر التنزي أكثر الاشعار انتشارا أو تعبيرا لدى السواحيليين هو شعر القصائد الدينية التي قد تبلغ في بعض الأحيان مئات الأبيات، ويتضمن عادة المواعظ والعبر (١٤).

اما الشعر السياسي والذي يطلق عليه المشارى فمجاله المناقشات والمجادلات ومن أشهر شعراء المشارى الشاعر الوطني مويكا بن الحاج غاسريني (١٧٧٦ـ١٨٤٠) ومن الشعراء والكتاب الاكثر حداثة شعبان روبرت الذي يكتب في السير الذاتية وقصص الاطفال، ومنهم أيضا الشيخ كالوتا عمري عبيدي وفي تاريخنا المعاصر نذكر كتابا يعتبرون أعلاما في الادب السواحيلي مثل احمد ناصر الذي حاز جائزة كينياتا في الادب لعام ١٩٧٢ وابراهيم حسين الذي كتب كثيرا من التمثيليات، ولا ننسى أن

الرئيس نيريري قد ترجم بعضا من روايات شكسبير الى السواحيلية .

وقد استعملت السواحيلية الحروف العربية في كتابتها أول الامر، ورغم استعـمـال الحروف اللاتينية في كتابتها الان فان الالفاظ العربية واضحة فيها مثل :

Adabu = الاخلاق
Afya = صحة ــ عافية
Arobini = اربعين
Baluri = بلور
Dawa = دواء
Adhuri = الظهر
Askari = عسكري
Baada = بعد
Bata = بطة
Chai = شاي
Edashra = احدى عشر
Farasi = فرس
Hadithi = قصة
Ja = أتــى ــ جــاء
Juma = جـمـعـة
Kahowa = قـهـوة
Kata = قـطـع
Kitabu = كـتـاب
Lazima = ضروري ــ لازم
Maana = معنى
Labika = لبيك

Adui = عدوى
Alfagiri = الفجر
Asali = عمل
Boustani = بستاني
Elfu = ألف
Ama = أما
Asubuhi = الصبح
Baadi = بعدى
Bila = بدون (بلا)
Dakika = دقيقة
Faida = فائدة
Ghali = غالى (مرتفع السعر)
Hakika = حقيقة
Jaribu = جرب
Kablaya = قبلي
Kalamu = قلم
Kingereza = انجليزي
Laini = لين ــ ناعم
Lugha = لغة
Safari = رحلة
Salamu = سلام

ويظهر اثر اللغة العربية ايضا في شخصيات القصص السواحيلي مثل السلطان، البدوي الوزير، التاجر، السقا، بل أخذت بعض الكلمات السواحيلية تحل محلها كلمات عربية مثل «بدلا من» «موتا موجا».

(ب) الهوســـا

والهوسا من ناحية الأصل هي اسم لغة قبل أن تكون اسم قبيلة أو جماعة معينة، ثم أصبحت بعد ذلك علما على معظم سكان شمال نيجيريا وما جاورها من النيجر.

ومع ذلك لا يمكن فهم الانتشار الواسع للغة الهوسا في غرب افريقية الا بفهم طبيعة الهوسا أنفسهم. فهم يعيشون على الزراعة المعتمدة على المطر في المكان الاول. ولما كان هناك فصل جفاف طويل، فقد اتجه كثير منهم في هذا الفصل الى حرفة التجارة، وقطعوا نتيجة لذلك مسافات طويلة حتى بلغوا سواحل غرب افريقية فتجدهم في غانا كما تجدهم في داهومى وساحل العاج وغيرها، يعيشون كجماعات خاصة في أحياء خاصة بهم يطلق عليها سابونجاري Sabongari في ايبادن في جنوبي نيجيريا. وتخصصوا في تجارة سلع معينة كثمار الكولا وتجارة الماشية، ومن هنا انتشرت لغتهم معهم أينما ساروا، ولغتهم من أهم لغات غرب افريقية بعامة، فهي اللغة الأم لما يتراوح بين ١٥، ٢٠ مليون نسمة بالاضافة إلى ١٥ مليونا آخرين ليسوا من الهوسا، ومع ذلك يتكلمونها رغبة من الادارة الاستعمارية في تنميتها كلغة تفاهم مشترك لكل الاقليم الشمالي من نيجيريا. وقد ترجمت هذه الرغبة الى سياسة رسمية لهذا الجزء من البلاد، فقد جاء في التقرير السنوي عن التعليم لعام ١٩٣٤ بأن لغة التعليم هي الهوسا في معظم القسم الشمالي، وحيثما كانت هناك لغة أخرى يبدأ بها، فان الهوسا أيضا يبدأ تعليمها كلغة، ولا تلبث ان تصبح لغة التعليم قبل نهاية العام، والمحصلة النهائية اليوم أن الهوسا أصبحت تنتشر انتشارا واسعا

في أكثر من نصف مساحة نيجيريا، وفي كل الولايات الشمالية كانت هي اللغة الرسمية الى جوار اللغة الانجليزية حتى عام ١٩٦٦، بل والظاهرة اللغوية هناك هي ذلك العدد الكبير من غير النيجيريين الذين يتكلمونها بطلاقة، فعليهم ان يجيدوها حتى يصبح في إمكانهم العيش اقتصاديا واجتماعيا في ذلك المحيط، هذا بينما لا توجد لغة في الجنوب لا يتكلمها غير النيجيريين.

ولا يمكن لاي لغة من لغات جنوب نيجيريا أن تحتل نفس المكانة التي للهوسا في الشمال ويرجع هذا الى أن الشمال كان يعتنق الاسلام قبل ظهور الاوروبيين، وبطبيعة الحال لم يكن هناك مجال أمام البعثات التبشيرية لتعمل في الشمال (١٥).

ولغة الهوسا غنية بالتراث غير المكتوب، أي بالتراث المحفوظ، فهناك قصص الحيوان والاساطير العديدة التي تعطي تفسيرا لكثير من الأحداث التاريخية. أما الهوسا المكتوبة فقد بدأت منذ نحو قرنين مستعملة الحروف العربية، ويطلق على هذا النوع أعجمي Sabongari كما في كتابات وروايات الحاج أبو بكر امام. وهذه تميز عن الهوسا التي كتبت بالحروف اللاتينية والتي استعملها بعض الكتاب المحدثين ويطلق عليها بوكو Boko وتعرف لغة الهوسا شعر «واكا» ويطلق هذا اللفظ ايضا على الاغاني وعادة ما يتغنى بالشعر، فهذا أمر من تقاليد الهوسا، وتتعدد أبواب الشعر من المدح «يابو» لمن يجزل العطاء أو الشعر الهزل (Zambo) وقد يكون خاصا بالصيد او الزراعة أو حتى الشعر السياسي.

ويستعمل المنشد بعض الآلات الموسيقية التي تصاحب الغناء كالطبل والربابة (الكمان)، والتأثيرات الثقافية على الهوسا ولغتهم من جانب اللغة العربية والاسلام كبيرة للغاية، وينعكس هذا بصورة خاصة في اللغة، ذلك ان اللغة العربية هي لغة القرآن ولغة الاسلام الذي يدين به الهوسا

جميعا و يتضح هذا في بعض الالفاظ مثل :

العدل = Adali	العادة = Alada
علامة = Alama	الخميس = Alhamis
الله = Alla	التاجر = Altajiri
البشير = Albashiri	الف = Alif
اربعين = Arbain	خمسون = Hamsin
خسارة = Hosara	ان شاء الله = In Shaalla
الجمعة = Jumaa	صب = Zube

افريقية الشمالية

ويختلف الحال في افريقية الشمالية فهنا نجد اكثر اللغات انتشارا في القارة بصورة عامة اللغة العربية، حيث تكاد تغطي اللغة العربية كل افريقية الشمالية ومساحة ضخمة من الصحراء الكبرى حتى اقليم السفانا Savanna ، وتصل بذلك الى منحنى نهر النيجر والى نهر السنغال، وبذلك يتكلمها ما يقرب من مائة مليون نسمة أو نحو ثلث سكان القارة الذين يسكنون ثلث مساحتها، بينما تنتشر بقية اللغات التي ذكرناها في الثلثين الآخرين، وفي هذا النطاق لا نجد لكل وحدة سياسية لغة قومية، وإنما فرشة لغوية واحدة تغطي هذه المساحة. واللغة العربية هي إحدى اللغات السامية التي انتشرت في شبه جزيرة العرب، وكذلك على الجانب المقابل من افريقية، فالامهرية والتجرينية في اثيوبيا هي من مجموعة اللغات السامية، ويبدو ان اللغة المصرية القديمة قد انطبعت بدورها بالطابع السامي منذ زمن قديم جدا وكان هذا نتيجة هجرات قديمة بحكم الجوار، ومن ثم يمكن القول بأن اللغات السامية ومنها العربية كانت افريقية تعرفها قبل الاسلام، وان كان الانتشار الواسع لها قد تم بعد ظهور الاسلام في القارة.

فن الاخطاء التي سارت زمنا ان دخول العرب افريقية يرجع الى فترة

الفتح العربي الاسلامي على يد عقبة بن نافع فحسب، بل حدثت موجة في اوائل النصف الثاني من القرن السابع الميلادي كان معظمها من الخوارج الذين هزمهم علي بن ابي طالب فهربوا الى تونس ولا تزال سلالتهم الى الان في جزيرة جربا وفي الواحات الجنوبية، اما موجة الفتح العربي فكان لها اثر اكبر في نشر اللغة العربية والاسلام، فقد جاست جيوش العرب البلاد من الشرق الى الغرب الى ان تم الاستيلاء عليها وطرد الرومان وكانت الجيوش العربية تتألف من الرجال دون النساء، فلما استقروا تزوجوا من نساء البربر، ونشروا العربية والاسلام، وكانت عاصمتهم في القيروان التي أسسها عقبة بن نافع عام ٧٦٠م ، كما كان لوالي المغرب خليفة في طنجة.

وكانت الموجة الاخيرة والكبرى هي موجة بني هلال وبني سليم في القرن الحادي عشر (١٠٤٥م) حين سمح الخليفة المستنصر لهذه القبائل بأن تتخذ طريقها الى بلاد المغرب انتقاما من قبائل صنهاجة، لانها خطبت باسم الخليفة العباسي، ووصل بنو هلال حتى الصحراء الغربية (ريود ورو) ومنهم من احتل سهول الاطلنطي في المغرب، ومن احتل المناطق الداخلية من فاس الى مراكش، وهكذا انتشرت العربية والاسلام واصبح كثير من المساجد جامعات اسلامية، كما في فاس وتونس والقيروان (١٦).

وهكذا كانت الوحدة اللغوية هي نواة فكرة الوحدة العربية. ويرجع انتشارها الى الانتشار العربي في القارة وكذلك انتشار الدين الاسلامي، فهي لغة الدين أيضا، من ثم نجد المسلمين الذين لا يتكلمون العربية يرددون القرآن باللغة العربية في عبادتهم، وفي الغالب يعرفون العربية الى جانب لغتهم الاصلية كما هو الحال عند قبائل البجا في شرق السودان وشمال شرقي اثيوبيا وعند بربر الجزائر والمغرب، وهي لغة أساسية في الصومال يتعلمها طلبة المدارس الى جانب الصومالية، واذا كانت افريقية العربية وحدة لغوية متجانسة فليس معنى هذا انها تخلو تماما من

الاقليات اللغوية، ولكن هذه الاقليات اللغوية ضئيلة من ناحية العدد، هامشية من ناحية التوزيع فهي على الأطراف أو الجزر، تراجعت أمام العربية كالبربرية التي تظهر أحيانا في واحات الصحراء أو جزيرة جربة في تونس أو في السفوح المرتفعة كما في جبال أوراس والقبائل.

و يتكلم البربرية في تونس ١٪ من مجموع السكان، وتصل نسبتهم في الجزائر الى ١٥٪ ترتفع في المغرب الى ٢٠٪ فضلا عن أن هناك ١٤٪ يتكلمون العربية والبربرية، ومن الدول الواقعة على أطراف الصحراء والتي تعتبر فيها العربية أكثر اللغات الوطنية انتشارا موريتانيا وتشاد، فانتشارها في موريتانيا لا يقل عن انتشارها في المملكة المغربية، ذلك أن اللهجات البربرية المختلفة هي وسيلة التعامل المحلية عند حوالي ثلث سكان موريتانيا، بينما الغالبية تستخدم العربية بل إن نصف بربر موريتانيا يمكنهم التعامل في أمور الحياة العامة باللغة العربية، ونفس هذا الموقف يتكرر في كل المنطقة الممتدة من السنغال ومالي إلى تشاد، وأهم تجمع بشري في هذه المنطقة يتعامل باللغة العربية في تشاد حيث تعتبر اللغة العربية هي اللغة الأم لنحو ٦٠٪ من السكان، بينما لا يزيد نصيب اللغات الأخرى مجتمعه على ٤٠٪ من سكان البلاد (١٧).

وعدا البربرية على حدود المغرب الكبير توجد أقليات لغوية اخرى كالطوارق (لغة تفناغ) الذين يبلغون بضع عشرات من الالاف على حدود الجزائر وليبيا الجنوبية، كما تعيش جماعات التبو على حدود ليبيا الجنوبية، وتنتشر اللغة النيلوتية Nilotic في السودان الجنوبي.

وقد لعب الاستعمار دورا خطيرا في منع تسرب اللغة العربية كما حدث في السودان الجنوبي حيث منع هجرة العرب وحركة التجارة نحو الجنوب، وبذلك وقف سدا أمام انتشار العربية تمهيدا من وجهة نظره للتفتيت على اعتبار أن اللغة ركن أساسي من أركان القومية،وأحيانا يوصى بأن اللغة العربية لا تصلح كلغة علم، وان لغة العلم والحضارة هي اللغات

الاوربية لان اللغة العربية لن تسعف في الفاظها وبالتالي اذا أرادت الدول الافريقية (التي لايتكلم سكانها العربية) لغة رسمية لها فخير لها أن تستعير لغة اوروبية، ولكن نود أن نتساءل من أين استمدت الحضارة الاوربية الحديثة جذورها وغذاءها الأول الذي به وعليه نمت وتطورت الى شكلها الحالي؟ وعن أي طريق عرف الغرب الفكر الافريقي وحضارة الهند وفارس؟ إن هذه لم تنقل اليهم الا عن طريق العربية، ولم يكن العرب نقلة حضارة فحسب بل اضافوا الكثير، ويكفي ان لوغاريتهم في علم الجبر هو نسبة الى الخوارزمي، كما يكفي ان نشير الى الحسن بن الهيثم في الطبيعة وجابر بن حيان في الكيمياء وغيرهما. وهكذا تنتفي فكرة ان اللغة العربية لا تصلح لغة للعلم.

وقد اثرت اللغة العربية في اللغات الاوروبية فكلمة Algebra هي الجبر بالعربية بل وتعدى ذلك الى بعض الاسماء مثل Andrew فهي إدريس بالعربية و(Joseph) هي يوسف، و(Jacob) هي يعقوب، وهذه بدورها اصابها تعديل في لغة الهوسا فأصبحت(Yakubu) وقد سبق عند الكلام عن اللغة العربية أن رأينا كيف أن بعض اللغات الافريقية قد تأثرت بها. وأخيرا يمكن ان نختتم الكلام عن اللغة العربية بالاستعانة بما قاله واحد من أهم من عكفوا على دراسة اللغات الافريقية وهو جوزيف جرينبرج، عن أثر كل من اللغة العربية واللغات الأوربية في لغات افريقية جنوب الصحراء، فيقول: إن الأثر الاسلامي استمر يلعب دوره مدة طويلة من غير انقطاع، بحيث صاغ الى حد كبير أنماط الحضارة عند الشعوب الزنجية في السودان بأسره وفي الكثير من أجزاء افريقية الشرقية حتى انه تغلغل في جهات أخرى تقع جنوب هذه الاقاليم، وقد انعكس هذا في كلمات مستعارة كثيرة من أصل عربي حتى بين الشعوب غير الإسلامية والسؤال الان: كيف انعكس أثر الاوروبيين في اللغة وهم الذين احتكوا بالافريقيين في القرون الاخيرة؟

على الارجح هو أثر صغير اذا ماقورن بأثر اللغة العربية (١٨). ولا ننسى ايضا ان اللغة العربية تجمع بين الصفتين اللتين قسم اليهما الباحثون لغات العالم وهما: ما يعد لغة قومية National Language وما يعد لغة ثقافية Cultural Language

النوع الاول تختص به شعوب معينة كاللغة السويدية او النرويجية او الرومانية، ومعظم لغات العالم من هذا النوع. والنوع الثاني يتميز بكثرة ماألف به من المعارف الانسانية مما يغري الاخرين بتعلمها واللغة العربية من هذا النوع.

الرجوع الى الشخصية الافريقية
وضرورة التوحيد اللغوي

الشخصية الافريقية عبارة أخاذة نطق بها دكتور كوامي نكروما رئيس غانا في اجتماع مؤتمر كل الشعوب الافريقية. All African people's conference المنعقد في ديسمبر سنة ١٩٥٨، وكانت لاشك لها معنى ومغزى كبير، فقد كانت جدران قاعة ذلك المؤتمر في أكرا تضم كل افريقية باستثناء غامبيا والسودان. جلس مندوبو الشعوب الافريقية ينصتون وينتظرون مايوحد بين شعوبهم، وعندما هز التصفيق جدران قاعة المؤتمر أحس المجتمعون بشعور جياش وقد غمرهم إحساس بالكثير الذي يشتركون فيه، وهو الشخصية الافريقية وهي شيء كان يعبر عن آمالهم جميعا وعن متاعبهم ومشاكلهم وعن غضبهم من ظلم العالم الخارجي.

ويقول Ezekiel Mphahlele ذلك الشاب الذي كان يعمل معلما في جنوب افريقية ونفي الى خارج البلاد هو ومائتا معلم لاحتجاجهم على سياسة تعليم البانتو في اثناء لجان المناقشة، كنا نقترب من بعض اكثر فاكثر في محاولة ليفهم كل منا مشكلات الاخر، وقد وجدنا في

هذا عامل توحيد بيننا، وقد تردد صدى الرغبة في الحرية التي اعلنها كوامي نكروما، ابتغاء الاستقلال السياسي، واخترف كل الحواجز الثقافية والعرفية وغيرها من عوامل الفرقة، وخرج المؤتمرون بحماس شديد وطموح كبير، ومنذ ذلك الوقت أصبحت فكرة الشخصية الافريقية شبيهة بأسطورة لها جلالها وعظمتها.

ولكن اذا ناقشنا مفهوم الحرية لدى الشعوب الافريقية المتعددة التي حضرت المؤتمر من نيجيريا وغانا وسيراليون وأوغندا وروديسيا الشمالية، (زامبيا) فان الامر يختلف، ففي نياسا لاند (ملاوي) لم تكن هناك مشكلة المستوطنين، اذ لم تتعد المساحة المخصصة للبيض فيها ٤٪ من مساحة البلاد، وكذلك الحال في روديسيا الشمالية حيث لم يحتل المستوطنون سوى ٢ر٥٪ من مساحة البلاد، أما في كينيا وتنجانيقا (تنزانيا) وروديسيا الجنوبية حيث المجتمعات المتعددة، وحيث تريد كل جماعة أن تكون ممثلة في الحكومة بحجم مناسب، فيصبح من غير المعقول طرد الهنود أو الأوروبيين أو بمعنى آخر طرد الجاليات الوافدة أو اذلالها، من ثم حين يطالب سكان غرب افريقية بالحرية فهم يعنون بذلك الاستقلال وقيام حكومة افريقية، ولكنها بالنسبة لبعض الاحزاب في كينيا حينذاك كان مفهومها قيام حكومات الاغلبية، أي حكومة يتولاها الافارقة لا المستوطنون البيض وبالنسبة لبعض الأحزاب الاخرى في كينيا تعني الحرية السياسية لجميع العناصر العرقية، واقامة حكومة أغلبية، وذلك على أمل أن تكون الحكومة في النهاية غالبيتها من الافريقيين لانهم يمثلون الاغلبية ومن ثم تكون حكومة غير عرقية،وتعني الحرية في جنوب افريقية شيئا اخر وهو قيام حياة غير عنصرية أساسها مجتمع خال من التميز العنصري يتم فيه الانتخاب على أساس صوت واحد لرجل واحد سواء كان أبيض أو أسود وتمتزج في ذلك المجتمع جميع الفئات بحيث لايصبح هناك مجال للكلام عن الاقليات. (١٩)

وهكذا فالقاسم المشترك الأعظم بين الاقطار الافريقية أنها كانت في مرحلة

التحرير وحاولت الاستقلال، ونجحت في طرد الاستعمار، وسعت الى تصفيته لدرجة أن هناك اتفاقا عريضاً بين الكتاب على أن أساس حركة القومية الافريقية هي رد الفعل والوعي بالذات ضد الاستعمار الأبيض، يشترك في هذا الكتاب الافريقيون والأجانب، فالزعيم الافريقي سيتولى Sithole يقول بأن افريقية تدين بروح الوطن أو الروح القومي للاستعمار الأوروبي «فهو الذي عبأ الشعور وخلق الوعي بالذات بين الافريقين وجمع بين شتاتهم القبلى تحت هدف واحد» (٢٠). وفي الحقيقة كان مجرد الوجود الأوروبي هو أول مفجر للقومية الافريقية، وكقاعدة عامة فإن الوعي بالذات و بالجماعة لا يبدأ جديا الا حين تجد الجماعة نفسها فجأة وجها لوجه أمام جماعة أجنبية مختلفة كل الاختلاف، والمقاومات المبكرة سجلها تاريخ القارة لبعض القبائل في داهومي في التسعينات وفي روديسيا في التسعينات أيضا تحت قيادة الميتابيلي.Mitabele

وليس هذا عيبا على أية حال، يقرر الجغرافي البريطاني سيرهالفورد ماكيندر Sir Halford Mackinder (٢١) « انه لم ينقل أوروبا الوسيطة من مرحلة القبائل الى الشعوب. ولم يخلق الشعور بالقومية والوعي بالذات الا الاخطار الخارجية الثلاثة التي أحدقت بشبة جزيرة أوروبا، التتار، من الشرق والفايكنج من الغرب والعرب من الجنوب. »

يقول الجغرافي الامريكي كمبل Kimble «ان معاداة الاستعمار لا تمثل في ذاتها أساسا لبناء دولة وطنية، بل إن اقامة مثل هذه الدولة يزيل مباشرة الأساس الذي أقيمت عليه» (٢٢).

ان ما كانت تسعى اليه الدول الافريقية قبل التحرر هو رد الاعتبار السياسي والاقتصادي والثقافي واذا كان رد الاعتبار السياسي قد تحقق فلن يقل عنه أهمية رد الاعتبار الاقتصادي والثقافي، أو بعبارة أخرى إزالة الصبغة الأوروبية والعودة الى اللون الأصلي وتأكيد الشخصية الافريقية والكيان الذاتي أو اعادة افرقة افريقية.

ولعل من أبرز مظاهر السعي الى إعادة الصبغة الافريقية من الناحية الثقافية البحث في التواريخ القومية وإعادة كتابة التاريخ الافريقي بأيدي الافريقيين، وفي اللجنة العلمية الدولية التي تم تشكيلها في عام ١٩٧١ تحت اشراف اليونسكو اتفق الأعضاء على اصدار ثمانية مجلدات عن تاريخ افريقية العام، وكان فيها المؤرخون الافريقيون الذين يشكلون ثلثي أعضاء اللجنة البالغ عددهم ٣٠ عضواً، كما رشحت اللجنة ثمانية من العلماء والمؤرخين الافريقيين كمحررين للمجلدات حتى ينظر الى هذا التاريخ من الداخل.

بمعنى ان هذا التاريخ سيكون الى حد كبير تعبيرا عن تقدير الباحثين الافريقيين لحضارتهم، وبذلك يمكن الكشف عن الوجه الحقيقي لافريقية، كذلك كان تأكيد الشخصية الافريقية بمجابهة عقدة اللون بالفخر والاعتزاز، لدرجة أن مهرجان الفنون والثقافة الافريقية الذي عقد بداكار أطلق عليه مهرجان الفنون والثقافة للسود في افريقية والعالم:

Black and African Festival of Arts and Culture

تأكيدا على السواد، وأنه ليس مما يجلب العار. ويمكن أن نضيف الى هذا في إعادة الشخصية الافريقية زوال لغة المستعمر والبحث عن لغة أو لغات إفريقية.

لقد كانت القارة تتطلع الى الخارج أكثر من الداخل في السياسة كما في الاقتصاد وكذلك في الثقافة، وكان الاستعمار يقوم بتوجيهها لحسابه، و يغلقها عن العالم الخارجي، وكان العالم الخارجي بالنسبة لها هو الدولة المستعمرة الام كما قد يقولون، وان كانت أما غير شرعية !! والواقع ان تطور القارة أخذ في التاريخ خطا عكسيا فمعظم الدول في القارات بدأت علاقتها المكانية أولا فيما بينها، ثم بعد أن ترابطت خرجت الى مرحلة أوسع، على عكس الوحدات الافريقية التي أعطت ظهرها بعضها للبعض الآخر، وولت وجهها شطر بريطانيا وفرنسا واسبانيا و بلجيكا والبرتغال .. الخ.

الاستعمار الثقافي:

إن كان هذا صحيحا سياسياً واقتصادياً، فقد كان أكثر صحة ووقعا من الناحية الثقافية بعامة، واللغوية بخاصة، فقد ظهر أن الدولة الاستعمارية حين تضع يدها على إقليم من الأقاليم يكون من أول أهدافها نشر لغتها عن طريق جعلها لغة الادارة الاستعمارية، وجعل لغته هي لغة الاقليم الجديد ليحصل على بعض الكتبة وصغار الموظفين لمعاونة كبار الموظفين من الأجانب، واعتمد في هذا على البعثات التبشيرية، فالتعليم في أنجولا مثلا الذي كانت تقوم به هذه البعثات وعرف باسم Ensino de adaptacao يقضي باعطاء برنامج اولى مدته ثلاث سنوات في اللغات البرتغالية، والطريف ان البرتغاليين في تقسيمهم لسكان المستعمرات كانوا يقسمونهم الى وطنيين Indigna في طرف والبرتغاليين في طرف آخر، والى فريق ثالث من الوطنيين وسط بينهما أطلقوا عليهم المندمجين Assimilado وهم الوطنيون الذين يمكن أن يصبحوا مواطنين برتغاليين، وأحد شروط هذه المواطنة معرفة اللغة البرتغالية.

الكمرون نموذج لمستعمرة لغوية:

اذا أخذنا دولة كالكمرون كمثال سنجد أن موقعها الجغرافي عند التقاء غرب افريقية بوسطها، من ثم كانت ملتقى لشعوب افريقية متعددة، ففي جنوبها نجد لغات البانتو التي تمتد حتى كيتون أي الى أقصى طرف جنوبي للقارة، بينما الى الشمال الغربي نجد امتداد مجموعات اللغات السودانية، ولغة الفولاني في شمالها، والتي تمتد بدورها حتى تبلغ السنغال، هذا فضلا عن لغة الطقات Clicks عند الاقزام، فتجتمع في الكمرون اذن مجموعة من اللغات فما بالك باللهجات! وأصبح من المستحيل من خلال لغة افريقية واحدة إيجاد وحدة الفكر، وأصبح كما يقول بعض الكتاب ليس أمام مثل هؤلاء من خيار في تحقيق الوحدة الا عن طريق لغة غير افريقية، عن طريق لغة أجنبية، و يزيد على هذا ان الكمرون خضعت للاستعمار الألماني والاستعمار الانجليزي والاستعمار



شكل رقم (٢٠) اللغات الرئيسية في الكمرون عن:

Fanlon, B. The language Problem in Cameroon, comparative Education, vol 5, no 1, 1969.

الفرنسي، واذا كان الاستعمار الألماني قد اختفى عقب الحرب العالمية الأولى، وبالتالي اختفت لغته بعدها، فقد أصبحت الكمرون اليوم من الناحية الرسمية ذات لسانين انجليزي وفرنسي.

وفي الحق ان التأثير اللغوي الأوروبي في الكمرون يعتبر نموذجاً طريفاً لما كان يحدث عقب استعمار إحدى الدول الأوروبية لجزء من القارة.

كان أول اتصال للكمرون بالعالم الغربي في نهاية القرن الخامس عشر، أو على وجه الخصوص عام ١٤٧٢ حينما وصل فرناندوجوميز أحد أغنياء التجار البرتغاليين الى خليج غانا (غرب افريقية)، ودخل بسفنه مصب نهر الكمرون فوجدها مليئة بالروبيان (الجمبري) فأطلق عليه نهر الروبيان Rio dos Camaroes، ولكن لم يؤسس البرتغاليون لهم قاعدة في الكمرون وفضلوا اتخاذ قاعدة لهم في احدى الجزر القريبة وهي ساو تومي، وبعدها اكتشف العالم الجديد ونشطت تجارة الرقيق، وبدأت سفن المغامرين من الدول الاوروبية تتوافد على الاقليم كالهولنديين الذين أسسوا مركزا تجاريا عند مصب نهر الكمرون، والسويديين والدانمركيين والفرنسيين والبريطانيين، ومع مضي الوقت حلت كلمة كامارونز Camarones الاسبانية محل كاماروز البرتغالية، وبعد ذلك ثبتت كلمة كامارونز Camaroons الانجليزية، والتي أصابها تعديل طفيف واصبحت كامرونز Cameroun الحالية وتطورت المساحة التي اطلق عليها هذا الاسم من النهر، الى السهل الساحلي باكمله، ثم امتدت لتشمل الجبل المجاور ثم الى ما وراءه، واشتقت من هذه التسمية كلمة (Kamerun) الالمانية، و(Cameroun) الفرنسية. وقد قررت الحكومة في دستور ١٩٦١ ان يكون اسم الدولة Cameroun بالفرنسية، و Cameroon بالانجليزية اسقاط حرف الـ s من نهاية سطر الكلمة (٢٣) بدأت الحكومة الالمانية تخطو خطواتها الاولى لاحتلال الكمرون في أوائل عام ١٨٨٣ ورفع العلم الالماني في يوليه ١٨٨٤ بعد عقد اتفاقيات مع رؤساء القبائل ثبتوا بها الحكم الالماني.

و باحتلال الالمان للكمرون أصبحت هناك مشكلة التفاهم بين الحكام الجدد والوطنيين، وكانت الادارة الالمانية مجبرة في المرحلة الاولى على استخدام اللغة الانجليزية و يبرر هذا انها مرحلة انتقالية،ولضآلة أعداد من دخلوا المدارس وتعلموا الانجليزية، فضلا عن خروج القبائل من عزلتها واشتراك الاف من السكان في النشاطات الاقتصادية الجديدة ولم يجمع بينهم لسان واحد، من ثم كانت الرطانة الانجليزية هي الحل الوحيد لهذه المشكلة. هكذا كان الموقف حينما ضمت الكمرون كمستعمرة المانية، وكان على الحكومة الالمانية اتخاذ موقف ما حيال قضية اللغة، ولكن البعثات التبشيرية كانت أسرع وأكثر حسما من الحكومة، فبعد الاحتلال الالماني انسحبت البعثات التبشيرية الانجليزية، وحلت محلها البعثات التبشيرية الالمانية والسويسرية، وانتشرت في الداخل واخذت تعلم اللغة الالمانية ولغة دوالا الوطنية، وحتى عندما قررت البعثة التبشيرية الامريكية البقاء في جنوب الكمرون كان عليها ان تستبدل اللغة الالمانية باللغة الانجليزية. وهكذا زحفت البعثات التبشيرية في ارجاء الكمرون ناشرة المسيحية واللغة الالمانية.

و بعد ان وطدت المانيا نفوذها، دخل عامل آخر ساعد على نشر اللغة الالمانية الى جانب الكنيسة والمدرسة والتجارة وهو الادارة، وأخذت اللغة الالمانية تصبح محور المقررات الدراسية في المدارس التي انشئت، بل وكثفت هذه الدراسة لتدعيم النفوذ الالماني ولتسهيل الادارة والتجارة والا تصال. واتجهت السياسة نحو اقتلاع اللغة الانجليزية واستنبات الالمانية محلها والحد من اللغات العامية المحلية، وذلك بصدور مرسوم حكومي بألا تستعمل البيوت التجارية غير الالمانية لغة للتعامل، فضلا عن استخدام النقد الالماني وأساسه المارك لمدفوعات الحكومة الالمانية. وشجعت الحكومة الالمانية تعلم الالمانية في المدارس باجزال المساعدات لمدارس البعثات التبشيرية، ويختلف الدعم بحسب كفاءة الطلاب في اللغة الالمانية، هذا فضلا عن مكافآت نقدية كانت تمنح للطلاب المتفوقين الذين يثبتون تفوقا في الالمانية قراءة وكتابة ومحادثة، بل وأتاحت الفرصة للممتازين

منهم ان يكملوا تعليمهم للغة الالمانية في المانيا ذاتها على نفقتها، وعقد اول مؤتمر رسمي للتعليم عام ١٩٠٧ في دوالا عاصمة البلاد، وكان الموضوع الرئيسي المطروح للبحث هو دراسة اللغة في المدارس، وأوضحت الحكومة سياستها بوضوح، وهو الحد من استعمال اللهجات العامية للغات الافريقية خارج حدود القبيلة، وزادت شعبية اللغة الالمانية بين الكمرونيين مع زيادة النشاط الاداري، والعسكري، والتجاري، والزراعي، والخدمات الالمانية، بل إن التعيين في الوظائف الحكومية والترقية فيها ارتبط باجادة اللغة الالمانية، و بدأت الالمانية تصبح لغة اجتماعية بين الطبقة المتعلمة من مختلف القبائل الكمرونية في العقد الاول من القرن العشرين وقد عبر عن هذا الاب Hermann Skolaster بقوله : كانت اللغة الالمانية هى المغنطيس الذي جذبهم، فقد رغب الوطنيون في ان يتكلموا و يسمعوا و يفهموا لغة أسياد البلاد (٢٤).

Die deutsche Sprache war der Magnet, der sie anzog, Der neger wollt den Herrn des landes sprechen horen, verstehen.

غير ان انتهاء الحرب العالمية الاولى جاء معه بنهاية السيادة الالمانية على الكمرون واقتسمتها فرنسا و بريطانيا ولكن بقسمة غير متساوية، فحصلت فرنسا على اربعة أخماس البلاد، وحصلت بريطانيا على الخمس الباقي والملاصق لنيجيريا، ومع دخول الحلفاء الى الكمرون حدث شيء مخالف لما حدث عندما اخضع الالمان الكمرون لحكمهم، فقد اختفت اللغة الالمانية بين يوم وليلة من الادارات الحكومية والبيوت التجارية والكنائس والمدارس.

وقام الفرنسيون بحيوية واندفاع بالغين لاحلال اللغة الفرنسية التي يعتبرونها على حد قولهم الباب المفتوح على الثقافة والتقدم.

“La porte ouverte vers la culture, vers le progres”

فحلت البعثات التبشيرية الفرنسية كاثوليكية أو بروتستانتية محل الالمانية، و بدأت بتعليم الفرنسية للطلاب والمعلمين معا، ولم تدرس الفرنسية كلغة قائمة بذاتها، بل أصبحت تدرس بها المواد الدراسية الأخرى من اليوم الأول للدراسة،

واذا كانت المدارس الثانوية الفرنسية لم تظهر في الكمرون في فترة ما بين الحربين، فانها انتشرت بكثافة في الفترة ما بين انتهاء الحرب الثانية وحصول الكمرون على استقلالها، وزاد من انتشار اللغة الفرنسية ازدياد الوجود الفرنسي، فقد هاجر عدد كبير من الفرنسيين الى الكمرون وعاشوا فيها، وزادت اتصالاتهم اليومية بالسكان، هذا فضلا عن إتاحة الفرصة أمام النابغين للدراسة في فرنسا، في ظل برنامج ضخم للمنح الدراسية، وخلقت بذلك طبقة من النخبة.

أما عن القسم الذي حصل عليه البريطانيون فقد تركوا القسم الشمالي منه والذي يغلب عليه المسلمون، إذ لم يكن في الامكان انتشار البعثات التبشيرية فيه، فلم تكن هناك مدارس حكومية او تابعة للبعثات التبشيرية، انما مدارس تابعة للادارة المحلية معظمها ابتدائية تشجع فيها اللغة المحلية، وتتبع باللغة الانجليزية في الفصول العليا، ومن أجل زيادة التدريب اللغوي أو الالتحاق بالتعليم الثانوي يتجه الطالب الى نيجيريا حيث الدراسة باللغة الانجليزية، ومن الناحية الادارية كانت تستخدم لغة الهوسا، ولم تستخدم اللغة الانجليزية الا في الادارة الحكومية الفدرالية والدوائر الحكومية، وكانت لغات الفولاني، والعربية وغيرها من اللغات متداولة ايضاً حسب الظروف، وإن لم تستخدم مكتوبة. وكانت الادارة تشجع الموظفين الانجليز على اجتياز امتحانات في لغة الهوسا والفولاني وغيرها من اللغات الافريقية المحلية، وكانت ترقيتهم في بعض الحالات تتوقف على نجاحهم في امتحانات في هذه اللغات الافريقية قراءة وكتابة.

اما القسم الجنوبي فقد الحق بجنوب نيجيريا حيث كانت الانجليزية، أو رطانتها هي المستخدمة رسميا في التفاهم بين القبائل، وان كانت هناك لغة افريقية تستخدمها كل قبيلة افريقية داخلها، وبدأت المؤسسات التبشيرية في الظهور، وحيث استقرت البعثات التبشيرية يظهر الثالوث المرتبط بها وهو بيت البعثه التبشيرية، والكنيسة، والمدرسة وأخذت هذه البعثات في دراسة اللغات العامية المحلية لاستخدامها في التبشير، ولكن كان هناك أيضا تدريس اللغة الانجليزية، كما وقع الكمرنيون أيضا تحت تأثير اللغة الانجليزية نتيجة التدريب

عليها كتابة وقراءة في المدارس.

ونظرا لزيادة توافد البعثات التجارية من ألمانية وفرنسية وتعاملها مع المواطنين، فقد استقر الأمر على قيام محكمة لتسوية الخلافات اذا ما نشأت بين هذه المؤسسات التجارية وبين المواطنين، وكانت القضايا التي يصعب إيجاد حل لها تترك لحين حضور القنصل البريطاني الذي كان يزور المدينة بين الحين والحين، وقد زاد هذا من اهمية القنصل البريطاني في تدعيم حكم الرؤساء الوطنيين، حتى أبدى كثير من الرؤساء رغبتهم في الحماية البريطانية، ومن ثم كان هناك عامل ثالث لانتشار اللغة الانجليزية وهو العامل السياسي. ويمكن أخذ الرسالة التالية المؤرخة في ٧ اغسطس سنة ١٨٧٩ الموجهه من الملك «إكو» ملك دوالا الى الملكة فيكتوريا كنموذج للغة الانجليزية في الكمرون في ذلك الحين.

"Dearest Madam-we your servants have join together and thoughts its better to write you a nice loving letter which will tell you about all our wishes, We wish to have your laws in our towns. WE want to have every fashioned altered, also we will do according to your consul's word. Plenty wars here in our country. Plenty murder and idol warshippers. Perhaps these lines of our writing will look to you as an idel tale.

We have spoken to the English consul plenty times about an English government here. We never have answer from you, so we wish to write you ourselves. When we heard about calabar river, how they have all English laws in their towns, and how they have put away all their superstitions, Oh, we shall be very glad to be like calabar now.

وهكذا تعددت الألسنة الاجنبية في الكمرون، من ثم فقد نص دستور سنة ١٩٦١ الذي ظهر بمقتضاه اتحاد الكمرون الى الوجود على أن كلا من الفرنسية والانجليزية لغة رسمية، (الفرنسية حيث كانت الادارة الفرنسية، والانجليزية حيث كانت الادارة الانجليزية)، وكلاهما يستخدم في الادارة الفدرالية كالحكومة الفدرالية ووزارات الخدمات الفدرالية، والمجلس النيابي الفدرالي،

والمحكمة الفدرالية والجامعة الفدرالية. وتتجه سياسة الحكومة إلى أن يدخل اللسانان الانجليزي والفرنسي حتى في التعليم الابتدائي في مرحلة مقبلة، وهكذا نجد ان دولة الكمرون من الناحية النظرية ذات لسانين ولكنها من الناحية الفعلية ذات ألسنة متعددة محلية وأجنبية.(٢٦)

ونيجيريا مثل آخر:

وتعاني نيجيريا من مشكلة الوحدة القومية، فقبل اتحاد البلاد عام ١٩١٤، كانت الادارة الاستعمارية تحكمها على أساس وحدتين كبيرتين، الولايات الشمالية والولايات الجنوبية، ولم تختف آثار هذا التقسيم حتى الوقت الحاضر، فما زال هناك شعور بأن البلاد تنقسم الى قسمين كبيرين من الناحية اللغوية والحضارية، لأن الادارة الاستعمارية أصلت هذه الفروقات. وتعتبر الهوسا والفولاني اكثر اللغات أثرا وانتشارا في الشمال، وتنتميان الى مجموعة اللغات الافروأسيوية عند علماء اللغات، بينما تعتبر «الايبو» و«اليوربا» أكثر اللغات انتشارا في جنوب نيجيريا و يضعهما علماء اللغات (ضمن مجموعات النيجر/كنغو).

والشمال أكثر تجانسا من الجنوب، و يتجلى هذا في إحدى صوره في أن لغة الهوسا مستخدمة في شتى الأغراض كلغة تفاهم مشترك بينما في الجنوب تتصارع اللغات، ولا تقبل الاقليات الصغيرة التنازل عن هويتها اللغوية وهي عديدة.

وقد اشتهرت نيجيريا بصراعاتها الداخلية التي تقوم على أساس عرقي، (بين الايبو واليوروبا و بين الايبو والهوسا.. الخ) لذلك فقد ظهرت عدة اتجاهات عقب الاستقلال للحفاظ على وحدة البلاد، الاول أن تقسم البلاد الى وحدات إدارية بحيث تضم كل وحدة عددا غير متجانس من اللغات بحيث تضطر كل مجموعة سلالية الى الاندماج تحت المواطنة الكبرى (المواطنة النيجيرية) اي لايمكن لواحدة منها ان تشعر بامكان قيامها بالانفصال لصغر حجمها، والرأي الاخر لايوافق على هذه الفكرة لأنها في نظرهم تزيد من حدة الصراع وعدم الاستقرار، و يذهب الى ضرورة تجانس السكان (لغويا) قدر الامكان في كل وحدة إدارية، ولكن يقف في سبيل هذا الرأي تلك الاقليات اللغوية، التي

لايمكن بسبب ضآلتها ان تكون وحدات ادارية ولعل ماذهبت اليه نيجيريا اليوم هو حل وسط، اذ قسمت البلاد الى اثنتي عشرة وحدة إدارية.

وكان غالبية سكان نيجيريا قبل عام ١٩٦٦ قد وصلوا الى مرحلة قبول ثلاث لغات رئيسية لنيجيريا وهي الهوسا، واليوروبا والايبو. ولم يكن هناك اعتراض من الشمال على تعليم الهوسا لمن لايعرفونها ، وهكذا الحال في الغرب وفي الشرق ولكن حين قسمت البلاد إداريا الى اثنتي عشرة ولاية ظهرت هناك لغات كانت تعد لغات أقليات في ضوء التقسيم القديم الى ثلاث ولايات، فأصبحت في ضوء التقسيم الجديد ليست أقليات، وبالتالي لايمكنها أن تتنازل عن لغاتها للغات منافسة.

وليست هناك فكرة على الاطلاق في محو اللغة الانجليزية بالكامل، بل ألا تصبح اللغة الرسمية للدولة ولغة التفاهم المشترك، وان تحل محلها لغة وطنية في هذا السبيل، وفي هذا المجال فالخيار هو بين اللغات الثلاث، ولم تحاول حكومة مدنية أو عسكرية أن تتعرض لهذا الموضوع، ورغم أن الانجليزية هي لغة الاذاعة والصحافة فهناك بعض الصحف التي تطبع باللغات المحلية خاصة الهوسا واليوربا، كذلك تبث الاذاعة إرسالا باللغات المحلية الأساسية، ولكن سياسة الدولة تتضح بصورة اكبر في المؤسسات التعليمية وهنا تصبح الانجليزية هي لغة التعليم دون منازع، وإن كانت لا تسود في التعليم الابتدائي، بل يبدأ التحول من اللغة المحلية الى اللغة الانجليزية عادة في السنة الرابعة الابتدائية. و يرد النقاد على هذا، بان هذا فيه ضياع للوقت، لأن الطلاب الذين ينهون دراساتهم عند المرحلة الابتدائية سرعان ماينسون الانجليزية، و يعودون الى لغتهم الاصلية وفي نفس الوقت هناك مشكلة عدم كفاءة كثير من اللغات المحلية في هذه المرحلة الحالية لان تصبح وسيلة تعليم فعالة.

وتدرس الان اليوربا والهوسا والايبو كلغات لها درجات جامعية في جامعة ايبادن، كما تقوم معظم الجامعات في نيجيريا فضلا عن معهد اللغات باجراء أبحاث على اللغات المحلية، وهذا يدل على الاهتمام بها، وان كان هذا لايشير

الى سياسة معينة للدولة خاصة بهذا الموضوع.

هكذا أصبح للمستعمر من قوة السيطرة مايجعل من لغته مادة إجبار ية، إذ كان طالب الثانوي في المستعمرات الانجليزية إذا رسب في مادة اللغة الانجليزية يعتبر راسبا بوجه عام، ولا يحق له الحصول على إجازته العلمية حتى ولو كان مبرزا في بقية المواد وذلك حتى يشتد الاهتمام بها.

ومحصلة ذلك كله أن اصبحت افر يقية وكأنها ميدان خال لنشر اللغات الاورو بية، فوجدنا البرتغال تنشر البرتغالية في مستعمراتها سابقا (موزمبيق، وأنجولا، وغينيا، وساوتومي و برنسيب)، ووجدنا اسبانيا تجعل لغة الساقية الحمراء ور يومونى وفرناندو بو الاسبانية، ووجدنا فرنسا و بلجيكا تنشران الفرنسية كلغة التعليم والادارة في رواندا و بوروندي والكنغو (زائير) وموريتانيا وساحل العاج وتوجو وداهومي ومالي، والنيجر، والفولتا العليا، والكمرون، والسنغال، وموريشس، وغينيا. و بريطانيا تنشر الانجليزية في غينيا، وسيراليون، وغانا، ونيجيريا، واوغندا، وكينيا، وتنزانيا، وزامبيا وروديسيا، ومالاوي، و بتسوانا، وسوازيلاند وليسوتو، بينا ايطاليا تنشر اللغة الايطالية في الصومال وحاولت نشرها في ليبيا لولا مقاومة اللغة العربية (٢٧).

و يتكرر الصراع في الاقليم الواحد بين لغتين اوروبيتين، لا على أرض أورو بية، ولكن على أرض افريقية أرض جنوب افريقية حيث دار الصراع بين لغة البوير (الهولاندية القديمة) والتي اطلقوا عليها الافريقيانية Afrikanns وبين اللغة الانجليزية، وانتهى الصراع بوفاق بينهما، والاعتراف بهما معا كلغتين رسميتين بينما لم يعر للغة من لغات البانتو (لغات الاغلبية) اي اهتمام.

التفتيت الثقافي:

وهكذا وجدنا التفتيت اللغوي لا يصيب القارة في لغاتها الاصلية فحسب، بل حتى في اللغات الدخيلة، وتجد دولة مثل غينيا تنتشر فيها

الانجليزية، ولكنها محاطة بالسنغال من شمال وجنوب، حيث تسود الفرنسية، في سيراليون الانجليزية لغة، وجوارها غينيا الفرنسية لها لغة، وغانا تجاورها ساحل العاج وهكذا .. الخ. وهكذا جاءت اللغات الاجنبية لتزيد من كرنفالات اللغات، ولتعطي كل دولة ظهرها لجاراتها من الناحية اللغوية، وتعدى أثر هذا الى المناهج المدرسية والمقررات الجامعية، فهذه الكتب مطبوعة في لندن، وتلك مطبوعة في باريس، أو بروكسل وغيرها مطبوعة في لشبونة وهكذا.

وأصبح الطالب في نيجيريا يعرف وليم الفاتح والملكة فكتوريا، والطالب في ساحل العاج يعرف عن لويس الخامس عشر والسادس عشر والثورة الفرنسية، ولكنهما في نفس الوقت لا يعرفان مثلا أن أقدم حضارة لا في افريقية بل في العالم أجمع كانت حضارة افريقية، وهي الحضارة المصرية القديمة، وكلاهما لا يعرف أن الابحاث تتجه لتشير الى ان نشأة الانسان من المرجح كانت في افريقية سواء الشرقية او الشمالية، ولان الافريقي يستقي معلوماته وثقافته من خلال لغة معينة، أصبحت هذه اللغة هي نافذته الوحيدة على العالم، ولم يكن هو صانع هذه النافذة، وانما الذي صنعها ووضعها في مكانها هذا لتطل على منظر معين أجنبي عنه، غريب لديه، فهي موضوعة له وليس هو بواضعها، لذلك إذا عرف شيئا فهو مُحرَّف ليخدم أهدافا معينة كالصاق تهمة تجارة الرقيق بالعرب دون خلق الله جميعا، وكأنها لم تكن معروفة أولا لدى الافريقيين انفسهم، ولم تكن معروفة لدى اليونان والرومان، وقامت بها كل الدول الاوربية في التاريخ الحديث من البرتغال واسبانيا في الجنوب الى فرنسا وهولندا وبلجيكا وبريطانيا، ثم تعدت هذه التجارة الدول الأوربية الى الولايات المتحدة الامريكية والبرازيل.

الخطأ التربوي:

ولعل من أهم القضايا المتعلقة بالسياسات اللغوية التي تتبع هي ما

يخص التعليم، لأنها ستصبح اداة التعليم في مختلف المراحل التعليمية، فما اللغة التي ستكون إجبارية؟ وما اللغة التي ستكون اختيارية للدراسة؟ وما نسبة المنهج المدرسي الذي سيدرس بلغة أو بلغات ما؟ وما هي المستويات المطلوبة في هذه اللغة أو تلك اللغات، لذلك فمعظم الذين كتبوا عن السياسات اللغوية في افريقية هم لغويون وتربويون. وليس من شك أن بؤرة اهتمامهم صالح الطالب وصالح العملية التعليمية التي يجب أن توضع في الاعتبار عند مناقشة أي سياسة تعليمية. ولكننا في نفس الوقت يجب أن نعترف بأن السياسة اللغوية لها نتائج أوسع من العملية التعليمية، فالسياسة التعليمية لها خطورتها في تكوين الأمم والشعوب، لن نناقشها هنا بقدر ما نناقش الخطأ التربوي اللغوي.

فلننظر الى العبء الذي كان يقع على الطفل في دولة مثل كينيا،فاذا كان يتعلم في البيت اللغة الأم سواء كانت لغة الكيكويو أو الكامبا، فعليه أيضا أن يتعلم السواحيلية، لأنها لغة التفاهم المشترك بين القبائل، ثم عليه ثالثا أن يتعلم الانجليزية، وهذا عبء كبير للغاية في المراحل الأولى للتعليم بلا شك.

وقد أثبتت الابحاث التربوية في العالم سواء كانت في اوربا او في العالم العربي خطأ هذه الطريقة تربويا ونستشهد اخيرا بتقرير الاستاذ بابس فافونا Babs Fafunwa وزميله بليس Bliss في جامعة Ife في نيجيريا والذي صدر عام ١٩٦٧ عن أثر تعدد اللغات على القدرة على التفكير المجرد لدى الطفل من اليوروبا. (٢٨)

فقد ظهر أن الطفل الذي حصل علومه بلغة اليوربا أقدر على الاستعادة بنفس اللغة منه لو كانت الاستعادة باللغة الانجليزية، وخرجا بنتيجة أخرى وهي أن الطفل الذي ينهي مرحلة التعليم الابتدائي و يتعلم لغتين فيها، ينهي المرحلة دون أن يحقق إجادة معقولة لكل منها، على عكس الذي يقتصر على لغة واحدة، لأن الطفل يتعلم أفضل بلغته،وادخال لغات اخرى في

هذه المراحل المبكرة ينزع الطفل من بيئته واسرته وجماعته وتجمعه، اذ تنشأ لدى الطفل (الذي انهى ست سنوات في التعليم الابتدائي وعرف مبادىء لغة اجنبية وترك المدرسة) أنفة من الاسهام في الأعمال اليدوية، كالزراعة وصيد الاسماك او النسيج.

وبمعنى آخر فإنك بذلك تعد طفلا ليكون عضوا في مجتمع معين عن طريق لغة غريبة وثقافة أجنبية. وظهر ايضا ان معظم الآباء الذين يجهلون هذه اللغات الاجنبية يفقدون الاهتمام بما يتعلمه الابناء، حتى ولو كانوا يعلمون الكثير عن موادهم، ولكن اللغة الاجنبية تعد عقبة أمام المشاركة والمعاونة وبالتالي ينعدم تعاون البيت والمدرسة في العملية التربوية.

التبعية الاقتصادية:

وبدراسة الارقام الخاصة بصادرات دول اتفاقية ياوندي مع دول الجماعة الاقتصادية الأوربية يتضح ارتباط اقطار الفرانكون بفرنسا من الناحية ا لاقتصادية، فالاستقلال السياسي لم يحدث تغييرا في موقعها الاقتصادي وفي اتجاه معظم صادراتها ووارداتها.

وفي الحق كان من المنتظر بعد اتفاقية (الستة/الثمانية عشر) أن تضعف العلاقة بين فرنسا وأقطار الفرانكفون لاكثر من اعتبار منها:

(١) أن التعامل مع اسواق المانيا وايطاليا وبلجيكا وهولندا ولكسمبورج سيكون على نفس أسس التعامل مع فرنسا.
(٢) سوف لا تكون هناك ميزات لصادرات فرنسا الى هذه الاقطار تزيد على ميزات الاقطار الاخرى.
(٣) سيكون للاقطار الخمسة الاخرى نفس حقوق تصدير السلع الانتاجية الى اقطار الفرانكفون كفرنسا تماما.
(٤) سوف تشترك هذه الاقطار في تقديم عطاءات للتنمية في الدول

المرتبطة ولن تكون هناك افضلية لفرنسا.

ولكن من الناحية العملية ظهر أن السيادة الاقتصادية لفرنسا لم تتأثر كثيراً، فما زال معظم الصادر يتجه الى فرنسا السوق التقليدية لهذه الدول وحتى معظم العقود والمشروعات تقوم بها مؤسسات فرنسية، ويقول توم سوبر Tom Soper ليس من الصعب تفسير هذا، إنه يفسر **بقوة اللغة الفرنسية والاعتماد والتعود على الاجراءات الادارية والقوانين الفرنسية الى جانب العوامل الاخرى.(٢٩)**

الاعلام الاجنبية:

ان الرجوع للشخصية الافريقية وللتضامن الافريقي لا يقتضي خلع الثوب اللغوي المصنوع في اوربا، بل تغيير تلك الاسماء الاجنبية التي تسمى بها الشوارع والمؤسسات مثل جزيرة فكتوريا والكلية الملكية King's College قاعة الملكة اليزابيث Queen Elizabeth Hall في جامعة كجامعة ابادن Ibadan إذ لايوجد في بريطانيا مثلا قاعة نكروما أو عبدالناصر أو سنجورا أوكينياتا، فلماذا تظل الاسماء الاجنبية في هذه الدول الافريقية، وكأن الدول الافريقية عقمت، وليس لها من أبنائها البررة من يستحق أن تطلق اسماؤهم على مؤسساتها ومبانيها ؟

ضعف الطاقة الفنية والمادية للدول الافريقية:

إن الدول الافريقية لها من مشكلاتها الاقتصادية ما يجعلها غير قادرة على تعليم الاطفال جميعا بلغة الام، وقد رأينا تعددها وتنوعها، وليس لديها الطاقة الاقتصادية والفنية لتطوير هذا العديد من اللغات ليصبح وسيلة للتعليم في المواد الدراسية المختلفة، فن المصلحة إذن اختيار لغة أو لغتين افريقيتين وتطويرهما، لتحلا محل اللغات الاجنبية فرنسية أو انجليزية أو غيرهما كوسيلة للتعليم في المدارس الافريقية،ولكن هذا غير عملي، ومن

الجائز ان الأفضل والأكثر امكانية هو تقسيم افريقية جنوب الصحراء الى كتل شرق وغرب ووسط، وتختار لغة واحدة في كل منها تعتبر هي لغة التعليم في جميع المستويات.

واللغة الافريقية التي تخدم القارة كلها أو جزءا كبيراً منها، ستكون فرصتها كبيرة لتصبح لغة عالمية ولكن هذا يحتاج بلا شك الى خطة طويلة الاجل.

وهــذا لا يتعارض في نفس الوقت مع تعلم لغة أجنبية في المعاهد الافريقية،فإن افريقية لن تكون أقل من الصين أو السويد اذا أرادت لبعض من أبنائها أن يكونوا على مستوى رفيع في احدى اللغات الاجنبية، فعلى الدولةان تقدم التسهيلات اللازمة لهم. إن تفضيل بعض الافريقيين ان يكونوا طلقاء اللسان fluent في لغة أجنبية أكثر من لغة افريقية لدليل واضح على مافعل الاستعمار بالعقلية الاستعمارية أحيانا.

ماذا تريد الحكومات الافريقية؟

في الحق ان الدول الافريقية جميعا وهي تعاني من مشكلة تعدد اللغات المحلية تواقة لاختيار لغة قومية تنميها بواسطة نظام تعليمي، وتعطي لها في المناهج الأهمية المعطاة للغات الاوروبية، والوسيلة الفعالة لتشجيع اللغة الافريقية الجديدة ونشرها هي جعلها لغة التعليم. ويذهب البعض الى عدم تدخل الدولة الرسمي لفرض هذه اللغة أو تلك بل يترك الأمر لعملية الانتخاب الطبيعي، فاذا استطاعت لغة ما أن تكسب أرضا واسعة اختيرت لتصبح لغة قومية تستخدم في المدارس والمعاهد. ويذهب اللغويون الى أن هذه الطريقة الاخيرة لا مناص منها، على اعتبار ان التاريخ يبين لنا أن اللغة الاكثر تأثيرا تفرض نفسها عبر الحدود. وهذه كانت فكرة كثير من الحكومات الافريقية التي تولت الحكم بعد الاستقلال مباشرة بصرف النظر عن الامكانات العملية لهذه الطريقة وجدواها.

كان هذا واضحا من سياسة حكومة الرئيس السابق نكروما في غانا عام ١٩٦١، فقد خاطبت مسز سوزانا الحسن نائبة وزير التعليم البرلمان حينذاك بقولها: «إنه في نية الحكومة تشجيع كل اللغات الرئيسية في غانا، حتى تصبح هناك فرصة متساوية لتثبت وجودها ليمكن اختيار لغة قومية حينما يأتي الوقت الذي يتخذ فيه قرار بهذا الشأن». وقد تردد صدى هذه السياسة مرة أخرى في حكومة الرئيس بوسيا، أي بعد عشر سنوات عندما صرح في البرلمان أيضا بأن ما تفعله وزارة التعليم الآن هو أن تعطي فرصة متساوية لتنمية جميع اللغات الرئيسية في المدارس، على أمل انه في المستقبل القريب يمكن أن تبرز احداها كلغة سائدة يتقبلها السكان جميعا كلغة قومية لهم.

وهكذا يكون اختيار لغة غانية أكثر فعالية في الاتصال بين الغانيين، وعن طريقها تنتقل الحضارة من جيل الى جيل، فضلا عن أن هناك جزءا من السكان يتكلمونها من قبل، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، فان الحكومة من البداية ستواجه صعوبات جمة لتقرير أي لغات غانا تختار لتكون لغة قومية، اذ سيترتب عليها قيام الصراع والعداوات بين الجماعات. ويضرب مثلا لذلك النقاش والحوار الذي استمر عشرين عاما وذلك للاتفاق فقط على القواعد الاملائية التي توافق عليها كل من قبيلة توى Twi وفانتي Fante في غانا لكتابة لغة الاكان، فكيف تكون حرارة الحوار حول قضية اللغة؟ ويوضح هذه الصراعات أحد اعضاء البرلمان في غانا عام ١٩٧١ حين حذر الحكومة بقوله: ان هذا الاتجاه (يقصد اختيار لغة) اذا تبنته الحكومة، وظلت تصر عليه فسيكون مخاطرة كبيرة لها، وسيكون مفيدا ان نعرف من السيد العضو المحترم عن دائرة «بيراكويم» اللغة التي يقترحها كلغة تفاهم مشترك في غانا، ويجب أن أذكره من البداية أنه إذا اختار لغة «جا» كلغة مشتركة لغانا، فان أهالي دائرته سيضربونه، واذا أصر على أن تستخدم لغته كلغة مشتركة فان بقية المجموعات اللغوية

ستتحد ضده وتعارضه. إن أي حكومة تخدع نفسها، وتظن أن الفرصة مواتية لادخال لغة تفاهم مشترك في البلاد ستكون جالسة فوق مخزن من البارود، وستكون هذه العملية أشبه بديناميت سياسي تقوم الحكومة بتفجيره. (٣٠)

ومن العينات التي اخذت إحدى ضواحي مدينة اكرا عاصمة غانا حيث تعيش جماعات متعددة اللغات، فضلت غالبيتهم لغة اجنبية كالانجليزية أو الفرنسية أو العربية أو الهوسا كلغة تفاهم مشترك.

وفي دراسة مسحية خاصة بهذا الموضوع ايضا أجريت على طلبة جامعة كيب كوست في غانا، فضل ٧٢٪ منهم اللغة الانجليزية على أي لغة غانية كأداة للتعليم. ويقول أجيمانAgyemanالاستاذ الذي قام بهذا المسح «مازالت روح القبلية متأصلة فيهم، فهم يريدون أن تكون لغة قبيلتهم هي اللغة المختارة». (٣١)

ان اختيار لغة غانية لتكون لغة قومية سوف تكون دوما عبئا على العملية التعليمية ذاتها وعلى الأطفال. فلابد من تدريب المعلمين على تدريس هذه اللغة، ولابد من إعداد وسائل تعليمية جديدة لاستخدامها كوسيلة للتعليم، وفي تلك الأجزاء من البلاد التي لم تكن فيها هذه اللغة هي اللغة الام، يزداد العبء على الطالب لأن عليه أن يتعلم هذه اللغة الجديدة بجانب اللغة الانجليزية، وكلاهما لغتان أجنبيتان بالنسبة له. ولا نظن أن هناك محاولة تنجح في هذا الميدان دون أن تكون هناك، دوافع تدخل في البرنامج لتشجيع الناس لتعلم واستخدام اللغة الجديدة. وأكثر أنماط هذه الدوافع تأثيرا هي :ـ

(١) استخدام هذه اللغة القومية وحدها في وسائل الاتصال، وفي الأعمال الرسمية، والمؤسسات التعليمية.

(٢) وجود أعمال أدبية بهذه اللغة يمكن للناس قراءتها. ومن دراسة للمؤلفات التي كتبت بلغة غانية، وجد أنها نيف والف ومائة كتاب موزعة

على عشرين لغة، أي بمتوسط ٥٥ مؤلف لكل لغة، ينخفض هذا الرقم الى مؤلف واحد في احداها و يرتفع الى مائتين وسبعة وستين في اعلاها قدرا، و يزيد على هذا أن نصف هذه المؤلفات هي كتب مدرسية أو دينية من نتاج البعثات التبشيرية.

ومن ثم تبدو الحلقة مفرغة إذا لم توجد أعمال مكتوبة بلغات محلية، وفي الوقت نفسه ليس هناك الكثير من الكتاب أو الناشرين الذين لديهم الاستعداد للعمل بلغة محلية نظرا لقلة الطلب، أو بمعنى آخر ضيق السوق أمام مثل هذه الاعمال، من ثم فاتخاذ لغة غانية كلغة قومية يتطلب تغيرات ثورية في التأليف، وتغيرات جذرية أيضا تجاه المؤلفات المكتوبة بلغة محلية.

ولا تقل مشكلة تدريب المعلمين على اللغة الجديدة أهمية عما سبق، لانه من الضروري أن يكونوا على كفاية عالية فيها قبل أن يقوموا بتعليمها.

الأفارقة أنصار اللغات الأوربية:

قال أحد اعضاء البرلمان أثناء مناقشة لغة عامة لغانا: إني أريد القول بأن الانجليز قد تركوا لنا أشياء عديدة قد لا تناسبنا اليوم، ولكن لغتهم التي تركوها ربطت كل القبائل بعضها ببعض، وكذلك ربطت الثقافات المتعددة لسكان غانا بحيث جعلت من غانا أمة واحدة، وأظن أنه آن الأوان لأن ننمي الانجليزية، ونضيف اليها ونجعلها لغتنا لانها الشيء الوحيد الذي يجمعنا معا كشعب واحد.

وتبرر حكومة الكمرون سياسة الدولة الرسمية في اتخاذ اللغتين الانجليزية والفرنسية كلغتين رسميتين بعدة عوامل منها :

(١) ان هذه اللغات تفي باغراض لا يمكن ان تفي بها اللغات المحلية،

وتتمثل في كونها لغات العلوم والتكنولوجيا الحديثة، وهي من الامور التي لا غنى عنها للدول النامية في الوقت الحاضر.

(٢) أنه نتيجة الصدفة التاريخية اصبحت اللغتان الانجليزية والفرنسية لغتين عالميتين، واصبح من الضروري معرفتها لأنهما من وسائل الاتصال الرئيسية في العالم. (٣٢)

ويردون على الذين يقولون بان الطفل الافريقي يحمل عبئا كبيرا بتعلمه أكثر من لغة، بأن السر يكمن في توفير وسائل تعلم هذه اللغات من المدرس الجيد، الى الكتاب الجيد، والاجهزة الجيدة والطريقة السليمة، لتعلم هذه اللغات.

ويضربون مثلا بالكمرون بقولهم بأن الكمرون تخلو من المشكلات التي تنشأ عن التعدد اللغوي في بعض الدول، كما هو الحال في كندا، أو بلجيكا، بل على العكس فقد كتب عن «السلام اللغوي» في الكمرون في مجلة أبابايا الكمرونية مايلي:

«من ناحية المبدأ فيما يختص بالدول ذات اللسانين من الناحية الرسمية مثل كندا وجمهورية جنوب افريقية وبلجيكا، هناك عوامل غير مشجعة لا ضد نجاح استخدام المواطنين للغتين، بل ضد تعايشهما معا في سلام، من بين هذه العوامل انه ليست هناك لغة من هاتين اللغتين تعتبر وسيلة اتصال على نطاق واسع قاري او عالمي، اي لضآلة الناس الذين يتكلمون أيا منهما، هكذا الحال فيما يختص باللغة الهولاندية والفلمنكية في بلجيكا والافريكانية في جنوب افريقية، ويعرف الهولنديون هذا، لذلك نجدهم من اكثر الشعوب الاوربية تعلما للغات الاخرى، فالهولندي المتعلم يعرف لغتين في المتوسط على الاقل غير لغته الاصلية كما يرجع هذا الى صغر حجم دولتهم، وتشابك حدودها مع الآخرين مما يحبذ ضرورة الاتصال.

اما في كندا فان الخمسة الملايين كندي الذين يرجعون لاصول فرنسية منفصلين عن وطنهم الاصلي بواسطة آلاف الاميال (المحيط الاطلنطي) يعيشون في محيط واسع من اللغة الانجليزية في أمريكا الشمالية يزيد على مائتي مليون نسمة، من ثم فالناطق بالانجليزية في امريكا الشمالية لا يجد نفسه في حاجة الى تعلم اللغة الفرنسية الا اذا كان هناك دافع ذاتي أو للعمل في بلد لغته الفرنسية وليس الحال هكذا في الكمرون.

وهناك شوكة أخرى في جانب التعايش السلمي بين هذه اللغات، وهو انها ترتبط في الاصل بقومية معينة، من ثم فهي تنم عن هوية معينة، وشخصية خاصة، وتربط الفرد بأصول معينة، فأي تهديد أو احتقار لها يعتبر موجها أساسا لمن يتكلمونها، ويؤدي إلى اثارة الحساسية والعواطف، وهذا هو الحال في بلجيكا في فترة ما وفي اقليم كويبك في كندا، وعندما يصل الامر الى هذا الحد يتحول الامر من الدفاع عن اللغة الى تحد وعداء للغة المنافسة، فالى يومنا هذا هناك من الفلمنك في بلجيكا من لا يتكلمون الفرنسية رغم انهم يجيدونها إجادة تامة. وسبب ذلك أن الفرنسيين كانوا قد قهروا إقليم الفلاندرز، واصبحت الفرنسية هي لغة البورجوازية الفلمنكية ولكن الفلمنك نجحوا في الحصول على اعتراف بلغتهم كلغة رسمية في تشريع عام ١٩٣٢.

ولكن الامر يختلف في الدول الافريقية، فليست اللغة الفرنسية او الانجليزية هي لغات افريقية في الاصل، من ثم فليست هناك عاطفة حادة نحو أي منها.

وليس معنى دولة ثنائية اللغة أن تكون ثنائية الافراد، أو ثنائية القومية فالهدف الذي نقصده في الكمرون ليس هو ان تكون الدول الثنائية، بل ان يكون الافراد ثنائيي اللغة، فكل فرد يذهب الى التعليم يجب ان يخرج منه وهو يجيد اللغتين الفرنسية والانجليزية ولكن قوميته كمرونية». (٣٣)

اللغة او اللغات الجديدة وشروطها

اضم صوتي الى صوت كول أوموتوشو Dr Kole Omotosho الكاتب النيجيري واستاذ الجامعة الذي قال بعد افتتاح الاجتماع الأول لاتحاد الكتاب الافريقيين Unions of Writers of African People الذي عقد في اكرا بأن الاتحاد يعتقد بحاجة الافريقيين لان يعبروا عن شخصياتهم خلال لغة واحدة، ونأسف لان المخططين لمهرجان الفنون والثقافة للسود في العالم والافارقة

World Black and African Festival of Arts and Culture

لم يعنوا إلا بالفنون والفولكلور والرقص وكأن اللغة ليست من الثقافة في شيء، أو ليست هي عماد الثقافة.

اذن لابد من عمل شيء في هذا المجال، لابد من التوحيد على أي مستوى، فهذا هو مثار المناقشة، هل نختار لغة واحدة أم بضع لغات تعد على أصابع اليد. ومهما كان القرار فيجب لمن يتصدى لاحلال لغة محل لغات اخرى ان يضع نصب عينيه مايلي:

(١) ان اللغة وظيفتها تدعيم الاتصالات.

(٢) نظرا لان قضية الغاء بعض اللغات وإحلال لغات محلها لها حساسية خاصة فلابد وان تكون العملية تدريجية، كما يجب ان يكون توقيتها مناسبا، وأن يكون قد سبق شرح الغرض من عملية الاحلال بوضوح للناس.

(٣) ان تنفيذ هذا الامر يقتضي وقتا طويلا، لابد فيه من استحداث تغييرات أساسية تؤدي الى تخفيف العزلة وذلك بشق الطرق وتيسير المواصلات والمخالطة وسائر ضروب الاتصال بين المتكلمين بمختلف اللهجات حتى يتيسر تخفيف الفوارق اللغوية بينها وهذا يستغرق بطبيعة الحال اكثر من جيل.

(٤) ان الدول الافريقية هي دول نامية لها من مشكلاتها ونفقاتها ما يجعل من اللازم عدم تبديد طاقتها ومواردها فيما لا يقبله الناس لانهم ينتهزون اول فرصة و يرتدون.

(٥) ان اللغة التي تختار لتحل محل لغات اخرى يجب ان تتميز بسعة الانتشار، وان تكون قد تعدت حدود القبيلة الواحدة بل والدولة الواحدة. واذا كان لي ان اقترح (تصور شخصي) خريطة اخرى للغات في افريقية تحل محل الخريطة المعقدة الحالية فيمكن القول بما يلي:

(١) اللغة العربية في القسم الشمالي وهو مجال انتشارها، وليس هناك مشكلة في هذا الاقليم لانها لغة واحدة، ويمكن ان تمتد الى أبعد من حدودها الحالية حيث ان المنطقة التي خلفها تعتبر ظلالها حيث تنتشر الالفاظ العربية في مفردات اللغات المحلية الأخرى.

(٢) الهوسا في غرب افريقية حيث لها من سعة الانتشار في أقطار غرب افريقية الناطقة بالفرنسية والانجليزية ما يؤهلها لأن تقوم بهذه الوظيفة.

(٣) السواحيلي/ في افريقية الشرقية، وقد تم هذا بالفعل في كينيا وتنزانيا ويمكن أن تمتد الى أوغندا وموزمبيق على الأقل.

(٤) لغة بانتويه/ Bantoid Language في كل الهضبة الجنوبية لأن اللغات واللهجات المختلفة في الهضبة الجنوبية تنتمي كلها لعائلة لغة لبانتو.

قد يسأل البعض وماذا عن اللغات الأوروبية الانجليزية والفرنسية وغيرها هل تلغى بجرة قلم ؟ نقول : لا ، يحتفظ بها ولكن كلغات ثانية مؤقتا ولا يبدأ تعلمها في مراحل التعليم الابتدائي .

ونظرا لأن الموضوع ليس بالسهولة التي قد يتصورها البعض فلابد من تكوين هيئة فنية أو أكاديمية لبحث الاقتراحات في أكثر من دولة افريقية، يكون نواة الهيئة احدى معاهد البحوث والدراسات الافريقية كالمعهد التابع لجامعة القاهرة. و يلاحظ أن الهيئات يجب أن تضم المتخصصين في اللغات بعامة وعلم الأصوات Phonetics والتراكيب Structures بخاصة فضلا عن المتخصصين في الدراسات الافريقية عموما نظرا لأن الموضوع له جوانب اخرى غير بحته.

وقد انشأ اخيرا قسم للغات الافريقية في معهد البحوث والدراسات الافريقية في جامعة القاهرة ونقترح على الدول الافريقية انشاء كراسي للغة العربية وآدابها فى الجامعات الافريقية حيث يتم الاتصال وتبادل المعرفة والتقارب كما ذكرنا من قبل، والغريب في الأمر أن بعض الجامعات الافريقية تنتدب مستشرقين بريطانيين للغة العربية في معاهد الدراسات الافريقية التي أنشأتها بعض الجامعات الافريقية لمعاونة الطلاب في دراسة المصادر الخاصة بالتاريخ الافريقي.

مشكلات

وفي النهاية فان بعض المشكلات التي تثار هنا وهناك بشأن قضية التوحيد اللغوي يمكن أن نجملها او نجمل بعضها فيا يلي:

(١) معارضة استعمال لغة افريقية محلية بدلا من لغة اوربية، وهذا امتداد للفكر الاستعماري الذي نلحظ اتجاهه نحو عدم استعمال اللغة المحلية الاكثر شيوعا حتى كلغة ثانية و يوصف هذا العمل بأنه مضيعة للوقت والجهد كما جاء في تقرير اللجنة الملكية لشرق افريفية بخصوص استعمال اللغة السواحيلية حيث يقول:

"We regard the teaching of Swahili as a second language to children whose early education has been in other vernaculars as a complete waste of time and effort".
East Africa Royal Comm.Rep., 1955, P.154.

وكانت البعثات التبشيرية تعارض السواحيلي والهوسا مثلا لخوفها من انتشار الاسلام. وليس لهذا الرأي من صلاحية لأنه ليس كل من تكلم العربية مسلما، وليس كل مسلم يتكلم العربية، فهناك المسلم الصيني، والمسلم الباكستاني، ولا يتكلمان العربية، فهنا حدث خلط بين اللغة والدين، مما لايستند على أي أساس علمي واذا كانت السواحيلية قد دخلتها ألفاظ عربية، فهذا يدل على أن اللغات الحية تأخذ وتعطي وتدل على أن أهلها في حركة وليس في ركود وانعزال، وقد سبق أن رأينا كيف أن اللغات الأوربية دخلتها ألفاظ عربية، ومع هذا فالسواحيلية مثلا هي لغة افريقية وليست الانجليزية، كذلك أليس من الاكرم أن نستعمل لغة افريقية بدلا من بعض الاقتراحات المريضة التي تقول باستعمال الانجليزية المسوخة. Pidgin English و ينضم الى أنصار اللغة الأجنبية أولئك الأفارقة الذين تزوجوا من نساء أوربيات، بل وحتى هؤلاء الذين تزوجوا بأفريقيات، ولكنهم قضوا سنين عديدة في الخارج، و يسود بين هؤلاء تعليم أولادهم اللغة الفرنسية أو الانجليزية.

لاننسى أن الذي كان يقرر فيما مضى هو الادارة الاستعمارية ولكنها الآن الادارة الافريقية.

(٢) مشكلات الترجمة خاصة للمصطلحات الحديثة ومن الطريف أن نعرض صورة لهجوم الصحافة على اذاعة كينيا ، حول ترجمة بعض التعبيرات مثل اجمالي الدخل القومي gross n.p. التي ترجمتها الاذاعة الى بالسواحيلية Pessa Tolizopata وتلوث البيئة Takalaka Heuani وغيرذلك ولكن هذا الهجوم أو النقد له أهميته في الابحاث اللغوية ، و يؤدي الى اثراء اللغة ، والوصول الى

الـتـرجمة الـدقـيـقـة فهو نقد بناء ويخلق في الانسان الشعور بالثقة بالنفس وبان الانسان يستطيع أن يعبر بلغته لا بلغة الاوربيين.

(٣) **القبليـة:** وتلعب الحساسية والمنافسة الثقافية والسياسية بين القبائل في افـر يـقـيـة دورها في تعقيد مهمة مشكلة اختيار احدى اللغات لتحل محل اللغات الأخرى كلغة قومية فعلى سبيل المثال عندما طالبت قبيلة الكاكوا Kakwa بـاسـتـخـدام لغتها في اذاعة أوغندا كان من أسباب رغبتهم هـو شعورهم بجرح كبر يائهم عندما يضطرون لسماع البرامج الاذاعية بلغة جـيـرانهـم مـن اللـوجـبـارا ، هـذا مع العلم بان الكاكوا يفهمون اللوجبارا و يـتـعـلـم أطـفالهم اللوجبارا ، فهذا العمل بالنسبة لهم فيه إيذاء لشعورهم و بـانهم أقل من جيرانهم قدرا ، وجيرانهم أرفع منهم منزلة ، وهكذا ظهرت لغة الكاكوا في إذاعة أوغندا.

والـواقـع أن أهـم مـا تبتلى به القارة هو المجتمع والشعور القبلي، ومعناه الولاء للـقـبيلة قبل الدولة وهي درجة من درجات النمو السياسي يجب أن تسرع الشعوب الافـر يـقية الخطى في تخطيهالتنتقل الى مرحلة أعلى فمرحلة الاعتزاز (بالعصبية) بـالجماعة التي ينتهي اليها الفرد لم تصلح الا في عهد الفطرة أما اذا بعدنا عن ذلك الـعهد.فنجد انتساب الناس الى المكان الذي يعيشون فيه ، أي الى الدولة ، ولعل مـا يـدعو الى التفاؤل بشأن هذه الظاهرة في افر يقية التطور الذي تمر به الشعوب الافـر يـقـيـة فضلا عن الهجرات والتحركات التي تحدث من المدن واليها فتنقطع صلة الفرد بينه و بين وطنه البعيد الذي تقيم فيه قبيلته ولا يمضي زمن طو يل حتى يكون الشخص قد أخذ ينتسب الى بلده دون قبيلته.

يجـب أن تـسـرع الشعوب في تخطي هذه المرحلة لأن آثارها رهيبةلا في الثقافة فـحـسـب ، بل في السياسة أيضا ولن نذهب الى أمثلة بعيدة فما يحدث في الدول الافر يقية من صراعات يمكن اذا كشفت عنها الغطاء أن تجدمصدرها،واستغلال الـروح الـقـبـلـية ، أي ابحث عن القبيلة وراء كثيرمن المشكلات الافر يقية ، ولا

نر يد أن نسمع موجندي واشانتي Ashanti وباكنجو وسكوما وإنما نر يد أن نسمع أوغندي وغاني وزائيري وتنزاني . وسنعالج هذا بتفصيل في موضوع الوحدة القومية .

ونحمد الله أن الافارقة أحسوا بوطأة القبيلة ، ومن هنا كانت توصيات المثقفين بعدم تشجيع حتى استعمال هذه الكلمة فنجد كانون بيرجس كار Cannon Bergs السكرتير العام لمجلس الكنائس الافر يقي يصرح بأنه صدرت توصيات للكنائس الافر يقية بعدم استعمال هذه الكلمة ، أو حتى مجرد تشجيع استعمالها ، كما نجد اللجنة التحضير ية المشكلة لاعداد تار يخ افر يقية تحت اشراف اليونسكو تجهد نفسها في مناقشات في البحث عن كلمة بديلة لكلمة القبيلة .

(٤) وأخيرا من له القول الفصل في تقر ير هذا الاختيار ؟ ومن له الكلمة الاخيرة في تقر ير اعتماد هذه اللغة أو تلك ؟ هل هي الحكومات الافر يقية (وعددها خمسون) أو هي منظمة الوحدة الافر يقية ، أو الناطقون بهذه اللغات أنفسهم ، وكل منهم يعتز بلغته و يؤثرها على غيرها ، أم خبراء/اللغات الافر يقية من الأور بيين والامر يكيين الذين مهما بلغ تعمقهم في دراستها كثيرا ما تفوتهم اسرار بلاغتها وقد يكونون متحيز ين للغات الاور بية؟
لا ننسى أن الصين أو الهند أو الاتحاد السوفيتي أو اندونيسيا حينما قررت استعمال لغة معينة رسمية كانت هناك هيئة تنفيذية وهي الحكومة في كل حالة فهي التي قررت وقامت بالتنفيذ .
فهل يا ترى مثلا ستتفق حكومات غرب افر يقية جيعا على استعمال لغة ما كما فعلت حكومات شرق افر يقية وهكذا ؟
هذه كلها نقاط لا شك تستحق المناقشة وإبداء الرأي وتنتظر الحل .

حواشي البحث

(١) محمد عبد الغني سعودي : الجغرافية والمشكلات الدولية ، القاهرة ١٩٧٧ ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) June Teufel Dreyer, "Language Problem for China's Ethnic Minorities, Pacific Affairs, Vol 51, Fall 78, P. 369.

(٣) المرجع السابق ص ٣٧٠ .

(٤) Bascom, R., Melville Herskovits "Continuity and Change in African Culture, Chicago, 1959.

(٥) David Smock, Kwana Bentsi, "The Search for national Integration in Africa", London 1976, P. 161.

(٦) في الدراسات اللغوية الخاصة بافريقية لابد وان نذكر ما يلي :
أ) أن الاخصائيين المعنيين بهذه اللغات لم يتفقوا على التفرقة بين ما يعد لغة وبين ما يعد لهجة متفرعة عن لغة ما .
ب) ترتب على ذلك تعذر احصاء هذه اللغات احصاء دقيقا و يتضح هذا من الفروقات في تقدير عدد اللغات مما يدل على مدى الخلط والاضطراب في دراسة اللغات الافريقية .

(٧) بانتو Ba-ntu معناها الناس ، وقد استخدم هذا الاسم في الاصل لوصف عائلة لغوية ، ولكنه يشير ايضا الى مجموعة من الناس تتفق في صفاتها الجسدية ، وفي طريقة حياتها التي تعتمد على الزراعة اساسا ، وقد ادى هذا الخلط بين السلالة والثقافة الى تحرك اللغويين لبحث الامر

بطريقة علمية أكثر دقة ، فيميز جوزيف جرنبيرج عائلة لغوية اطلق عليها عائلة (النيجر ـ كنغو) تغطي مساحة واسعة من الأرض ، من السنغال في الغرب الى موزمبيق في الشرق ورأس الرجاء الصالح في الجنوب ، هذه العائلة الضخمة تضم أربع عشرة عائلة فرعية وتتفق لغات البانتو مع القسم الاوسط من تلك المساحة واكتشف الباحثون وحدة لغات البانتو منذ مدة طويلة،وكان أول من عرف وحدتها الرحالة البرتغاليون الأوائل الذين لاحظوا أن سكان انجولا في غربي القارة يمكنهم التفاهم مع سكان موزمبيق في أقصى شرقها وكذلك الحال مع البعثات التبشيرية التي جاست هذه الاجزاء منذ القرن السادس عشر،وقد اقترح بليك W.H.Blick عام ١٨٦٠ اطلاق لفظ بانتو على كل اللغات التي تستعمل لفظ مانتو للانسان (المفرد) وبانتو للناس (الجمع) ونشر C. meinhof عام ١٨٩٩ دراسة مقارنة لاصوات اللغات المتفرعة من عائلة البانتو.

(٨) لغات التفاهم المشترك هي التي يعبرعنها بالمصطلح الاوروبي Lingua Franca والتي ترجع الى عهد الحروب الصليبية حين كان الصليبيون يتعاملون مع بعضهم البعض بلغة تختلف عن لغاتهم ولهجاتهم المحلية ، لأنهم جاءوا من أقاليم متعددة من ألمانيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا واسبانيا الخ . ولم يكن كل هؤلاء في استطاعتهم التحدث باللاتينية ، واستخدمت هذه الجماعات لغة مطورة عن لغة البروفنسال التي كانت حينذاك سائدة على ساحل البحر المتوسط من موسيليا الى جنوا واطلقوا عليها Lingua Franca أي لغة الفرنجة .

(٩) Ayo Banjo, "Language Policy in Nigeria" in David Smock, Kwana Bentsi, "The Search for National Intergration in Africa", op. Cit., P 209.

(١٠) David R. Smock, "Language Policy inGhana", Ibid., p. 170.

(١١) كلمة Griots مشتقة أما من الكلمة البرتغالية Criado بمعنى الخادم، أو من التحريف الفرنسي للتحريف البرتغالي لكلمة gewel ، وينتشر هذا اللفظ في كل السّودان الغربي وساحل غرب افريقية بين قبائل الولوف والسرر والفولاني والماندي والسنغاي ، و يطلق على طبقة تحترف الانشاد أو الكلام ، توجد في حاشية رؤساء القبائل أو تعيش في المدن والقرى كمنشدين أو رواة للقصص ، أو مداحين ، أو هجائين ، وهم عادة يعتبرون أقل درجة في السلم الاجتماعي شأنهم شأن الحدادين ، ومع ذلك فقد يبلغون مكانة مرموقة في معية الرؤساء ، فقد يصبحون مستشارين لهم ، وبالتالي يكون تأثيرهم السياسي كبيرا ، وقد يكون المنشدون ثروات كبيرة وشهرة من مهنتهم هذه ، ومع ذلك فهم غير محبوبين ومن مهمتهم الرئيسية سواء كانوا اناثا أو ذكورا هو الانشاد في الافراح والحفلات في المناسبات المختلفة . ففي الحملات الانتخابية مثلا يمدحون الذي يدفع لهم ويهجون المنافس له .

(١٢) كانت توجد في افريقية لغات مكتوبة قبل عهد الاستعمار وأكثرها مدون بأحرف عربية مثل لغة بعض قبائل البربر، والفولاني والهوسا في غرب افريقية واللغة السواحيلية التي سبق تدوينها بالاحرف العربية .وذلك بتدوينها مرة أخرى بالحروف اللاتينية وحذفوا منها بعض الألفاظ العربية التي دخلت على أمل القضاء على مؤثرات الثقافة العربية في افريقية. وقد عد وسترمان ذلك التدوين بالكتابة العربية دليلا على الذكاء الفطري والطاقة العقلية عند الشعوب السوداء في القارة الافريقية.

(١٣) Marina Tolmachera, "The Arabic Influence on Swahili Literature: A Historian View", Journal of African Studies, Summer 1978 Vol. 5, No.2, P.229.

(١٤) المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(١٥) Ayo Banjo, "Language Policy in Nigeria", Op. Cit., P. 211.

(١٦) محمد عبد الغني سعودي : الوطن العربي ، القاهرة ، ١٩٧٦ ص ٥١٨ ، ٥١٩ .

(١٧) محمود فهمي حجازي : اللغة العربية بين اللغات الدولية المعاصرة مجلة كلية الاداب والتربية جامعة الكويت ١٩٧٢ ص ٣٢ .

(١٨) Joseph Greenberg "Africa as a Linguistic Area" in W.Bascom, Herskovits op. cit, P.25.

(١٩) Ezekiel Mphahelele: "The African Image" London 1972. .19,20.

(٢٠) Sir Halford Mackinder "The Geog. Pivot of History" London , 1951.

(٢١) Nadabninge Sithole, African nationalism, capetown 1959,pp.65,69.

(٢٢) J. Kimble, "Tropical Africa, " Vol. II, New York, 1962, P.112.

(٢٣) Bernard Fonlon, "The Language Problem in Gameroon," Camparative Education, Vol 5, No. I. 1969, p. 30.

(٢٤) المرجع السابق ص ٣٦.

(٢٥) S.J. Epale. "The Impact of Early English Christian Missionary Contact on Economic growth in Gameroon, 1880-1884" P.58. in Symposium Leo Forbenius Deustsche Unesco, 1974.

(٢٦) المرجع ما قبل السابق ص ٤٢ .

(٢٧) يجب الحذر فيما يختص بانتشار اللغات الأوروبية فليس معنى كون الانجليزية أو الفرنسية لغة رسمية في دولة افريقية، أن سكان تلك

الدولة يتكلمونها كافة وإنما تتكلمها الطبقة المتعلمة وهي نسبة ضئيلة من السكان.

(٢٨) The Effect of Bi-Lingualism on the Abstrasct and Concrete. Thinking Ability of Yoroub Children (1967)

(٢٩) Soper. Tom. "European Trade with Africa. Af. Affairs Vol. 67, No. 267, 1968, P. 146.

وراجع أيضا د. محمد عبد الغني سعودي/ أسواق الصادرات الافريقية، مجلة الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والتشريع عدد ٣٤٥ يوليوسنة ١٩٧١. ومحمد عبدالغني سعودي: السوق الأوروبية الموسعة وآثارها الاقتصادية والسياسية على افريقية. مجلة الجمعية الجغرافية المصرية العدد السادس سنة ١٩٧٣.

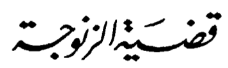
(٣٠) David Smock, Language policy in Ghana, Op Cit. P;18L.

(٣١) المرجع السابق ص ١٨٢.

(٣٢) Bernard Fonlon, "The Language Problem in Cameroon" Comparative Education, Feb. 1969, P. 43.

(٣٣) المرجع السابق ص ٤٤.




قضية الزنوجة

(الزنجية أو الزنوجة)

لـن يـكـون الأبـيـض زنجـيـاً قـط
لأن الجـمـال أسـود
والحكمـة سـوداء
لأن الـتـحـمـل أسـود
والـشـجـاعـة سـوداء
لأن الـصـبر أسـود
والحـديـد أسـود
لأن الجـاذبـيـة سـوداء
والـسـحـر أسـود
واهـتـزاز الأرداف أسـود
لأن الـرقـص أسـود
والايـقـاع أسـود
لأن الـفـن أسـود
والحـركـة سـوداء
لأن الـضـحـك أسـود
لأن المـرح أسـود
لأن الـسـلام أسـود
لأن الحـيـاة سـوداء(١)!!

لا شك أنك تتعجب وتضحك في آن واحد، بعد أن قرأت هذه الأبيات الشعرية للشاعر الزنجي ليون داماس، ولكنك بعد أن تعلم بأنه شاعر زنجي ستأخذ الأمر بشيء من الجدية لتتبين الأمر، وتعرف كنهه. أنى له أن يقرن الجمال والنبل، والحكمة، والفن، والمرح، بل والحياة بالسواد على غير ما اعتدناوألفنا؟حين نقول «نهارك أبيض» كناية عن أملنا لك

بـأن يكون يومك سعيداً ، فاقترن البياض لدينا بالسعادة والتفاؤل ، والعكس صحيـح . والـواقع أن الـشاعـر الـزنجي في هذا يعبر عن رد فعل لأفكارنا ومـفاهيمنا عن الألوان ، وهو لا يقصدنا نحن بالذات ، وإنما يقصد الأوربيين الذين احتقروا الزنجي ، واحتقروا اللون الأسود .

وقـد عبر سـارتـر (٢) عـن هـذا في مقدمته التي كتبها لمختارات جديدة مـن الـشعـر الـزنجي والملاجاشي (Nouvelle Anthologie de la Poesie Negreet Malagache)الـتي جمعها سنجور (٣) بقوله «يتعلم الزنجي أن يقول أبـيض كالثلج حين يشير للبراءة ، و يصف النظرة التي لا ترضيه فيقول إنها سـوداء ، و يـصف الروح بأنها سوداء ان كانت شر يرة ، والفعلة السوداء ان كانت قبيحة ، أي أنه يدين نفسه ، يتهمها أول ما يفتح فاه » لم يكن عجباً إذن أن يـقـلـب الافـر يـقـي الآيـة و يـتـغنى بزنوجته وسواده الحالك ، ويهجو البياض والبيض .

الجهل بتاريخ الزنوج وتبرير الاستعمار:

الجهـل بـتـار يـخ الـزنوج القديم واختلاف العادات والحقد السلالي من قـبل الأوربيين نحو الزنوج الذين تقابلوا معهم أول مرة فضلاً عن الرغبة في الاستـغلال ، كل هذه العوامل هيأت العقل الأور بي للحط من قدر الزنوج عـقـلـيـاً وحـضـار يـاً ، وأصبـح الـزنجي لـديهـم قريناً للتخلف ، والبدائية ، والانحطـاط والـقـدرة الـعقلية المحدودة ، ولما كان الانسان لابد له من تبر ير لـتـصـرفه فـقـد ذهـب الأورو بيون الى أبعد من هذا ، لأنه كان عليهم أن يـبـرروا اسـتـعمارهم لأوطان الزنوج ، وأن يبرروا استرقاقهم في تجارة هائلـة امـتـدت نحـو أربـعـة قـرون ، ومـن ثم كـثـرت كتابتهم التي تستهين بقدراتهم وكـفـاءاتهم ، و بذلك تسممت أفكار أجيال متعددة من الأوربيين لتبلور في النهايـة كـحقيقة معترف بها بأن كلمة الزنوج ترادف «البشر ية المتخلفة أو المنـحـطـة(٤) » ومـن ثم يـصير تبر ير الاستعمار سهلاً ، فهو لغرض وواجب انـسـانـي وهـو مـسـئـولـيـة أخلاقية لابد من القيام بها ، لنقل فضائل ديانتهم

وحضارتهم لشعوب المستعمرات المتخلفة، فواجب الرجل الأبيض أن يرفع من مستوى أخوة له كانوا قليلي الحظ، ومع ذلك فهم رفاق البشرية الذين تعرض المسيح من أجلهم لضروب من الآلام.

وعلى البعثات التبشيرية رفع الانسان الزنجي الى مستوى الآخرين، وتمارس الرأسمالية الأوربية أبشع صور الاستغلال متخفية وراء هذا الستار الأخلاقي. ويعبر عن هذا الاستغلال الشاعر النيجيري دنيس أوسادباي D. Osadebay (٥) على لسان الافريقي بقوله:

أنا لا أملك بندقية ولا أملك قنبلة،
أنا لم أصلح للحرب بعد،
جلبت لي صليبك ثم قذفت بي،
لقد أصبح قلبي مليئاً بالمرارة،
أخبرتني أن أغمض عيني وأصلي،
لكنك كنت تسرق أرضي،

وفي تعبيره عن الصراع بين الأوربي الظالم والافريقي المطحون قال: «صاحبنا الرجل الأبيض يبتسم بينما أحمل أكياساً من حبوب البن وثمار النخيل والبندق الى مخازنه لأحصل على الجنيهات، أعطاني بنسات وجعلني غاضباً ومندهشاً. ويقول: خذها كلها أو اتركها كلها لايمكنني أن أدفع أكثر من ذلك» (٦).

واعترف الأوروبيون في آخر الأمر للزنجي ببعض المواهب الفنية. وحتى في نظرتهم هذه دليل على أنه مخلوق أقل قدرة، فهذه كانت فكرة ديجوبينو DeGabineau أحد المبشرين بالنازية ومن فلاسفتها في القرن التاسع عشر في كتابه عن «عدم المساواة بين الاجناس» حين يقول بأن الفن في دماء الزنجي ولكنه في نفس الوقت لا يعتبر الفن الا مظهراً من مظاهر

البشرية غير الناضجة (٧). فالعاطفة زنجية والعقل اغريقي L'emotion est negre et Laraison Hellene لا شك أن هذا المناخ الغريب كان له أثر على الشخصية الزنجية وخاصة على المثقفين من الزنوج الذين كانت أمامهم الفرصة ليعرفوا كيف ينظر العالم اليهم، وقد حدث في بعض الأحوال أن فقد بعض المثقفين الزنوج ثقتهم بأنفسهم و بشعوبهم، بينما احتفظ البعض الآخر بهذه الثقة ولم يقبلوا نظرة العالم الأوروبي اليهم.

ومن أمثلة هؤلاء الذين قاوموا انعدام الثقة بالنفس دكتور كوجير آجيري Kwegir Aggry (١٨٧٥ــ١٩٢٧) وأصله من قبيلة الاكان الشهيرة بغانا تعلم في المراحل الأولى في غانا، ثم انتقل الى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٨، وتخرج في جامعة كارولينا، والتي درس فيها سنين عدة قبل أن يحصل على درجتي الدكتوراة والماجستير من جامعة كلومبيا، وأصبح فيما بعد نائباً لعميد كلية أشيموتا في غانا.

كان أجري فخوراً بزنجيته، فخوراً بأفريقيته، معتزاً بلونه الأسود وأنه ينتمي للجنس الأسود أينما كان. انظر الى قوله:

اذا صعدت روحي الى السماء وقال لي ربي: «أجري إني سأرسلك الى الدنيا مرة أخرى فما رأيك، أتفضل أن ترجع أبيض اللون؟»فسوف أجيبه :«لا، أرسلني أسود رجلاً أسود، معتماً كامل السواد واذا سألني ربي لماذا ؟؟ فسأجيبه «لأن لدي عملاً سأقوم به، ولا يمكنني كرجل أبيض أن أؤديه، من فضلك أرسلني أسود بقدر ما تستطيع من سواد». (٧)

ولكن رغم أن أجري كان يفخر بسواده، فإنه كان يعتقد اعتقاداً راسخاً بضرورة التعاون بين السود والبيض وكان يقول في هذا السبيل بأنك يمكنك أن تخرج نغماً بالعزف على أصابع البيانو السوداء وحدها، ولكن لتخرج نغماً منسجماً لا بد من العزف على الأصابع البيضاء والسوداء كلها. (٨)

ولدت في ساحل الذهب بارك الله فيها، وأنتمي الى المائتي المليون الزنجي أدافع عنهم، وأود أن أرى التعاون بينهم و بين البيض، وأن يُعطوا الفرصة الكاملة للنهوض بافريقية لتقدم خدماتها الكبرى للانسانية.

و يزداد التعصب للون الأسود لدى شاعر غانا الشهير أرماتو (R. E. Armatto) في قصيدته «في أعماق الرجل الأسود (٩)» حين يقول :

الـــــهُـــــنـــــا أســـــود
نـــادى عـــليـــه مـــن الـــغـــابـــات
مـــن الـــتـــلال الـــى الاحـــراج
دع الاحـــراج تـــســـترجـــع الـــصـــدى
الـــــهُـــــنـــــا اســـــود



صحوة الزنوج

كانت الأعوام التي انقضت من بداية هذا القرن الى نشوب الحرب العالمية الأولى هي آخر فترة يمكن أن يزدهر فيها استعمار، فالمغامرات الاستعمارية من الطراز القديم كانت عند نهاية الحرب العالمية قد أتمت الشوط، ولم يكن غريبا أن الكثير من الرجال الذين انتزعهم الانجليز والفرنسيون من المستعمرات، للدفاع عن الحرية والديمقراطية كانوا معاول قوية في هدم صرح الاستعمار، وقد كتب استعماري فرنسي يقول: ان المائة والخمسة والسبعين الفا من الجنود الذين جندوا فيما بين عامي ١٩١٤، ١٩١٨ قد حفروا قبر افريقية القديمة في خنادق فرنسا والفلاندرز (١٠).

ووصف أرنولد توينبي ذلك الموقف فقال: « إنها كانت حركة، تناسق مظهراها الرئيسيان بشكل عجيب: في طورها السلبي كانت نحو إزالة سيطرة الدول الغربية، وفي طورها الايجابي كانت حافزا لاعتناق أساليب الغرب العسكرية وانظمته السياسية وتنظيمه السياسي والاقتصادي وثقافته الروحية ».

وقد يكون من الطرافة بمكان ان الافريقيين كانوا ينظرون الى البيض الغرباء نظرتهم الى الآلهة، وكانوا يطلقون عليهم الالهة التي تأكل الذرة، غير أن هذه الفكرة تغيرت تماما، ويقول الزعيم الافريقي الروديسي سيتهول N Sithole ان هذا التغيير بلغ حدته عندما وجد الافريقيون أن للآلهة البيض شهية بشرية لا للذرة الافريقية فحسب بل للنساء الافريقيات ايضا، وزاد رد الفعل حينما عاش الافريقيون الحرب الى جوار الاوروبيين، فان بنات الشارع في لندن وباريس لم تبق على أسطورة الرجل الأبيض، ورأى الجندي الافريقي ان تأثير الرصاصة واحد بالنسبة له وبالنسبة للابيض، فكان لهذا كله أثره على سيكولوجية الافريقي، واخذ ذلك الحاجز بينهما يرق تدريجيا حتى وصل الى مرحلة الشفافية، فبعد قضاء

اربع سنوات في صيد البيض من جنود الاعداء، لم يظل هؤلاء البيض آلهة بعد، لذلك لم يعرف العالم الحركات القومية في المستعمرات الافريقية أو لدى الزنوج الاوربيين قبيل الحرب العالمية الاولى، وكان اثر هذه الحرب واضحا وقويا عليهم.

ورجع الذين كتبت لهم الحياة بعد هذه الحرب الى مواطنهم الاصلية محملين بأفكار سياسية جديدة والبعض الآخر ظل في فرنسا، ولم يتجمعوا جميعا في باريس، بل منهم من استقر في جنوب فرنسا وخاصة في مينائي مارسيليا وطولون، ومثلما حدث في فرنسا حدث في انجلترا، استقر كثير من محاربي المستعمرات في المواني والمدن البريطانية، وفي نفس الوقت وصلت اعداد من جزر المارتينيك وجواديلوب الى فرنسا، واتصل المهاجرون بالقوى اليسارية، وكانوا في فرنسا تحت تأثير كبير للشيوعيين، والى جانب هؤلاء ايضا كان المهاجرون من الهند الصينية مثل «هوشي منه» أبرز شخصيات هذه الجماعة، من ثم كانت عملية تسييس هذه الطليعة الافريقية الكاريبية مرتبطة بالحركات المقاومة للاستعمار (١١).

وفيما بين عامي ١٩٢٠، ١٩٣٩ أقامت هذه العناصر تنظيمات، وأنشأت بعض الصحف التي لم تستمر في أول الأمر بسبب مواجهتها لصعاب مالية وصراعات داخلية، هذه الصراعات كانت سياسية بالدرجة الاولى من حيث اتجاهها نحو الشيوعية، فسكان جزر الهند الغربية كان مستواهم التعليمي أعلى وكذلك الحال في مستواهم المعيشي عن الافريقيين، ويحسبون أنهم أكثر تحضرا، اما الافريقيون فكانوا ينظرون اليهم على انهم متعجرفون وانهم لا يفهمون مشكلات افريقية كما يفهمها الافريقيون، كذلك كان ابناء جزر الهند الغربية معتدلين، على حين كان الافريقيون أكثر حماسا بوجه عام. واندست الاستخبارات الفرنسية في هذه المنظمات لدرجة أن أحسن المصادر لتاريخ هذه الفترة هي الموجودة بأرشيف وزارة المستعمرات الفرنسية، خاصة أن معظم هذه التقارير مصحوبة بقصاصات

ومقتطفات من المنشورات والصحف التي أصدرتها مما يجعل قيمتها مضاعفة، نظرا لأن هذه المنشورات غير متوفرة في المكتبات العامة.

المحاولة الاولى لجمع الأفارقة وأبناء جزر الهند الغربية:

كانت المحاولة الاولى لجمع الافريقيين وأبناء جزر الهند الغربية في باريس على يد لويس هنكارين Louis Hunkarin وقد ولد هنكارين في بورتونوفو في داهومي عام ١٨٨٧، ولكنه درس في مدرسة المعلمين العليا في سانت لويس بداكار، وعندما عاد الى وطنه قام خلاف بينه وبين حاكم داهومي، والتحق محررا بصحيفة ديمقراطية السنغال (La Democratie du Senegal) التي تصدر في داكار، وقبض عليه في ديسمبر ١٩١٤ في داهومي، ولكنه هرب الي نيجيريا حيث أصدر دورية مخطوطة باليد، حصل على عفو عام ١٩١٨ واستعين به في تجنيد الافريقيين للعمل بالجيش الفرنسي، ثم عمل بعد ذلك في وزارة الحرب الفرنسية، وفي نهاية الحرب أسس في باريس صحيفة رسالة داهومي (Le Messager Dahomeen) عام ١٩٢٠ وكانت أول صحيفة تصدر في فرنسا لخدمة أبناء افريقية وأبناء جزر الهند الغربية، ولكنه كان يدعو الى الاندماج في الامبراطورية الفرنسية على أساس المساواة السياسية والاجتماعية، وان كان قد دعا في منتصف عام ١٩٢١ الى قيام مؤسسة أو تنظيم يضم كل سكان غرب افريقية، واشترك في عام ١٩٢١ في اتحاد المستعمرات وكان هذا الاتحاد هو الأول من نوعه الذي يضم الطليعة من سكان المستعمرات الفرنسية الذين يعيشون في فرنسا، وكان من أقطابه هوشى منه والحاج عبدالقادر وميسالي الحاج الجزائريين، ومن غرب افريقية لامين سنجور واميل فير، وأصدر الاتحاد السابق صحيفة باريا. وكان من كتابها الروائي رينيه ماران René Maran (١٢) من أبناء جزر الهند الغربية الذي حرك بروايته باتوالا Batoudla الشعور باعادة اكتشاف افريقية بواسطة الكتاب الزنوج

الامريكيين وهي الحركة التي عرفت فيما بعد باسم الزنوجة. وكان ماران أيضا قطبا في مجموعة أخرى يطلق عليها الرابطة العالمية لتحسين أحوال الزنوج التي اسسها توفالوهوينو (Tovalou Houenou) عام ١٩٢٤ وكانت صحيفته التي تعبر عنها يطلق عليها القارات Les Continents

وكان هوينو أيضا من أبناء داهومن الذين رحلوا الى بوردوفي فرنسا للالتحاق بالتعليم الثانوي، ثم درس الحقوق، وكان حتى عام ١٩٢١ من تلك الطبقة التي كانت تسعى الى الاندماج أو تدعو اليه، ولكن عودته في ذلك العام الى داهومي ومقابلته ونقاشه مع المحاربين القدماء الذين رجعوا من الحرب العالمية الاولى جعلت نظرته الى الأحوال في المستعمرات الفرنسية أكثر نقدا، وكان سبب دفعه الى حلبة السياسة بشدة حادثة تعرض لها في أحد مطاعم مونتمارتر في باريس عام ١٩٢٣، حيث كان فريسة لتمييز عنصري حاد، ورغم أنه رفع الأمر الى القضاء وكسب القضية، الا أنه التحق باتحاد المستعمرات ونظم بالاشتراك مع رينيه ماران سلسلة من المحاضرات لاخوانه الزنوج بعنوان «مشكلة السلالة السوداء» واشترك في تحرير صحيفة القارات ورغم حادث مطعم مونتمارتر فلم يدع الى قومية افريقية منفصلة، بل ظل يدعو الى الاندماج في الجماعة الفرنسية، وزيادة الروابط بفرنسا فتجده يكتب عام ١٩٢٣ موجها خطابه الى اخوانه الزنوج بقوله (الى اخواني الذين يحبون فرنسا) ولكنه كان يعارض بشدة لفظ الرعايا بالنسبة للافريقيين، ويطلب لهم حق المواطنة، الكاملة وأجبرته السلطات الاستعمارية على العودة الى موطنه داهومي في عام ١٩٢٥ وبغياب هوينو ظهر رينيه ماران على المسرح ورغم أنه كان يهاجم الاستعمار بصورة أكثر حدة من هوينو الا أنه أيضا كان متمسكا بسياسة الاندماج.(١٣).

هكذا كانت الزنوجة باريسية الصنع، حيث اجتمع فيها شباب من أقطار متعددة من افريقية ومن العالم الجديد، ثقافاتهم متنوعة، ولكن يجمع

بينهم و يؤلف أربعة أمور كانت بمثابة القاسم المشترك الاعظم وهي : — لون الجلد الأسود، اللغة الفرنسية، التراث الاستعماري، المعيشة في باريس، ولعل لون الجلد كان أهمها جميعا لأنه أصبح أساس الزنوجة وعمادها(١٤) . ولم يكونوا عابري سبيل في ذلك البلد، أو ضيوفا زائرين، فالذي لم يستقر منهم و يستوطنها مكث فيها عشر سنوات أو يزيد، ولكنهم كانوا يعيشون على هامش المجتمع الفرنسي، وليس في قلبه، ولما كانوا يعرفون فرنسا من خلال خبراتهم وتجاربهم في تلك الفترة، فترة الشباب، والتي تمثل اليقظة في أوجها، فقد أرادوا معرفة أوطانهم الأصلية التي هاجروا منها، ذلك من خلال ما كتب في علوم الانثربولوجيا والاجتماع. ولم يكن منهم من يشعر بانتماء الى قطر معين في فرنسا ما وراء البحار، كما كانت تسمى المستعمرات الفرنسية حينذاك ولكنهم كانوا يشعرون بالانتماء الى افريقية، فكان مفكروهم يتكلمون عن افريقية، لا عن السنغال أو جابون أو ساحل العاج. ولم لا ؟ فالاصل والقبيلة كانت أكثر أهمية وأكثر صدقا من تلك الحدود المصطنعة التي رسمها المستعمرون، هذا فضلا عن ان الادارة الفرنسية كانت تركز على الاتحادات أكثر من الأقطار منفردة، فكان هناك افريقية الغربية الفرنسية وافريقية الاستوائية الفرنسية. واذا كان طلب العلم قد فصلهم وأبعدهم عن مواطنيهم الأصليين وجمع بينهم في باريس فلم يكن كل من عاش في باريس في تلك الفترة من مفكري هؤلاء القوم، لديه إحساس قوي بالذات، بل كانوا يمثلون أقلية أو نخبة من المتعلمين، ومن هؤلاء كان دعاة الزنجية والمروجون لها، والذين كان من المتوقع لهم أن يستخدموا مهاراتهم في التحليل وقدراتهم في التفكير لأن يصبحوا ناقدين اجتماعيين، ولكنهم اكتشفوا ماضيهم، ذلك أن الاكتشافات الفنية ودراسات علم الأجناس في ذلك الوقت قد حتمت العودة الى تقدير الحضارة الافريقية، فقد أثبتت اعمال فوربينس، وديلافوس. أن لافريقية والافريقيين ماضيا وتاريخا لابد من اعادة دراسته وكتابته، وأصبح التاريخ الافريقي احد التخصصات التي يكتب فيها المتخصصون، كما رفع الفنانون

الأوربيون من قدر النحت الافريقي، واصبح من الموضوعات التي تثار في الصالونات الفنية نقدا ما بين مدح وقدح، وازدهر حقل جديد من حقول المعرفة. وكتب سنجور كثيرا عن الحاجة الاساسية لاحترام الذات والتي تسبق اي عمل سياسي، ومن ثم كانت المهمة والفرصة أمام المفكرين الافريقيين أن يكونوا بمثابة الأنبياء يهدون قومهم.

وسمحت الثقافة والتقاليد الفرنسية بقيام حوار كبير، والترحيب بمفاهيم جديدة كالزنجية والافريقية (Africanité) كما كانت الحركة الفكرية وظروف تلك الفترة مما يشجع على ظهور الجديد، إذ كان الاداريون المستعمرون من الطبقة المثقفة التي تستخدم منطق ديكارت والفاظ روسو. فاذا وضعنا هذا في الاعتبار فان الزنجية يمكن ان تستخدم سلاحا في الجمعية الوطنية الفرنسية ضد هؤلاء الذين مازالوا يعتقدون بدونية السلالات الافريقية، أو هي كانت بمثابة الدرع أمام استعلاء الثقافة الفرنسية تقوم بالوظيفتين الدفاع والهجوم في أرض هؤلاء المستعمرين. وقد وجدت الزنجية استهواء لدى النخبة من رجال الادارة والحكومة والمفكرين الفرنسيين، لانها من الناحية الادارية لا تشكل خطرا على الادارة الاستعمارية الفرنسية بأية حال، لسبب بسيط وهو بعدها عن الجماهير الافريقية، من ثم كان خطرها مستبعدا بالنسبة للاوساط الرسمية الفرنسية، فأنبياء الزنجية من افريقية وجزر الهند الغربية لم ينكروا فرنسيتهم فقد وصف سنجور نفسه (١٥) أكثر من مرة بقوله: انا فرنسي (١٦) وكان اول اجتماع خطب فيه واكد على أهمية الثقافة الافريقية، لم يكن في الجماهير الافريقية، ولكنه كان في الغرفة التجارية بداكار، كما تطبع مجلة الوجود الإفريقي (Presence Africaine) في مجلة الوجود الفرنسي (Presence Francaise) وكان على الكتاب الزنوج ان يدونوا أعمالهم باللغة الفرنسية وتنشر في فرنسا، والا فأين المعجبون باعمال سيزير في جزر المارتينيك ؟ ومن الذي كان سنجور سيخاطبه في السنغال ؟ ونظرا

لعدم وجود خطر من اثارة الجماهير، وضعف الاتصال بين النخبة والجماهير من أهالي المستعمرات، تأكدت الادارة الفرنسية أنه لا خوف من هذه النخبة الزنجية المتشبعة بالثقافة الفرنسية والمدنية الفرنسية، وبدأت تنمو المصالح بين مؤسسي الزنوجة والمؤسسات الاستعمارية. فالزنوجة تتحدث عن الغربة، لذلك كان الافريقي الذي تشرب الثقافة اللاتينية هو الذي سعى حثيثا نحو فكرة الزنوجة، يحاول استعادة ماضيه، ففي شعره يمجد أسلافه وأقنعة هؤلاء الاسلاف ويمجد فن الحفر الافريقي سواء على الخشب أو البرونز.

اقرأ لسنجور في صلاته للأقنعة (١٨) (التي يلبسها الافريقيون).
أنت تنقين هواء الأبدية.
هنا حيث استنشق عبير آبائي.
أقنعة لوجوه غير مقنعة.
خالية من الغمازات والتجاعيد.

ويعبر عن هذه الغربة عن المجتمع ليون داماس في قصيدته «كشف حساب».

أشعر بسخف
وانا البس أحذيتهم، وسترات العشاء .
في قمصانهم المنشاة وياقتهم المصنوعة من الورق،
بنظارتهم الآحادية (المونوكل) وبقبعاتهم،
أشعر بسخف،
بالعرق من الصباح الى المساء،
في ملابسهم الملفوفة حولي بشدة تضعف أطرافي،
وتحرم جسمي من جماله.

ولكن هذه النخبة الزنجية أول من عانى أو أحس بوطأة التميز في العهد الاستعماري، بينما لم تحس بها الجماهير العريضة بنفس الدرجة، وحتى حين

ظهر نوع من التحدي والاحتجاج في جهات أخرى، وأدى الى تبلور القومية، كان انبياء الزنجية ينادون بنوع من التآلف أو الاتحاد مع المؤسسات الفرنسية، من ثم احتملت الادارة هذه الدعوة لأنها لم تكن برنامجا للتغيير، أو لتحريك الجماهير ضد النظام الاستعماري، او بعبارة أصح لم تكن دعوة للعمل ضد فرنسا.

ولما كانت الزنوجة كما حددها سنجور تتحدث عن الغربة ولا تتحدث عن الاستغلال، تتحدث عن الفرد لا عن الجماهير، تخاطب المتعلمين والمثقفين لا الأميين من ثم وجدت استهواء لدى النخبة المثقفة الفرنسية، وكان سارتر الرفيق الروحي لسنجور ممن تبنواقضية الزنجية.

وفي نظر دعاة الزنجية ان انسان المدنية الغربية بلا جذور، خرج من حياة الجماعة الي الحياة الفردية، وفي ذات يوم بدأت هذه السمات الغربية تغزو سكان المستعمرات فاقتلعت الانسان الافريقي من جذوره، ودمرت تقاليده، وأهلكت عددا كبيرا من أهله، ورمت به في عالم الآلة والذرة، فأصبح الزنجي بدوره مشدودا وفريسة لنفس النمط من الحياة المادية الآلية الي يعيشها الأوربي كيف يحارب و يتخد موقفا مضادا من هذا العالم الذي اشتدت ماديته وتكنولوجيته وخلا من الحس والعاطفة ؟ الواقع ان هذا الاستغلال الوحشي للزنجي هو الذي جعله يقترب مرة اخرى من أصله، من مجتمعه حيث يوجد معنى معقول للوجود، وحيث لا يفقد الانسان كلية طبيعته وسجيته.

و يشرح سنجور التضاد بين الأفريقي الأسود والأوربي الأبيض، فهو يقول بأن الاوربيين من أجل فهم شيء ما لابد أن يفتتوه الى أجزاء، ويحللون هذه الاجزاء، و يدفعهم الى ذلك الرغبة في السيادة على الطبيعة، اعتاد الأوربي ان يلوي الطبيعة لخدمة أغراضه المادية، والنتيجة ان الحضارة الأوربية هي حضارة تحليلية رياضية ميكانيكية مادية، حضارة قوة ولكنها خالية من الروح الجماعية والروحانية (٢٠)، وقد عبر بازل ديفسن

B. Davidson عنها اصدق تعبير حينما قال إن الزنوجة لديهم هي وسيلة للاحتجاج، سلاح للنضال للحصول على المساواة، وتحد رمى به أمام عالم ظهر أنه يعطي اهتمامه فقط للانجازات المادية (٢١).

وفي قصيدته نيويورك يقارن بينها وبين بلاده، ويظهر فيها أن جمالها مصنوع جامد، من ثم لابد من انسياب الدم الأسود فيها حتى يزيل الصدأ من مفاصلها ويكسبها حيوية وحياة ونعومة ويتحقق لها الى جانب العقل المجرد العاطفة الجياشة.

نيويورك

نيويورك، لأول وهلة فتنني جمالك

حرت في فتياتك الفارعات الشمراوات ذوات السيقان الطويلة

وبهرتني عيونك الزرقاء المعدنية وخجلت،

وبسمتك الجليدية ففهمت

ألم موجع في الاعماق يخترق الشوارع

والعيون تظللها الكفوف تراعي ناطحات

أخفت وراءها الشمس

أيتها الناطحات يامن تتحدين العواصف بعضلات من الصلب

وطلاء من الحجر الاملس،

ضوءك كله فوسفوري، وأبراجك حمراء كالكبد المثار

اسبوعان، لا اكثر على ارصفة جسر مانهاتن العارية

ثم تدهمك الحمى في نهاية الاسبوع الثالث

وتنقض عليك انقضاضة فهد شد الجوع أعصابه

اسبوعان بلا أنهار، أو حقول، ولا شجر

نيو يورك اسمعي

دعي الدم الاسود ينساب في عروقك

دعيه ينصب انصبابا في دمك في كل جارحة

عساه يزيل الصدأ من مفاصلك الصلبية

دمنا زيت الحياة

عساه يكسب جسورك حنية الأرداف وليونة الزواحف

حينئذ تستعيدون زمانا مضى

وتتحقق الوحدة من جديد

بين أسد الغاب، وأبقار القرى، وأشجار الحقول

و يرتبط الفكر بالعمل، والاذن بالفؤاد، والاشارة بالمعنى

وتعج أنهارك بتماسيح عطر رائحتها

وأفراس نهر عيونها سراب

افتحي عينيك على قوس قزح في ابر يل

انظري قوس قزح، انظري ألوانه، أزهاره

اصغي باذنيك، اجعليها فوق كل الآذان

تسمعين صوت الاله،

خلق الارض وابعاد السماء من ضحكة ساكسفون

ستة أيام وراح

اليوم السابع يغفو و ينام، نومة عظمى، نومة الزنجي

و يعبر ريموند كوينن R. M. Kuenene (٢٢) عن الحضارات التي تمثلها القوى الكبرى بالنسبة له وللافريقيين فيقول في قصيدته «فكر في ٢٦ حزيران» (٢٣)

هل انا مخطىء اذا ما أشعلت الأرض

ورقصت فوق النجوم

اشاهد اوربا تحترق بمدنيتها المضنية

اشاهد امريكا تتفكك بآلهتها من الصلب

اشاهد جلادي البشرية يتحولون الى رماد

هل أنا مخطىء؟ هل أنا مخطىء؟

جذبت هذه النظرية وهذا الاتجاه في التفكير النخبة الفرنسية، خاصة الذين كرهوا قيم الحضارة الرأسمالية، وهذا الاعجاب انعكس بدوره على الكتاب الزنوج و يذهب بعض الباحثين الى القول بأن فكرة الزنوجة لم تكن غريبة على الفكر الفرنسي، بل ان مبادئها تتفق الى حد كبير مع صورة افريقية والافريقيين لدى المفكرين في كثير من المؤسسات العلمية الفرنسية.

فأستاذ جليل مثل يوجين جارنييه (٢٤) Eugene Guernier في مؤلفه عن «اضافة افريقية الى الفكر الانساني» L'Apport de L'Afrique à la Panseé Humaine يأتي بنظرية ماهي الا ترديد لما ينادي به كتاب الزنوجة، عندما يقول بأن العاطفة والنغم تسود حياة الافريقي، ما ظهر منها ومابطن، وسوف يقوم الافريقي باضافته في المستقبل، ولكن جارنييه يستخدم نظريته عن سيادة العاطفة عند الزنوج ليدلل بها على

الفرق بينه وبين الأوربي، ومن ثم يؤجل اليوم الذي يمكن ان يتقبل فيه الافريقي معطيات الحضارة الغربية بما فيها من الاستقلال والحكم الذاتي ، وفي الوقت نفسه يثبت علو مكانة فرنسا، وتفتحها، وفي الوقت نفسه يتفضل بالقول بأن الحضارة الافريقية في المستقبل قد تضيف شيئا يذكر الى الحضارة الغربية (الفرنسية)، هذا الاتجاه من التفكير يفسر لنا السبب في ان بعضا من المفكرين الفرنسيين سواء في المؤسسات الاكاديمية او الاستعمارية رحبوا بالزنوجة، غير انه يجب ان نعرف بان الحكومة الفرنسية لم تترك لهم حرية النقد تماما، فهؤلاء الذين حاولوا الذهاب بعيدا في النقد، صادفتهم صعوبات كثيرة، فقد اغلقت مجلة العالم الاسود (Revue du Monde Noire) بعد ستة أعداد فقط من صدورها لأنه كان يكتب فيها من امثال ربينه مارن R. Maran كلود مكاي C. Mackay ودكتور برايس مارس(٢٥) P. Marce كذلك منعت الحكومة صدور صحيفة صرخة الزنوج Crie de Negre الاشتراكية.

تطور الزنوجة

ولنرى هذه العملية بوضوح اكثر فلابد من تتبع لتطور الزنوجة في مراحلها المختلفة، رغم ان سنجور يعبر في فلسفته عن الزنوجة بأنها نواة دائمة من القيم والمفاهيم، فقد حدثت لها فعلا بعض تغيرات بمرور الوقت،وقد صاحبت هذه التغيرات تغيرات مماثلة في مواقف وأغراض سنجور، تبعا لتحول السنغال من طلب الاستقلال الى الاهتمام بالتنمية.

وقد تطورت الزنوجة على مراحل تاريخية ثلاث، بدأت **الأولى** بتجمع بعض الشباب الزنجي في باريس في الثلاثينيات واستمر هذا حتى الحرب العالمية الثانية، وقد انتمى سنجور الى مجموعة من الطلاب والشباب المثقف الذين كانوا يعملون بالسياسة، والذين كانوا ما زالوا يبحثون عن هويتهم الشخصية. واستمرت المرحلة **الثانية** من الحرب العالمية الثانية حتى حصول

السنغال على استقلالها عام ١٩٦٠، وفي هذه المرحلة اصبح سنجور زعيما مشهورا وعضوا ممثلا للسنغال في كثير من المؤسسات الفرنسية في باريس(٢٦)، وكان الزعماء الافريقيون في هذه المرحلة مشغولين بالمشكلات الخاصة باثبات هويتهم القومية ويحاولون تحديد العلاقة بين فرنسا وأقاليم ماوراء البحار.

اما المرحلة الثالثة فهي التي اعقبت الاستقلال، وتحولت خلالها الزنجية الى مذهب للوحدة والتنمية الاقتصادية والثقافية كما سترى.

١ ـ جذور الزنوجة

يعتبر من اهم ممثليها جين برايس مارس Jean Price Mars من جزيرة هايتي، وإيمي سيزير Aimé Cesaıre من جزر المارتينيك، وليوبولد سيدارسنجور L. S.Sengor من السنغال، وهي جماعة ثقافية أدبية فلسفية لم تأخذ الطابع السياسي لمدة طويلة حتى الى ما بعد الحرب العالمية الثانية. والكتابات الخاصة بأدب الزنوجة وعناصرها متعددة وكثيرة، ويهمنا هنا أن نتتبع الخطوط الخاصة بها.

ورغم ان سيزير وسنجور لم يكونا أعضاء في أي جماعة حزبية، فان حركة الزنوجة توضح مرة أخرى التأثيرات عبر الاطلنطي، وكذلك تداخل الناطقين بالانجليزية والفرنسية من أبناء المستعمرات، وكان الوسطاء في كل جانب هم هؤلاء الزعماء الذين يجيدون أكثر من لغة، اشتهر من بينهم كلود ماكاي C. Mackay من العناصر الناطقة بالانجليزية، بينما اشتهرت بوليت ناردال Paulette Nardal من المارتينيك الفرنسية والتي كانت تجيد الانجليزية، وقد اقامت بوليت ناردال صالونا ادبيا في باريس، حيث كان يجتمع فيه الزنوج الأمريكيون والافريقيون واصبح هذا الصالون هو المركز الثقافي الذي خرجت منه صحيفة مجلة العالم الاسود la Revue du Monde Noıre التي ظهرت في نوفمبر سنة ١٩٣١، والتي كانت

ترأس تحريرها وكانت لها طبعتان انجليزية وفرنسية، وكانت تعتبر انجازا هاما في تلك الفترة، ولم يحل محلها سوى مجلة الوجود الافريقي la Presence Africaine عام ١٩٦١ وكان من اهم كتاب مجلة العالم الاسود رينيه ماران، وبرايس مارس، وديلافوس وليوفود ينيوس وكان من الاعضاء الصغار الذين تجمعوا حول بوليت ناردال ليوبولد سنجور والذي استطاع ان يدخل البيئة الادبية في الحي اللاتيني. غير أن هذه الحقائق غير كافية للكشف عن الجذور التاريخية للزنوجة الا اذا رجعنا الى دائرة او خلفية أوسع عن ازمة الصحوة في العالم الحديث، والتي حركها قيام الصناعة، فكما ظهرت الرومانسية الاوربية كرد فعل او استجابة لتحدي الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، فان الثورة الصناعية أدت الى أن بعض المفكرين أصبحوا يدافعون أو يؤيدون الرجوع الى المثاليات، فقد اشار بعض الفنانين في أواخر القرن التاسع عشر الى ضرورة الرجوع الى الطبيعة في ذلك المجتمع الصناعي الذي اصبح يزداد تعقيدا، وعممت أهوال الحرب العالمية الاولى هذا الشعور بين الاوربيين والامريكيين، بينما كان هذا الشعور من قبل مقصورا على فئة محدودة. وهذه الازمة الروحية التقت مع شكل آخر من نفس الازمة عند عالم الملونين نتيجة الصدام الذي حدث بين المجتمع الحديث والقيم التقليدية افريقية كانت او اسيوية لدى نخبة اشتد لديها الوعي، فظهرت عند الزنوج الامريكيين حركة الرغبة في العودة الى افريقية يتزعمها ديبوا Du Bois قبل الحرب العالمية الاولى، ورينيه ماران الذي اصدر روايته عام ١٩٢١ بعنوان باتوالا، وظهرت المقالات المتعددة في صحيفة القارات، وكذلك في مجلة العالم الاسود. (٢٧)

عندما بدأت نظريات الزنوجة لأول مرة تأخذ شكلها في باريس في تلك الفترة كانت لها خصائص ثورية اول الامر، ثم اقتربت من كونها مذهبا للاستعلاء العنصري قد يتخذ موقفا مضادا ويمنع الاتصال والتكيف مع الفرنسيين، ولكن سرعان ما تعدلت هذه العوامل، وعندما نشبت الحرب

او قبلها تحولت الى مذهب يصلح للحوار مع الادارة الاستعمارية،وقد القى سنجور محاضرته الشهيرة عن الزنوجة في جامعة اكسفورد عام ١٩٦١ (٢٨)، ناقش فيها اصل وتطور الزنوجة من النواحي النفسية والتاريخية والاجتماعية. ويقول فيها: إنه اذا اردت ان تفهم الزنوجة، فلابد للانسان من العودة الى الحي اللاتيني خلال فترة مابين الحربين، فقد نشأت بين طلاب ذلك الحي، بين المفكرين الزنوج الذين كانوا يبحثون عن هويتهم الشخصية. وبدأ سنجور حديثه بسؤال: ألم تكن الزنجية عنصرية جديدة؟ وكان جوابه المباشر غير واضح حين قال: سأعترف لهم أنها كانت في بدايتها عنصرية ضد التمييز العنصري (An Anti-Racist Racsm) كما حددها سارتر في مقاله «أورفيوس الاسود» الذي قدم به مجموعة من شعر الزنوجة ثم استمر سنجور في تحليل موقف الطلبة الزنوج:

«فلتفترضوا أنفسكم بجلد أسود لمدة خمس دقائق، انا أعرف ان هذا صعب عليكم، ولكن ليس هناك من طريقة لاكتساب الخبرة عن موقفنا حينئذ سوى هذه الطريقة، ارجعوا بانفسكم الى الوراء ثلاثين عاما الى سنوات مابين الحربين، كنا طلابا زنوجا نعيش في الحي اللاتيني بفورة الشباب وعاطفته، وايضا بسذاجته وعفويته»

وقد وجدوا انفسهم وقد غمرهم الاحباط لانه ينظر اليهم على انهم سود البشرة، خالين من العبقرية أو القيم، يأتون كالشحاذين الى مائدة الرجل الابيض. وكانوا اول الامر غير عالمين بالتمييز اللوني، يعتبرون انفسهم من الشباب المثالي، ومع ذلك فكان الاوربيون ينظرون اليهم على انهم سود.

«علمونا في المدارس الثانوية اننا ليس لدينا أي حضارة، لم نكن مدعوين على مأدبة العالم، بل أننا عبارة عن شمع طري يمكن تشكيله وانكم يمكن ان تمنحونا طريق الامان الوحيد وهو السماح لنا بالاندماج»

وهكذا نجد الظلم في ان يحكم عليك بسبب صفة سطحية، وهي لون

جلدك، و يعبر سنجور عن لون الجلد هذا بأنه أشبه بالسجن الذي يحجب حقيقة الشخصية. ومع ذلك فان سنجور في شعره يؤكد دائما على الجمال الأسود. ولكن هذا العار او الخزي من لون الجلد ضمن ان يكون رد فعل حين يقول:ـــ

وعلى العكس، كان الفرنسيون هم الذين أجبرونا ان نكشف عن أنفسنا أو نستكشف أنفسنا بأنفسنا، ففي الأيام الأولى احسسنا بأننا سنكون عاجزين عن الاندماج، ولكنا استطعنا فيا بعد ان نتشرب اللغة الفرنسية والرياضيات، ولكننا كنا غير قادرين على ان ننسلخ من جلدنا الأسود أو روحنا السوداء، لذلك صبرنا نبحث جاهدين عن روح جماعية (Collective Soul) والبحث عن روح جماعية يعد أمر معقولا ومقبولا عندما نتذكر بان كلا من سنجور وسيزير وداماس لهم خلفياتهم المتباينة، أتوا من جهات متفرقة من العالم، وتتباين ظروفهم الاجتماعية، لا يؤلف بينهم سوى لون جلودهم و يأسهم، وربما الاصول المشتركة البعيدة، ونظرا لأن حالتهم النفسية او روحهم غير مستريحة، فليس هناك افضل من البحث عن روح جماعية.

وقد ساعدتهم فرنسا بكتابها وعلمائها الانثربولوجيين و باحثي ما قبل التاريخ والفنانين الذين صنعوا الثورة الثقافية الفرنسية.و يستمر سنجور في خطابه بقوله:

ماذا تعلمنا من هؤلاء؟ تعلمنا منهم ان دخول الاستعمار افريقية قد أحرق ظهر افريقية و بخاصة تجارة الرقيق التي كانت مذبحة للقيم، وعلمونا أن هناك كانت حضارات زنجية مزدهرة، وأنه لا يمكن للتفسيرات المنطقية وحدها ان تغير العالم، بل لابد من إضافة التفسير الحدسي الذي يخترق الحقائق والماديات وكل الأشياء السطحية، و يعترف سنجور في كلامه عن آثار هذه الاكتشافات العلمية عن افريقية بأنهم قاموا وهم سكارى بخمرة هذه الحقائق الجديدة عن قارتهم بالانقضاض على العنصرية، وكدعاة

للزنجية رموا بأنفسهم كالسيوف المسنونة في هجمة على القيم الاوربية التي لخصوها لنا في الثلاثية المعروفة : التفكير المنطقي ، والتكنولوجيا ، والاقتصاد النقدي أو التبادلي

ولا ينكر دعاة الزنجية بدائيتها ولا يخجلون من إعلانهم عن عاطفيتها وحسيتها الفائرة، بل يزهون بها، ويعلنون أنها الدواء الذي يستطيع به الزنجي وحده ان يوصي العالم باعطائها لمريض بتخمة الآلات والارباح والحساب، انظر قصيدة المرأة السوداء لسنجور حين يقول:ـ

أو هو كنفو مسترخية على سريرها
من صنع غاباتها
سيدة افريقية الأسيرة
دعي الجبال ترفع عاليا راياتها
جبال شكل الذكر
اني هنا أرصدها
واعرف انها امرأة
عرفتها بوجهي، عرفتها بلساني
اعرف انك امرأة
والآن ساركب مرة اخرى بطون الرابية
اغوص في نعومتها

وهكذا وجدت الزنوجة نفسها واصلها في العاطفة لا في الخلاف السياسي او في الاضافات العلمية الاكاديمية. وفي بداية هذه الحركة، كانوا كالمتعصبين للدين الجديد، اكد هذا التعصب وزاد منه الامتعاض

والاشمئزاز اللذان ولدهما الحكم الاستعماري، من ثم كانت تحديا ومعارضة تامة للحضارة الغربية.

هكذا كانت فترة مابين الحربين هي فترة تخمر الفكرة لدى المفكرين الزنوج، كانت مرحلة رد الفعل ضد علمانية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ومساءلة العقلانية الاوربية، مما كان له أثره على تحول الطلاب الافريقيين عن كل شيء غربي واتجاههم نحو أصول الزنجية او منابعها. وفي استعادة سنجور للماضي يقول: هذا التحول الى الأصول، وهذا الاستخفاف بالقيم الاوربية، تحول بسرعة الى احتقار لها، ولماذا نخفيها؟ انها عنصرية، وكنا نعتقد بأننا نحن السود، ملح الارض، نحن حملة رسالة غير عادية لا يمكن للآخرين ان يحملوها .. بعد سلبية قيم الرجل الابيض كان التأكيد على القيم الزنجية.

ومع ذلك فان هذه العنصرية للزنوجة في مرحلتها الأولى سرعان ما خمدت، وكما يقول سنجور في خطابه مبينا هذا التحول عن الاستعلاء العنصري في اواخر الثلاثينات «كان تطرف النازية، والكوارث التي بدأت تظهر نتيجة لها من أهم العوامل التي جعلتنا اكثر اتزانا، فهذه الكراهية والعنف وفوق هذا وذاك تلك الدموع وذلك الدم كانت هذه جميعا مما لا نميل اليه، بل هي ضد نزعتنا الى الحب غير اننا يجب ان نشير الى ان هذه النزعة العنصرية لم تختف تماما، ولكن سنجور بدا يعدلها، او بمعنى آخر حدث ابدال وذلك بالتأكيد على الاختلافات الثقافية، فعند نشوب الحرب كان قد وصل الى أنه رغم وجود الاختلافات العرقية، فانها لا تتضمن بالضرورة استعلاء عنصري او احساس بالدونية. وركز سنجور على الجانب الثقافي للمشكلة، وفي خطابه في اجتماع الغرفة التجارية في داكار في سبتمبر عام ١٩٣٧، بدأ حديثه بالتأكيد على انه ليس في نيته اقناع المستمعين الاوروبيين بأفكار ما، ولكن باعطائهم المنظور الصحيح لمشكلة الثقافة في افريقية الغربية الفرنسية، وعلى حد قوله «اعظم مشكلة

في تلك الفترة » وقد حدد سنجور الثقافة في هذه المحاضرة بقوله :ـــ

إنها تفاعل بين الانسان وبيئته المحيطة به بهدف الوصول الى نوع من التوازن بينهما، والتربية لا شك اداة من ادوات الثقافة، وتمثل بالنسبة للطفل تلك الخبرة تنقل اليه عبر الاجيال السابقة. على هيئة مفاهيم وافكار ووسائل الخ... فالثقافة ليست مظهرا او قشرة خارجية يمكن الحصول عليها في عدة سنوات في المدرسة الفرنسية، اذ يختلف الافريقيون عن الأوربيين بسبب اختلاف خبرات الاجيال عبر القرون، فهؤلاء السود الذين اصبحوا من المثقفين والمفكرين الذين يعيشون في فرنسا، كانت نشأتهم في بيئة وارض افريقية، من ثم فهؤلاء الافريقيون لا يمكن ان يعاملوا ببساطة على انهم فرنسيون سود. وان على المفكرين السود بدورهم واجبا خاصا، فالقيم الافريقية قد خمدت، عمل الاستعمار على الحط منها، وبلغ الافريقيون الدرجة التي فقدوا فيها طعم الحياة، كما فقدوا شخصيتهم. فاذا كانت الثقافة هي تفاعل، فان رسالة المفكرين السود هي الحفاظ على القيم الافريقية، وايقاظ اخوانهم من سباتهم هذا.

غير ان التمييز بين الاختلافات الثقافية والاختلافات الجنسية قد يكون معناه زيادة الفرقة والاختلاف، ولكن سنجور يقول بأن الاختلافات العرقية سوف تظل قائمة، ولكن ليس معنى هذا التباعد بين الأجناس، بل التقريب بينها في ظل تفاهم مشترك وعلى حد قوله : ما أجمل أن نكون متنوعين ولكن متآلفين، وقد خشي الأوربيون التأكيد على الاختلاف الثقافي والجنسي، والذي قد يتبعه طلب الاستقلال السياسي، ولكن من الواضح ان سنجور عام ١٩٣٧ لم يكن يهدف الى ذلك، بل قال « دعنا نجعل من مواطني غرب افريفية مواطنين فرنسيين » وبحلول عام ١٩٣٧ خرج سنجور من المرحلة الأولى، وهي مرحلة التعصب العرقي التي صحبته طالبا في أوائل عهده بباريس الى المرحلة الثانية التي يتكلم فيها عن السلالة ولكنه لا يأتي على ذكر الاستعلاء العنصري. ولذلك كتب يقول

عن الزنوجة: من الملاحظ ان الغضب هنا ليس معناه حقد أو تكشير أو امتعاض، وانما الشعور هنا هو ضد التميز العنصري.

وفيما يختص بموضوع الاجناس أو السلالات نجد ثلاثة مداخل :ـــ

١ ـــ نظرية التفوق العنصري والتي تقول بان بعض الناس نظرا لعوامل بيولوجية أو غيرها اكثر رفعة عقليا أو ثقافيا أو جسميا.
٢ ـــ نظرية الخبرة المشتركة، ويقصد بها ان جميع الناس الذين ينتمون الى جنس واحد او حضارة واحدة يكونون قد مروا بظروف تاريخية واحدة وبالتالي اشتركوا في مؤثرات واحدة وأصبحت لهم تقاليد وعادات واحدة وبالتالي مواقف واحدة، وان الاختلافات البينة بين البشر ترجع الى تباين الظروف التاريخية والاجتماعية التي تؤثر فيهم.
٣ ـــ نظرية تعترف بالاختلاف الوراثي بين البشر سلاليا وثقافيا. ولكن ليس معنى هذا استعلاء جماعة على اخرى، وهذا المدخل الاخير هو الذي رست عليه سفينة سنجور، فالزنوج أو السود هم سلالة عاشت تحت ظروف قهر، وبالتالي نما لديهم شعور وقيم فريدة (٢٩).

٢ ـــ الزنوجة منذ الحرب العالمية الثانية الى استقلال المستعمرات.

بدأت افريقية بعد الحرب العالمية الثانية تدخل مرحلة جديدة من الناحية السياسية، وهي مرحلة المطالبة بالاستقلال من جانب المستعمرات، ولكن هذه الفترة ايضا كشفت عن الاختلاف بين قادة وساسة المستعمرات الناطقة بالفرنسية، وتلك الناطقة بالانجليزية نتيجة لاختلاف سياسات الدول المستعمرة، اذ كانت الامبراطوريات الاستعمارية اللاتينية الاصل كفرنسا واسبانيا والبرتغال تتبع سياسة الدمج وذلك بتشجيع المواطنين

الافريقيين على اقتباس ثقافتهم وترك الثقافة الافريقية، ومن ثم يحق لهم ان يحصلوا على مكان مناسب اجتماعيا وعقلياً وقانونيا في المجتمع الغربي، بينما اختلفت السياسة البريطانية، فقد كانت هناك محاولة لتجربة سياسة الدمج في القرن التاسع عشر في بضع مناطق محدودة من افريقية كما في غامبيا، سيراليون وغانا، ونيجيريا من خلال البعثات التبشيرية، ولكن تم العدول عن هذه السياسة فيما بعد، وتقرر ان يحيا الافريقيون في مجتمعاتهم وتحت حكم رؤسائهم التقليديين، واذا تلقوا بعض التعليم فهو لتسهيل عمل الادارة الاوروبية في المستعمرات، من ثم فمن الخطأ تشجيع نمو طبقة من المتأوربين Europinized ، لذلك لم يكن هناك من الافريقيين في المستعمرات البريطانية من يبحث عن هويته، فهو يعيشها، بينما الافريقي الذي تعلم وسلك طريق الحضارة الاوربية وحاول الاندماج هو ابن المستعمرات الفرنسية او البرتغالية والاسبانية، الذين خرجوا من سان لويس، وليبرفيل، وساوتومي وفي بعض الاحيان تخلوا تماما عن ثقافتهم الافريقية، بحيث أصبحوا فرنسيين أو برتغاليين أو إسبانا ولكن سود(٣٠)! فهؤلاء هم الذين واجهوا مجتمع باريس، ولشبونة، وفوجئوا بان لون الجلد ما زال يحاصرهم فحاولوا استعادة حضارتهم يتحدون بها حضارة الغرب وثقافته.

لذلك فالافارقة اللاتين كما يسمونهم، وجدوا أنه من الضروري الحصول على استقلالهم الحضاري قبل التقدم للحصول على استقلالهم السياسي، بينما ساسة المستعمرات الانجلو ساكسونية كما يطلقون عليها، تقدموا فورا ومباشرة في طلب الاستقلال السياسي، فبينما كان قادة وساسة المستعمرات الانجليزية من امثال نكروما وكينياتا يعقدون مؤتمر جميع الافريقيين في مانشستر في الاربعينيات، وحضره شخصيات لها اهميتها مثل ديبوا من الولايات المتحدة الامريكية، واخذ المؤتمر الطابع السياسي، كان سنجور، وايمي سيزير واليون ديوب وغيرهم من أبناء المستعمرات الفرنسية يبحثون عن هويتهم في الزنوجة، والبحث عن الذات بدلا من تحريك

الجماهير، وهؤلاء لم يهملوا المشكلات السياسية والتقدم الاقتصادي، فقد كانوا يوافقون على ان تكون هناك مصالح مشتركة بين افريقية وفرنسا، ولكنهم طالبوا بالمساواة في المعاملة في جميع المجالات المادية والثقافية، والفرص المتساوية لجميع الناس الذين يحملون مؤهلات متساوية.

على العموم فان دعاة الزنوجة في هذه المرحلة استمروا في التأكيد على العناصر التي تربط فرنسا بافريقية، أو عالم البيض بعالم السود، وتحولت الزنوجة من اداة للصراع الى نظرية تركيبية ووحدوية، تدعو الى التضامن والتعاون والاندماج (٣١) بين الاثنين وهذا واضح في قصيدته «باريس تحت الثلج» والتي نسى فيها كل ما فعلته فرنسا في بلاده ومواطنيه، فقلبه عطوف على اعدائه حيث يقول :ـ

لقد رضيت بثوبك الابيض الذي يفوق الملح في لسعه
وها هو فؤادي يذوب الان كما يذوب الثلج تحت الشمس
وانسى
الايدي البيضاء التي ملأت البنادق ودمرت بها الممالك
الايدي التي الهبت العبيد بالسياط
الايدي المعفرة بالغبار
الايدي البيضاء المعفرة بالبارود التي صفعتني
الايدي البيضاء التي قطعت الغابة العالية
تلك الغابة التي تهيمن على افريقيا
لقد قطعت الغابة العذراء لتحيلها الى فلنكات للسكك الحديدية
قطعت غابة افريقية كي تنقذ الحضارة التي كانت تفتقر الى الرجال

....

آه يا الهي، لقد ذاب فؤادي
كما يذوب الثلج على أسطح باريس
تحت شمس طيبتك

إنـــه **عطـوف** علـى أعدائـي
اخوتـي ذوي الايـدي البيضـاء من غير ثلـج

ودخلت اللغة ايضا لتكون احد العناصر الاساسية للزنوجة والتي تطورت بنفس الطريقة.

فـاللغـة هـي عـامـل أسـاسـي لـه نـفس الأهمية كالجنس في وسائل الاتـصال والـثقـافـة والـصراع. وقـد كـتـب شـاعـر هـايـتـي لـيـون لالـو (Leon Laleau) فـي مختـارات مـن الـشعر الجديد الزنجي الملاجاش عام ١٩٤٨ :

هل تحس بهذه المعاناه

وهـذا الـيـأس الـذي لا يـعـادله شيء
ان يـقـع فـي مـصـيـدة كلمات فرنسا
ذلـك الـقـلـب الذي أتاني من السنغال

وهكذا يحس الفنانون بعدم الارتياح للكتابة بلغة اجنبية، فهم يشعرون انهم وقـعـوا فـي مـصـيـدة عـندما وجدوا أنفسهم مجبرين على هجر اللغة الأم والـتـعـبير بـلـغـة الأم بـالتبني. ومن ناحية أخرى فان المشاركة في اللغة مع فـرنـسـا تـتـطـلـب من النخبة الافريقية الذين يجيدونها أن يحيوا حياة النخبة الـفـرنـسـيـة و يـشـاركوهم في قيمهم الغربية، و يسعوا الى مكانة بينهم بدلاً من الالـتـحـام بجـمـاهـيـرهم الوطنية، والمشاركة في اللغة في حالة دولة متقدمة وأخـرى مـتـخـلـفـة دولـة فـقـيـرة لا تـقـدر على اقامة مؤسسات للطباعة، او مؤسسات تعليمية او جامعية، معناه ان هذه الدولة الفقيرة سوف تقرأ كتب الـدولـة الـغـنـيـة وصـحـفـهـا ومجلاتها، وتـتـأثـر بـأفـكـارها، وحتى بتطورها الـتـكنولوجي، وسوف تبادل الدول الفقيرة بطلبتها الزائرين وفنييها، الفنيين مـن الدولة المتقدمة. ولقد كان سنجور في الثلاثينات ينادي بأنه لا مدينة دون أدب يـعبر عنـهـا، و يـنير الطريق أمام قيمها، ومن المستحيل التعبير عن

أدب قوم بغير لغتهم، وذهب الى القول بأن أدبا زنجيا يكتب بلغة فرنسية قد يكون جائزا كما هو الحال في هايتي، ولكن هذا الادب لا يمكن أن يعبر عن روحنا، فهناك مذاق خاص، ونكهة خاصة وعبير معين، ونبرة خاصة وهذه جميعا لا يمكن أن تكون لغة أوروبية وسيلتها.

وفي بداية هذه الفترة كان سنجور يعبر عن ضيقه باللغة الفرنسية حين قال:

غريب أنت عني
في لباسي ولساني،
أيها القلب المطوق،
آذاك الشقل المعار
من أوربا،
هذه الاحرف ثلج من فرنسا،
تخنق القلب الخفوق الحي
من سنغال،
كل ما القاه في هذا شقاء ووجع
لا امل ارجوه،

ومع هذا تبنى فكرة ازدواجية اللغة، بمعنى ان تكون اللغة الفرنسية لغة الاعمال العلمية، بينما يكتب الادب من شعر ونثر وقصة باللغة الوطنية، ولكنه في عام ١٩٦٣ عارض هذه الفكرة، وتخلى عن تأييده لفكرة أن اللغة المحلية هي التي يمكنها أن تعبر عن الذات، واصبح من الداعين الى ضرورة استخدام اللغة الفرنسية. وقالها بصراحة ان عدم وجود خيارات هو السبب الرئيسي لاستخدام الكتاب الافريقيين للغة الفرنسية حين قال «انا اكررها، إننا لم نختر، لقد كان وضعنا كشعوب مستعمرة هو الذي فرض علينا لغة المستعمرين» بل ووصل بعد ذلك الى مرحلة القول بانه حتى لو كان هناك اختيار فانهم كانوا سوف يختارون الفرنسية فلقد كانت اللغة

الفرنسية في القرن الثامن عشر هي لغة الثقافة العالمية، واذا كان من يتكلمون اللغة الانجليزية، والصينية والروسية اكثر عددا اليوم، وان اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لبضع دول، فان هذا لا يهم كثيرا، فالفرنسية هي اللغة الاعظم فهي لغة الادب، والامانة، لغة الجمال، والوضوح »

وهكذا وجدنا سنجور في اللغة كما في السلالة يغير موضعه تماما من معارضة وعداء شديدين الى هدوء وتقبل تام.

٣ ــ الزنوجة بعد الاستقلال ومرحلة البناء القومي

دخلت فلسفة الزنوجة بعد الاستقلال دورا جديدا، فقد حاول سنجور ان يكيفها تبعا لمطالب العصر الملحة وهي بناء الامة والتنمية الاقتصادية. وتميز فكر سنجور في هذه المرحلة بظاهرتين أساسيتين في تطور الزنوجة كمذهب، فالأولى تأثر فيها بافكار تيلاردي كاردان (Teilhard de Chardin)، فوضع الزنوجة والثقافة الفرنسية في اطار اضافتها للثقافة العالمية، ووضح المظهر الثاني بعد عام ١٩٦٣ بصفة خاصة حين اصبح سنجور اكثر اهتماما بمطالب التنمية، وحاول ان يستخرج من الزنوجة مذهبا عمليا لبناء الامة وتنميتها (٣٢).

الحضارة العالمية:

يذهب الباحثون الذين ينكرون الاستعلاء العنصري إلى ان طريق التنمية البشرية يتفق الى حد كبير او يسير موازيا لخط التقاء الاجناس او السلالات المتعددة، وقد وجد سنجور في هذه الفكرة مبررا للزنوجة، اي أن الذي يصنع الحضارات العظيمة هو اختلاطها وليس بهضم احداها وتمثيله، ذلك ان كل حضارة لها مميزات فريدة، من ثم يجب على الزنوج ان يزرعوا قيم الزنوجة، وأن يوقظوا الطاقات الكامنة فيهم.

وقد رحب سنجور بصحوة العالم الثالث لا لتحرير شعوبه، ولكن لما يمكن ان يضيفوه الى الحضارة العالمية، واشتراك دول جديدة في السياسة

العالمية معناه ان اليوم الذي تظهر فيه حضارة عالمية وتصبح حقيقة واقعة قد اقترب، وفي نظره ان الاستعمار قد ساعد في الاسراع نحو الحضارة العالمية فيقول :ـ

منذ بداية هذا القرن، بدأت تضيق الفجوة بين سكان وشعوب العالم نتيجة لثلاثة عوامل : اولها المد الاستعماري الأوربي، والثاني كثافة وتعدد وسائل الاتصال، والثالث هو استقلال المستعمرات، فقد اقتربت اجناس العالم من بعضها نتيجة تفاعل العوامل الثلاثة السابقة، وفي هذا المحتوى يجب دراسة الزنوجة «فالحضارة الأوربية التي قدمت لنا على انها الحضارة العالمية، غير جديرة بهذا الاسم نظرا لأنها ينقصها الطاقات الكامنة في آسيا وافريقية، وفي الحقيقة لا يمكن أن نطلق عليها الحضارة الانسانية نظرا لانه لم يشترك فيها ثلثا البشر في العالم وهم ناس العالم الثالث !

الزنوجة والتنمية :

اذا كان الطابع الغالب على سنجور هو الرومانسية والتجريد، فقد تحول تفكيره في الداخل اي في السنغال الى متطلبات الحياة اليومية والتنمية الاقتصادية، وخاصة بعد خلعه رئيس وزرائه وزميل كفاحه مامدو ضيا عام ١٩٦٣،والذي كان متخصصا في الشئون الاقتصادية. وتحولت الزنوجة الى مذهب يهتم بالانتاج، ويحث الناس على بذل مزيد من الجهد.

وقد لاحظ سنجور ان التخطيط يعتمد على العلم والتكنولوجيا، بل على احدث ما وصل اليه العلم واحدث الاساليب التكنولوجية، من ثم أصبحت الحياة لا تعتمد على «الحق» وهو ميدان الفلسفة، بل ايضا على الكفاية وهي الضرورية للدول النامية في المرحلة الحالية، غير ان الاهتمام بالتكنولوجيا والانتاج ليس معناه نسيان الهدف المطلق، فالانسان يجب ان يميز بين الاهداف الآنية العاجلة، وبين النهايات المطلقة، فالهدف العالمي الآني هو الوصول الى مجتمع الكفاية والرخاء، بينما الهدف النهائي والمطلق

اذا كنا مخلصين للانسانية لابد ان يكون مجتمع الثقافة الرفيعة. و يذهب سنجور ايضا ليؤكد انه بوضع المشكلات الثقافية في ذيل برامج التنمية يعرضها للنسيان والاهمال وهو امر خطير للغاية، فلا يمكن ان يرضينا عالم وفرة مادية فقط، عالم آلي تسود فيه السيارة، والثلاجة، والمكيف، والتلفاز، عالم دون مسرح، وسينما، وموسيقا، ورقص، وكتب، وتسجيلات، عالم ينقصه الخيال، او بمعنى اخر عالم دون فن، انه لا شك سيكون عالما ميتا لا يستحق ان يعيش فيه الانسان(٣٣).

على العموم هو يحاول ان يجمع بين الاثنين، ففي خطابه أمام جمع من المزارعين في مسجد بلدة كافرين في السنغال عام ١٩٦١ يقول :ـ

«ان الامريكيين هم امريكيون قبل أن يكونوا شبعا رأسماليا، والروس بيض وأوربيون قبل أن يكونوا شيوعيين، ونفس الحال بالنسبة للصينيين، لذلك لا يمكن أن نبني استقلالنا الوطني دون أن نفخر بالزنوجة، ولا أقصد بالزنوجة هنا لون الجلد، رغم أننا لا نستحي منه، وانما أقصد بالزنوجة القيمة الدائمة للحضارة الزنجية، والروح الجماعية، واحترام القيم الروحية»

(الخلاصة)

نشأت الزنوجة بين فتية مفكرين من ذوي الأصل الزنجي سواء من جزر الكاريبي أو افريقية بغرض الحفاظ على كيان وشخصية منفصلة عن البيئة الفرنسية التي يعيشون فيها، ثم تحول مفهومها الى مذهب يربط هذه الشخصية بالدولة الأم أو الدولة المستعمرة وكانت سماتها التجريد والرومانسية، ولكن نبضها الأخير كان يدق بالبرجماتية و بالواقعية، والى الآن لا تعتبر الزنوجة في السنغال مذهبا جماهيريا، وجمهورها الذي يصغي اليها اما من الفرنسيين أو من الزنوج المثقفين.

معارضــو الزنجيــة

غير أن الـزنجية وان وجدت لها صدى وتأثيرا في انحاء مختلفة من القارة وفي فرنسا، فقد وجدت أيضا من عارضها، وكان من عارضها بصفة خاصة مـن الكتاب الافريقيين الناطقين بالانجليزية، و يرون فيها دعوة للرجوع الى الوراء، لا دعوة للبعث.

فـيعترض ازقيال مفاليلي (٣٤) (Ezekiel Mphalele) علـى الـرومـانـسيـة والـتـبسيط الذي تضفيه الزنجية على الحياة والتاريخ الافـر يقـي، فـالـزنـوجة في نظره لا تعطينا أو لا تظهر لنا سوى نصف، بل ونـصف مزيف غير حقيقي لقصة افريقية، و يعبر عن هذا الرأي في كلمته في مؤتمر الادب الافريقي الذي عقد بداكار في ابريل ١٩٦٣ بقوله : —

«من الذي بلغ من الغباء غايته لينكر الحقيقة التاريخية بأن الزنوجة كانت احـتـجـاجـا وفـي نـفـس الـوقـت تـوكيدا ايجابيا للقيم الأفريقية ؟ فكل هذا واضـح، ولـكـن الذي لا أقبله هو ذلك الشعر الذي جعل من افريقية قطعة رومـانـيسـة، كـرمـز للبراءة والنقاء والبدائية ، أني لأشعر بالاهانة عندما يـذكـر بـعـض الـنـاس بـأن افـريـقـية أيضا ليست قارة عنف، فأنا شخص عـنـيـف، وأفخر بهذا، لأنها ظاهرة عقلية صحية، وفي يوم من الأيام سأنهب واغـتـصـب، سـأقطع رقبة شخص ما، سأقلب حكومة، وسأنظم ثورة، سوف أصـطـاد أغـنـياء الزنوج السمان الذين يستغلون الزنوج الضعاف و يدمرونهم، سـوف أكـون رأسماليا وو يل لهؤلاء الذين يعترضون طريقي، سوف أهاجم الـبـورجـوازيين الـسـود في نفس الوقت الذي أزرع فيه حديقة وأربي كلابا و ببغاوات، اقرأ واسمع الجاز والموسيقا الكلاسيك، ولا شك أن هذه ليست صورة الافريقي في ذهن النخبة الافريقية التي تعلمت في باريس وتصف نفسها بأنها متحضرة »(٣٥).

و يـعـتـرض مـفـاليلي كفنان على هذا الاهتمام الجديد بافريقية و ينعته بـأنـه سـطـحـي، ولا يخلـق إلا شـعـرا رديـئـا في نظره، فالجماهير الافريقية

العريضة لم تتأثر به، وظلت حياتها كما هي، والتغني بالماضي الافريقي والحياة الافريقية ليست الا رد فعل لما حدث لهؤلاء الذين أرادوا الاندماج في المجتمع الفرنسي والذين تشربوا الثقافة الافريقية، فنجد في أشعارهم تمجيد الاسلاف، وأقنعتهم التي كانوا يلبسونها وتماثيلهم المحفورة في الخشب والبرنز، ويحاولون تأصيل أدبهم الروائي، ذلك لأنهم يحسون بأنهم وصلوا الى نقطة النهاية في الثقافة الأوروبية، ومع ذلك فما زالوا غير مقبولين كأعضاء في المجتمع الفرنسي، من ثم فلقد أصبح هؤلاء تجسيدا لرد الفعل القوي أو للاحباط الذي شعروا به رغم أن منهم من تزوج فرنسية. فدعاة الزنجية في نظره قد تركوا القضايا الأساسية، سياسية واجتماعية (القومية) في فترة ما قبل الاستقلال، لخلق روابط مع فرنسا، أين هؤلاء من حال اخوانهم المسحوقين في افريقية، كما في روديسيا وجنوب افريقية، انظر الى وصفه ذكريات من طفولته وكيف كان يحيا في سيرته الذاتية بعنوان : النزول الى الشارع الثاني (Down Second Avenue).

(ليلة السبت، الدنيا ظلام، أصوات شخير تصدر عن عمي في الركن، تشبه الخوار الأخرس للبقرة، شقيقي الأصغر لا يتحرك بجواري، ولا عمي الأصغر الذي يرقد بجواره مثلنا تحت الغطاء نفسه .. إني اعرف أن الهواء البارد القادم من الثقب الموجود في الواح الأرضية سوف يجلدنا حتى يوقظنا من النوم كلما راح يلهو فوق اللحم العاري، وسوف تستقر رجل شخص آخر على عنقي، وعندئذ سأحلم بأن جنيا يمزق حلقي، وسأقفز من الفراش صارخا، وشقيقتي على الأرض أيضا ترفس أرجل المائدة التي تنام تحتها، أما الجدة وأطفال الخالة «دورا» الثلاثة فيرقدون في هدوء على السرير القديم الذي يتسع لشخصين، الباب الوحيد والنافذة الوحيدة مغلقان ... إنني لا أستطيع النهوض لأتمشى في الفناء، لأن عظامي تؤلمني، فقد كنت أنظف المنزل وأقلب كل شيء فيه رأسا على عقب، واختنق من الغبار الذي كنت أثيره ... ثمة صفائح بيرة مغروسة في الأرض وراء كومة الصفائح، والرائحة النفاذة للشعير المتخمر، والبقع الرمادية على الأرض حول

الثقوب، ليس من السهل على أي شرطي ان يهتدي الى هذا ليلة السبت، ان الرجال الذين يرتدون الزي الموحد قد يكونون الآن في الفناء يتشممون (يقصد الشرطة يتشممون رائحة البيرة لأنه ممنوع عليهم عملها) وعلى البعد ناحية أقصى غرب «مارابستاد» (البلدة) ثمة صفارة شرطي، ونباح الكلاب، من المؤكد أن يكون ثمة شخص يجري فرارا من القانون، وزنزانات الشرطة والمحكمة والسجن، ليلة السبت والساعة العاشرة الا عشر دقائق، متوجها الى الانسان الأسود كي يخلي الشوارع، كي يلزم بيته، ليكون بعيدا عن متناول الشرطي، ان صوت الناقوس يطفو في الهواء عاما بعد عام في العاشرة الا عشر دقائق، وعندئذ لابد ان يجري الانسان الأسود الى بيته، ولا بد أن ينام الانسان الأسود أو يحصل على اذن ليلي خاص، ان الصفارة قريبة جدا الآن، ولا بد أن يكون الرجل المطارد في الشارع الثاني (الذي يسكنه مفاليلي) لكن الناقوس يستمر في الصلصلة بطريقة شهوانية، وهكذا لابد أن تجرى أيها الانسان الأسود حيثما كنت، اجر...».

ويعلل مفاليلي كون معظم انتاج كتاب جنوب افريقية من القصة القصيرة وليست الرواية الطويلة بقوله:

«إنه ليس من السهل على الافريقي المطحون في جنوب افريقية ان يكتب الرواية الطويلة فالقصة القصيرة سريعة المفعول مع اقتصاد في اللغة والوقت، والقصة القصيرة في مثل هذا المجتمع المتعدد الأجناس تمر خلال ثلاث مراحل، الرومانسية والهروب من الواقع، الاحتجاج على هذا الواقع، السخرية من هذا الواقع وهي نقطة التقاء بين الاحتجاج والقبول».

فلتتصور نفسك إفريقيا وتعمل في احدى مدن جنوب افريقية، فعليك أن تقوم برحلة خمسة عشر ميلا يوميا في الذهاب الى مقر عملك والاياب منه لأن السكن عادة على اطراف المدينة، وليس في داخلها مع البيض، وفي طريقك الى عملك وايابك منه عليك أن تشارك مئات المئات من العمال مثلك المحشورين في عربة قطار كهربائي، لدرجة أن البعض يجلس

على النوافذ، وعلى الابواب بحيث لا يمكن أن تغلق، أنت بين هذا العدد الغفير، والذي لا يستطيع أحد منهم أن يقف مستقيما، أو قد تقف في طابور الاتوبيس الطويل من الساعة الرابعة والنصف الى الساعة الثامنة مساء، كل يوم من أيام حياتك تقضيه بهذا الشكل. فاذا خرجت من القطار عليك أن تبحث عن المخرج الخاص بك لأنك لست أبيض، واذا خرجت الى المدينة الى مقر عملك مع البيض فسيصادفك مرة ومرات ما يذكرك بلون جلدك، فالشرطة ستوقفك لتسألك عن تصريحك (للعمل في المدينة) وذلك أيضا في طابور طويل، وقد تكون سعيد الحظ ولم تنس تصريحك، فاذا بدأ العمل، فلا تدري ماذا سيحدث أثناء اليوم بسبب رئيسك الأبيض. وعندما ترجع الى مسكنك بنفس الطريقة التي خرجت بها صباحا، فلن يكون وصولك قبل التاسعة مساء، وأنت تحس بارهاق شديد جسميا ونفسيا، فاذا كنت موهوبا وجلست للكتابة، فان جسمك كله ينتفض، وتخرج الكلمات تعبر عن الخبرة الاليمة والمرارة العالقة في حلقك، في وقت قصير وليس الحال كذلك بالنسبة للكاتب الأبيض (٣٦).

هكذا يعتبر مفاليلي دعاة الزنجية يتكلمون عن قضايا أقرب الى الرفاهية لا يحس بها الافريقي الحقيقي.

وفي نقد الزنوجة أيضا كتب الشاعر النيجيري دئيس أوزوايبي يقول (٣٧) : —

فلنطرح بعيدا تلك التقاليد ولا نبق عليها
حتى لا تكون خير أطروفة
تلائم ذوق مؤرخ أبيض

ويعلق الرئيس أولوو (Olwo) إحدى الشخصيات النيجيرية البارزة على المهرجان الدولي الثاني للثقافة السوداء والافريقية والذي عقد في نيجيريا في يناير عام ١٩٧٧ بقوله : إنه يدهش من احتفال الشعوب

السوداء ببداثيتها، ويقول كاتب آخر من الناطقين بالانجليزية وهو ولي سوينكي (Wole Soyinke): لا أظن أن النمر يتجول معلنا نمورته(٣٨)

I don't think a tiger has to go round proclaiming his negritude

هذا التهاون الذي ظهر ابان اشتداد حركة القومية الافريقية أدى الى كثير من النقد اللاذع والمرير من كثير من الافريقيين للزنوجة بعامة ولسنجور بخاصة، وكان معظمها موجها مباشرة الى الزنوجة ومفهومها في هذه الفترة وعلاقتها بفرنسا. فنجد الفيلسوف الغاني ابراهام (W. E. Abraham) يصف سنجور الذي يدافع عن فرنسا بأنه أصبح أداة فرنسية لدرجة أنه اصبح لا يكتب شعرا افريقيا فيقول: ـــ

«ان سنجور في رأيي لا يكتب كشاعر افريقي، ان ما يكتبه هو شعر فرنسي مطعم باشارات افريقية، وأي فرنسي يمكن أن يقوم بهذا العمل، وهو لاينظر الى نفسه كشاعر افريقي يكتب في افريقية وللافريقيين مدفوع بالحس الافريقي والأوضاع الافريقية، فليس هناك شيء افريقي في شعره»

ويقول في وضع آخر (عندما يقول سنجور بأن الافريقي غير عقلاني، وأن العقل اغريقي والحس افريقي، وأن الافريقي يعرف الأشياء بأنفه فان هذا هراء ماذا يظن سنجور فيما هو فوق أنفي ؟

هكذا نجد المعارضين للزنوجة ومعظمهم من الناطقين بالانجليزية يريدون لافريقية الجديد في التكنولوجيا، وترك البدائية والتخلف، فاتجاهاتهم برجماتية عقلية لا رومانسية.



الحواشـــــي

(١)
Edna, L S., Negrtiude and the Noble Savage, Jour. Modern African Studies, vol II, March, 1973, No. I, pp. 92-93.

وهـذه القصيدة عنوانها البطاقة السوداء نشرت في باريس عام ١٩٥٦ وليون داماس زنجي من أبناء غيانا الفرنسية، وهو من أوائل الذين اقتحموا الادب الفرنسي بقصائده العاطفية الساخطة التي نشرتها دار جليمار Gallimar عـام ١٩٣٧ بعنوان الأصباغ Les Pigments مما أدى بشرطه باريس الى مصادرتها واحراقها عام ١٩٣٩، وقد حدد المقصود بالزنجية في خطاب له في نيو يورك عام ١٩٦٥ بقوله:
كيفما كان كتاب الزنجية أتوا من جزر الهند الغربية أو افريقية أو مدغشقر، فهدفهم واحد، وهو رد الاعتبار الى الرجل الاسود والتأكيد على مساواته عالم البيض وكذلك التأكيد على الشخصية الافريقية.

(٢) جان بول سارتر فيلسوف وأديب وناقد ومسرحي فرنسي ولد عام ١٩٠٥، وقد اقترن اسمه في أذهان الناس بالفلسفة الوجودية مع انه ليس منشئها، كمارتن هيدجر وكارل يسبرز الالماني، ولكن شهرته فيها أنه استطاع أن يأخذ المعاني الرئيسية الكبرى في الوجودية و يصوغها صياغة رائعة جديدة، فيها مايدعو الى اهتمام عامة الناس بها، بل وخاصتهم أيضا، الى جانب هذا الايضاح لجوانب الوجودية عند هيدجر، فقد زاد عليه في مواطن عديدة، واستخرج لنفسه وجهات نظر جديدة ومن هنا كانت له أصالته وفضله في اكمال بناء المذهب الوجودي. ولا تنس في هذا المجال أنه أديب وناقد مسرحي ذائع الصيت، ومن مسرحياته التي كتبها «الايدي الملوثة» «وموتى بلا قبور» «والعاهرة المهيبة»»، وشهرة سارتر بالمذهب الوجودي كشهرة رفيقه الروحي ليوبولد سنجور بالزنوجة، فهي وان شاعت وذاعت على يديه فان روادها الاوائل جين برايس مارس والشاعر السياسي ايمه سيزير وسيأتي ذكرهما فيما بعد.

(راجع في الوجودية وسارتر: عبد الرحمن بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣ ص ـــ ص ٢١٤ ـــ ٢٣٦).

(٣) مجموعة من الاشعار التي كتبها الشعراء الزنوج، معظمهم من زنوج جزر الهند الغربية ولم يكن بينهم من الشعراء الافريقيين سوى ستة فقط وكان الواضح في شعر زنوج جزر الهند الغربية أن الشعور بالاغتراب كان لديهم أقوى من الشعراء الافارقة.

(٤) Busia, K.A., "This Dark Skin" in, Gideon-Cyrus, m., Rohio, S, S.W., Readings in African Political Thought, Heinmann, London, 1975, p.288.

(٥) Dahlomo H.I.E., "African Poetry ın English in African Literature in the Twentieth Century" Heinmann, London, 1975, p.160.

(٦) Ibid. P. 160.

(٧) Diop. C.A., "in, Gideon-Cyrus, Rohio, S.W., Readings in African Political Thought", p. 256.

(٨) Quaison-Sackey, A. "The African Personality" in, Gideon curys, Readings in African Political Thought, p.77.
Ibid. p. 77.

(٩) Dhlomo, H.I.E., African Poetry in English, in Dathron, O.R. African Literature in the Twentieth Century, p. 55.

(١٠) محمد عبدالغني سعودي، الجغرافية والمشكلات الدولية، القاهرة ١٩٧٣، ص ٤٦٥ ـــ ٤٧٨ .

(١١) Geiss, I., The Pan-African Movement, Methuen, London, 1974, p. 306.

(١٢) ولد رينيه ماران في جزر المارتينيك، اشتهر بروايته باتوالا التي نشرها عام ١٩٢١ واتبعها برواية ديجوما عام ١٩٢٧، وبرغم أنه من جزر

المارتينيك الا انه عمل في افريقية، وحاول عدم الكتابة باللغة الفرنسية عن افريقية على اعتبار انها لغة المستعمر. ولا ترجع أهمية رواية باتوالا الى خصائصها الروائية بقدر ما كانت هجوما صريحا على الاستعمار الفرنسي الذي فكك الحياة القبلية، ولم يقنع الفرنسيون كما جاء على لسان بتوالا بطل الرواية بمحو عادتنا، بل لم يستريحوا حتى فرضوا عادتهم علينا.

(١٣) Ibid., pp. 310-313.

(١٤) Markovitz, I, L., Leopold Senghor and the Politics of Negritude, Heinmann, London 1969, p. 49.

(١٥) ليوبولد سيدار سنجور، رئيس جمهورية السنغال وأحد ابنائها، ولد عام ١٩٠٦ في قبيلة السرر، أكمل تعليمه في فرنسا حيث نال درجة الا جريجاسيون من السوربون، عمل مدرسا في فرنسا، واشتغل بالسياسة وتزوج من فرنسية وكان أحد ممثلي فرنسا فيا وراء البحار في الجمعية الوطنية الفرنسية، ثم أصبح أول رئيس لجمهورية السنغال، سبرغور اللغة الفرنسية حتى عد أحد أساطينها وعين عضوا في لجنة تراجع قواعد اللغة في دستور الجمهورية الفرنسية، نشاطه الادبي واسع في هذه اللغة، له ستة دواوين ومؤلفات عدة في الادب والنقد والسياسة. وقد جمعت أشعاره ومختاراته في مجلد واحد باسم الشعر **Poemes** نشر في باريس عام ١٩٦٤ ومن أشهر قصائده المرأة السوداء، المرأة العارية، ومن أهم الترجمات الانجليزية لهذه الاشعار الانجليزية.

Leopold Senghor, Prose and Poetry Oxf. U.P. 1965.

ومع أن سنجور كان يكتب الشعر قبيل الحرب العالمية الثانية، فان أول قصيدة نشرت له كانت في نهاية تلك الحرب عام ١٩٤٥ وكان عنوانها «أغاني الظل» Chants d'ombre ورغم انه لم يكن أول داعية للزنوجة فقد تعرف عليها من رفاقه أدباء جزر الهند الغربية أمثال ماران وسيزير، الا انه أصبح الداعية الاكبر لها، حتى لا تذكر الزنجية الا مصحوبة بسنجور والعكس صحيح وقد جمعت معظم أشعار سنجور في مجلد

واحد .

وأحسن ترجمة بالانجليزية صدرت عام ١٩٦٥ هي :

Jhon Reed, Clive Wake eds, Leopold Sedar Senghor, Prose and Poetry, Oxford U.P.
L'etudiant noire

(١٦) Op. Cit., p. 45.

(١٧) واذا كانت الزنوجة في الوقت الحاضر قد ارتبطت باسم الرئيس سنجور، فان هذه التسمية قد ارتبطت بسياسي وشاعر مثله وهو ايمي سيزير الذي يمكن أن يطلق عليه الزعيم السياسي للزنوجة، ويرجع أصله الى جزر المارتينيك (من جزر الهند الغربية) الذي تقابل مع سنجور في باريس كطالبي علم، وكان عام ١٩٣٤ قمة في حياة كل من سنجور وسيزير، لانه العام الذي أصدرا فيه صحيفتها «الطالب الأسود» والذي عبرا فيه لاول مرة عن مفهوم الزنجية والتأكيد على جميع عناصرها. ويذكر لنا ايمي سيزير كيف وعى هذه الفكرة فيقول: إنه تعلم في السوربون حيث استوعبته الحياة الفرنسية تماما، وفي يوم من الايام وجد نفسه يجلس في قطار بجوار بحار عادي أسود، فأصابه غثاء، وحين رجع إلى منزله أدرك أنه تصرف وهو الزنجي تصرف فرنسي وقح، فشعر بتأنيب ضمير وخزى من التنكر لاصله، وكتب سيزر قصيدته عام ١٩٣٩ بعنوان مذكرات عائد لارض الوطن Chaier D'un Retour au Pays natal. وفيها يقول :

يالمن لم يخترعوا شيئا قط
يالمن لم يقهروا شيئا قط
ولكنهم في غمرة الرهبة
يفنون ذواتهم في جوهر الاشياء
يجهلون الفرص والصدف
النغم والايقاع في دمهم

يهزهم ، يرجيهم اللحن القوي ذو الرخم
هاهمهم أن يفتحوا او يقهروا

ورغم أن قصيدته لم تلق اهتماما عند ما نشرت لاول مرة، فانها لاقت رواجا كبيرا عندما أعيد نشرها عام ١٩٤٧، ولكن الذي اشتهر بنشر الزنوجة وأصبح داعية لها هو الرئيس ليبولد سيدار سنجر.

(١٨) Mphalele, Ezekiel, "The African Image", London, 1962, p. 26.

(١٩) Ibid, p. 27.

(٢٠) Valliant, J.G. Dilemma for Anti-Western Patriotism, Slavophilism and Negritude, Jour. of Modern African Studies, Vol 12.pp. 377-378.

(٢١) Davidson, "B. Which Way Africa?" The Search for a new Society, Penguin, 1964, p. 71.

(٢٢) ريموند كوينن من شعراء جنوب افريقية، وقد كتب شعره بلغة الزولو (قبيلته) ثم ترجمه الى الانجليزية، وصدرت له أول مجموعة شعرية عام ١٩٧٠ بعنوان شعر الزولو Zulu Poems ، ويعبر شعره عن الحياة التقليدية القبلية للزولو لذلك تتضمن شعر المديح، وشعر الحرب، وشعر الرثاء، أما شعره الذي يخاطب به أوروبا والاوربيين، فهو رد فعل لحياة القهر التي تعيشها قبيلته، بل والافريقيون في جنوب افريقية، من ثم تميز أسلوبه بأنه قاطع وعدواني وموجز.

(٢٣) Dathorne, O.R., "African Literature in the Twentieth Century", p. 216.

(٢٤) كان يوجين جيرنييه يشغل منصب استاذ في معهد العلوم السياسية بجامعة باريس، وعضوا في أكاديمية علوم المستعمرات Academie des Sciences Coloniales وحاز عدة جوائز من الاكاديمية الفرنسية ومن أكاديمية العلوم السياسية.

(٢٥) يعتبر جان برايس مارسي من الرواد الأول للزنجية، اهتم

بالدراسات الانثربولوجية عن افريقية، كما اهتم بالثقافة والتراث الافريقي.

وعبر الاطلنطي وكذلك عبر حاجز اللغة الفرنسية الى اللغة الانجليزية فقد ولد في شمال جزيرة هايتي من عائلة افريقية الاصل هاجرت من الولايات المتحدة الامريكية الى جزيرة هايتي وكانوا يتكلمون الفرنسية الدارجة،وواصل تعليمه الثانوي ثم درس الطب حيث أكمل تعليمه الطبي في باريس سنة ١٩٠٠، واشتغل بالعمل الدبلوماسي في برلين وواشنطن وانتهى به الامر الى باريس سنة ١٩١٥،وكان يدرس علم الاجتماع بين عامي ١٩١٨ — ١٩٣٠ في هايتي وهناك حدثان هامان أحدهما سياسي والاخر ذو طبيعة ثقافية كان لهما آثارهما عليه خلال تلك الفترة فقد احتلت البحرية الامريكية جزيرة هايتي سنة ١٩١٥ وبذلك فقدت استقلالها لمدة ٢٠ عاما،والامر الثاني أنه في سنة ١٩٢٠ عاد نخبة من الشعراء إلى الجزيرة من باريس حيث اشتركوا في الحركة الجديدة وهى حركة الزنوجة.

غير أن تأثير برايس مارسي كان أكبر في العالم الناطق باللغة الفرنسية اكثر منه في هايتي، نظرا لان البؤس الذي عاشته لم يتغير كثيرا بعد جلاء الامريكيين عنها، عام ١٩٢٧ ولم يكن مصادفة أن يظهر كتابه:

«ماقاله العم Ainsi Parla L'oncle »في باريس وفيه يقول :

«اني أعرف جدار النفور الذي أدق عليه كلما جرؤت على الحديث اليكم عن افريقية والامور الافريقية، ان الموضوع يبدو لكم غير مهذب وغير ذي أهمية، أليس كذلك ؟ لكن احذروا، ياأصدقائي، فهذه الاتجاهات لا تقوم على جهل مطبق، ذلك لاننا نعيش بأفكار أفسدت نكهتها ورائحتها البلاهة المذهلة التي تعشش في ثقافة غير متكاملة، ولن نرضي غرورنا الطفولي الا اذا رددنا العبارات المكتوبة للآخرين الذين نمجدهم فيها، وهم أجدادنا، أبناء الغال ».

وكان برايس مارسي أحد رواد صالون بوليت ناردال، وأحد كتاب مجلة

عالم السود، و بعد الحرب العالمية الثانية كان مستشارا لمجلة الوجود الافريقي التي ضمت هؤلاء الذين ارسلوا اشارات النبض الافريقي من باريس وما زالوا.

ولعب برايس مارسي دورا كبيرا في مؤتمري الادباء الافريقيين في باريس وروما عامي ١٩٥٦، ١٩٥٩ على الترتيب، وكذلك في مهرجان الفنون الافريقية الذي عقد في داكار عام ١٩٦٦ تحت رعاية الرئيس سنجور.

(٢٦) اضطر سنجور أيام أن كان عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية الى الدفاع عن الزنوج اذا ما ذكرهم أحد الاعضاء بصفات دونية اثناء مناقشات الاعضاء.

(٢٧) Geiss, I, The Pan African Movement, op. cit. pp. 313-314.

(٢٨) Senghor, "What is Negritude?" a speech delivered at Oxford University, out. 1961, reprinted in Poul E. Sigmund, "The Ideologies of the Developing Renaissance". New York 1963.

(٢٩) Markovitz, I., L., "Leopold Sedar Senghor and the Politics of Negritude"., op. cit. pp. 56,57.

(٣٠) Nicol Davidson, "Alioune Diop and the African Renaissance" African Affairs, vol 78, no, 3 January 1979, pp. 3-4.

(٣١) كان المثل الاعلى للدعوة الاستعمارية الفرنسية، انما هو ادخال الشعوب التعسة في حظيرة الثقافة الفرنسية، وفرنسة جميع هذه الشعوب، والغرض في نظرهم هو الانتهاء الى مجتمع متجانس الاجزاء في فرنسا عظمى واحدة تلتف حول باريس، من ثم لم يمنح لشعوبها المحكومة اي نصيب حقيقي في تدبير شئونها الخاصة الا منذ عهد قريب بالنسبة لتاريخها الاستعماري، حين وضعت نصا لتمثيل هذه الشعوب في المنظمات المركزية الحاكمة في باريس، ولكن أفسد عدالة التمثيل ترجيح كفة فرنسا نفسها ترجيحا شديدا على كفة الامبراطورية التي تحكمها ومن ثم ترجيح

كفة الاوربيين على الشعوب المحكومة.

وفي سياسة الدمج هذه، كان لابد من فرض الثقافة الفرنسية وتغلغلها تغلغلا عميقا حيثما حكمت فرنسا، ومع ذلك فلم تنجح هذه السياسة لان بعض الشعوب رفضت الاندماج مع فرنسا مثل غينيا ودول المغرب العربي.

ويرتكز دعاة الدمج على أساسين هما:ـ

١ ـ ايهام الشعوب المحكومة ان السيادة القومية شيء باطل وخطر.

٢ ـ تمكين الشعوب المحكومة من اغفال دور القومية عن طريق تأكيد الحرب التي تتاح لابنائها، وكما قال جي موليه في خطاب له في نيويورك عام ١٩٥٧: التحرير الفردي لكل رجل وكل امرأة وتحريرها الاقتصادي والاجتماعي بتحريرها من الفقر، وتحريرها السياسي بوضعها في موضع تستطيع فيه التعبير عن آرائها بحرية.

والواقع أن الجنسية الفرنسية كانت وقفا على عدد قليل جدا، واقتصر الدمج الثقافي والاجتماعي على نخبة صغيرة.

وقد ظهر ان الشعوب المحكومة، الا فيما ندر لا تقنع بقبول حريتها كأفراد فقط، ولكنها تصر على تحرير الامم التي تنتمي اليها ككيانات جماعية. وقد عبر أحد زعماء حزب التجمع الافريقي في ساحل العاج عن هذا الاتجاه قبيل الاستقلال بقوله: نحن لا نقبل الزواج بالوطن الام الا اذا احتفظنا بالحق في الطلاق.

(٣٢) Markovitz, op. Cit, p. 68.

(٣٣) Ibid., pp. 69-73.

(٣٤) ازقيال مغاليلي من أبناء جنوب افريقية، من ثم اختلفت نشأته عن نظرائه من أدباء غرب وشرق افريقية، ذلك انه عاش في بيئة التمييز العنصري، واضطهاد الاسود في وطنه، كانت أمه

تعمل بالخدمة في البيوت، وغسل ملابس البيض، وكان يساعدها في عملها لأن أباه كان رهين سجن ريتوريا، وتمكنت أمه من ادخاله المدرسة الابتدائية، ولما كان متقدما في دراسته فقد أرسلته الى مدرسة ثانوية في جوهانسبرج، واستطاع ان يدخل كلية أدامزفي ناتال ليتخرج منها مدرسا، ولكن الحكومة أنهت خدمته لانه لعب دورا قياديا في الهياج الذي حدث ضد قانون تعليم البانتو (الافريقيين)،ولما كان ممنوعا من التدريس في كل جنوب افريقية فقد رضي موقتا لكسب عيشه بأن يعمل ساعيا في بعض مؤسسات البيض، ثم انتقل الى محمية باستولاند (حينئذ) ليعمل مدرسا مرة اخرى، وتمكن من الحصول على درجة الماجستير في الآداب من جامعة جنوب افريقية وغادر جنوب افريقية للعمل في نيجيريا وباريس لذلك فكتابته فائرة تعبر عن المرارة والاسى الذي يعيشه المواطن الافريقي في ظل نظام التمييز العنصري في بلاده اي يكتب من واقع التجربة الخاصة التي عاشها.

(٣٥) Markovitz, op. cit, p. 66.

(٣٦) Mphalele, Ezekiel "The African Image op. cit., p. 38.

وتهدف سياسة الفصل الاجتماعي او الابارتهيد في جنوب افريقية الى خلق مسارين متوازيين لا يتقابلان ابدا من الحياة الاجتماعية والثقافية فللبيض مدارسهم وجامعاتهم ودور السينما والمسارح وقاعات الموسيقا ، بل وفرقهم الرياضية، وللافريقيين والهنود والملونين مؤسساتهم الاقل قدرا، ولو كان في امكان الاقلية البيضاء الحاكمة منع الافريقيين من الاستماع الى باخ وموزار وبيتهوفن وشوبان لفعلوا،وكلما وصلت فرق موسيقية شهيرة الى جنوب افريقية نجد ان الافريقيين يدعونها للعزف في صالاتهم فيقبل البعض، ولكن البعض الاخر لا يقبل خشية اغضاب السلطات البيضاء.

والافارقة اكبر جماعة تؤم دور السينما في جنوب افريقية، وما زالوا الى الان لا يقدرون على دخول سوى الدور التي يملكها الهنود واليهود، وغير مسموح لهم بارتياد دور السينما المخصصة للاوربيين، ثم ظهر قانون جديد يحرم دخولهم دور السينما التي يملكها الهنود، وذلك حتى لا يختلط الافريقيون في الملونين، وهناك أفلام محرم دخولها على الافريقيين، ولكنها مباحة للهنود والملونين، ناهيك عن البيض.

وفي ميدان التعليم كانت هناك جامعتان، جامعة كيب تون، وجامعة جوهانسبرج، كانتا تسمحان لسنين عديدة بالتحاق العناصر غيرالبيضاء بهما على أساس المساواة في العملية التعليمية بينما يظهر الفصل الاجتماعي في أماكن الاقامة والراحة وغيرها، أما جامعة فورث هير فقد خصصت لغير البيض،وهناك غير ذلك ثماني جامعات اخرى تضم نحو ٤ الاف طالب، منهم ألف على الاقل من غير البيض، ولكن هؤلاء يتعلمون بالمراسلة كطلاب منتسبين.

وقد اقر البرلمان قانونا يحرم دخول العناصر غير البيضاء هذه الجامعات وان تكون مسألة التعليم العالي للملونين من مهمة الادارة الخاصة التي انشئت للاشراف على معازل الافريقيين وتعرف باسم ادارة شئون البانتو.

وتبرز ثلاث مشكلات ناتجة عن سياسة الفصل التي تتبعها حكومة الاقلية البيضاء منها منع المواطنين الافريقيين سواء كانوا من ساكني الريف او الحضر من الاحساس بالامن، وخلق حياة اجتماعية واقتصادية مزدوجة يكرهها الافريقي مهما كان وعد الرجل الابيض بالجنة التي سيقيمها للافريقي للعيش فيها، لانه يريد عزله عن الحضارة العالمية، ومن طريف الامر أن احدى شركات الاسطوانات والتي قامت بتسجيل موسيقا وأغاني افريقية كمشروع تجاري بحت، من أجل تسويق انتاجها لدى الافريقيين تعلن بان موزار وبيتهوفن وارمسترونج وغيرهم أجانب وبالتالي

يجب على الافريقي أن يشجع ويلتصق بالفن الافريقي.

(٣٧) Davidson, B. "Which way Africa? op. cit., p. 71.

(٣٨) Edna, L.S. "Negritude and the Noble Savage op. cit., p. 92.



قضيّة الوحدة القوميّة

الوحدة القومية *

الدولة القومية :

بينما تشير الدولة الى الوحدة السياسية ذات الأرض التي تحدها حدود سياسية، وتقوم فيها حكومة تمارس أعمال السيادة وتنظم العلاقات بين أفرادها، فان لفظ الأمة يختلف عن هذا، فاذا ما ذكرنا لفظ الأمة فمعناه أن غالبية مواطني هذه الدولة أو تلك يعتبرون أنفسهم كويتيين إن كانوا في الكويت، أو فرنسيين إن كانوا في فرنسا، واذا انتقلنا الى افريقية فسنجد أنهم يعتبرون أنفسهم نيجيريين أو غانيين أو سنغاليين، فولاؤهم الأول هو للدولة، لنيجيريا أو غانا أو السنغال، لا الى القرية التي خرجوا منها أو للقبيلة التي نشئوا فيها، فهناك كثير من الأفارقة في الدول الافريقية، مازالوا يعتبرون أنفسهم من اليوروبا أو الولوف أو الأكان (قبائل) في المكان الأول، ثم نيجيريين وغانيين وسنغاليين في المكان الثاني.

ويمكن أن نفهم بصورة أفضل الدولة القومية اذا قارناها بالقبيلة، لأن الشعور بالانتماء الجماعي، والتراث المشترك متشابه في كليهما، فأعضاء القبيلة الواحدة لديهم طرق متشابهة لحكم أنفسهم، وأشكال للعبادة، وطريقة للحياة متماثلة، ومن المحتمل أن هذه العادات وطرق الحياة المتشابهة قد تطورت نتيجة للعيش معا فترة طويلة في محاولة للتغلب على صعوبات البيئة، من ثم فالأسرأو العشائر التي تعيش في إقليم صحراوي تنمو لديها عادات تختلف عن تلك التي تعيش في غابة مطيرة، وقد تتجمع عدة عشائر وتتآلف لتقف أمام عدو مشترك، أو لشن هجوم على مجموعة

* أحياناً يطلق عليها الوحدة الوطنية

أخرى من الأسر أو على عشيرة أخرى ، وتتكون نتيجة ذلك درجة من التعاون فضلا عن ظهور القيادة أو السلطة ، وكلاهما ينتقل من فترة الحرب الى السلم ، ويمثل الرئيس أو مجلس الكبار المنبثق من الأسر أو العشائر طورا من أطوار وحدة القبيلة ، كما يمثل سلطة مركزية لها ، وتؤدي هذه الخبرة في العيش معا الى خلق تقاليد مشتركة يرتبط بها الابناء والأحفاد، ومع مرور الزمن تساعد الأساطير والروايات المختلفة عن تاريخ القبيلة على خلق هوية واحدة بين أفراد تلك القبيلة ، ولا يمكن في ظل هذا الطور من الحياة أن تسلخ الفرد عن عشيرته أو قبيلته . ويشبه الشعور الذي يحس به الفرد نحو قبيلته في هذه المرحلة ذلك الشعور الذي يحس به أفراد الأمة الواحدة ، والفرق بينها هو أن الأمة تتكون من مجموعة الوحدات الاجتماعية الصغيرة والقبائل والعشائر والأسر، والتي يجب أن يكون انتماؤها وولاؤها للمجموعة الكبرى من السكان الذين يسكنون أرضا مشتركة ويطلقون على أنفسهم نيجيريين أو سنغاليين أو غانيين .

فقد تجمعت مجموعات مختلفة من السكان بالصدفة الجغرافية أو التاريخية أو بالغزو الحربي أو نتيجة المنافسات السياسية الداخلية والخارجية ، واحتمال أن تؤلف هذه المجموعات دولة قومية يحدده مدى تعاونهم في عمل مشترك مثل الدفاع ضد المغيرين ، وقبولهم للخضوع لسلطة سياسية واحدة ، ونمو الترابط الاقتصادي بينهم زراعة وتجارة ، في الحق لقد لعبت الأخطار والضغوط الخارجية دورا كبيرا في تكوين القومية وتماسكها أحيانا ، وهذا أمر معروف في تاريخ انجلترا واسكتلندا وبولندا وفيتنام ، فتلك المعارك التي خاضتها هذه الشعوب وانتهت سواء بنصر أو هزيمة ، ساعدت على صهر الجميع في بوتقة واحدة . ويمكن أن نضرب مثلا بالأمة السويسرية والوحدة السويسرية ، ذكرنا أن هذه الدولة الصغيرة يتكلم أهلها ثلاث لغات رسمية وهي الألمانية والفرنسية والايطالية مع الرومانية، والنسبة المئوية هي ٦٩٫٣٪ ، ١١٫٩٪ ، ٩٫٥٪، نحو ١٪. وبعض المتكلمين الايطالية ترجع

أصولهم الى ايطاليا فعلا، وان كان يسمع في هذا الاقليم ألسنة أخرى من العمال الموسميين والأجانب المقيمين، والذين يكونون نحو ١٠٪ فقط من المجموع ورغم أن الالمانية هي لغة رسمية الا أنها الالمانية السويسرية Schwzerdutsch التي تسمع فعلا، هذا بينما يتكلم الفرنسية نحو المليون في غرب سويسرا، ويعرف كثير من السويسريين الالمانية والفرنسية معا، وان كان الاتجاه هو نحو زيادة فرصة الانجليزية وقد تصبح لغة وطنية خامسة، وكما تنقسم سويسرا بين هذا العدد من اللغات تنقسم مذهبيا بين الكاثوليك (٥٢٫٧٪) والبروتستانت (٤٥٫٤٪)(١) ومع ذلك لا ينكر أحد حقيقة القومية السويسرية والشعور القومي السويسري وقوة واستقرار الاتحاد السويسري. ولكن هذا لا شك يتطلب تفسيرا.

إن جرثومة الدولة السويسرية يمكن إرجاعها الى القرن الثالث عشر، وان كان الاسقلال السياسي لم يتم رسميا الا في عام ١٦٤٨ حينما عقدت معاهدة وستفاليا. من ثم كانت ارهاصات الدولة السويسرية تتمثل في النجاح الحربي الذي أحرزته الكانتونات الثلاثة Uri, Schwyz, Unter walden ضد حكامهم الاقطاعيين. واستغل هؤلاء الرعاة الأقوياء موقعهم الجغرافي في الدفاع والارباح التجارية، والولايات الثلاث الأولى التي ذكرناها أو ولايات الغابة تجاور بحيرة زيورخ وتتحكم في المدخل الشمالي لمر سان جوثار الى ايطاليا، ونظرا لوقوعها على تخوم الممالك الثلاث فرنسا، وبورجندي، وايطاليا وفي نطاق الامبراطورية العامة المقدسة، فقد اتفقت شعوب الولايات الثلاث على خلع حكامها الاقطاعيين وعدم الاعتراف إلا بالامبراطور كرئيس لهم، وخلال القرون التالية بدأت تنضم الى هذه العصبة League الأراضي والمدن المجاورة في نوع من الاتحاد الفدرالي(٢).

ليس من شك أن فكرة الدولة واضحة ومقبولة لدى السويسريين جميعا وتميزهم عمن حولهم من أمم أكثر قوة محيطة بهم، ولعل أكثر هذه العوامل

أهمية هو الشعور والارادة (رغم الاختلافات اللغوية والدينية) للمحافظة على الأمة التي تضرب بجذورها في التاريخ، يتذكرونها دائما و يدعمونها بالقصص والأساطير والاعتراف بالحكومة الديمقراطية على كل المستويات، فضلا عن أن السويسريين يؤيدون تماما سياسة الحياد، وان كان حيادا يدعمه تجنيد اجباري.

ولا يذهب البعض في تفسير ظهور الدولة القومية في النهاية الى انه نتيجة لحركات قومية فقط، فالدول القومية الحديثة في أوربا قد تطورت نتيجة ظروف تاريخية كانت أوضح ما تكون في انجلترا لأول مرة في القرن السابع عشر، لكن تأخرت القومية الفرنسية حتى القرن التاسع عشر. و يرجع الباحثون ظهور القومية الانجليزية مبكرا الى عزلة الجزر البريطانية عن أرض القارة الأوروبية، وحاجة سكان تلك الجزر الى أن يكونوا جبهة متحدة ضد أعدائهم على أرض القارة، ولكن الاستاذ جيمس كولمان James Coleman يعطي تفسيرا آخر لهذا النمو المبكر للقومية الانجليزية حين يقول:

«الأمة هي مرحلة ما بعد القبلية، ومرحلة د' بعد الاقطاعية ظهرت نتيجة قوى التفكيك الناتجة عن الحضارة الحديثة... أو بعبارة أخرى نتيجة التكنولوجيا الحديثة، وهكذا يعزو قوى التكامل القومي التى أدت الى ظهور الدولة القومية الى التصنيع بدرجة كبيرة، فسكان الجزر البريطانية والذين كونوا أول وحدة قومية في أوربا كانوا أول شعب عرف الانقلاب الصناعي، فقد عمل التصنيع في بريطانيا كما عمل في غيرها من الدول على تحطيم التنظيمات الاجتماعية، وتغيير انماط الحياة السابقة، فالثروة التي كانت قبل التصنيع مرتبطة بالأرض وزراعة المواد الخام والغلات الغذائية للاستهلاك المحلي، أصبحت ترتبط بالنشاطات الصناعية والتجارية التي أصبحت تتجه الى أسواق عالمية أكثر اتساعا من أسواق القرية أو المدينة. وازدادت الأسواق اتساعا نتيجة الثورة التي حدثت في النقل وظهور السفن التجارية، فوجدت السلع المصنوعة أسواقا بعيدة، وما تبع

ذلك من اتساع نطاق المشروعات الصناعية والتجارية، وترك كثير من أهل الريف قراهم بحثا عن طرق للمعيشة جديدة، وتعلم سكان المدينة الجدد أن يعيشوا ويتعايشوا مع «الغرباء» عنهم الذين أتوا من أقاليم متعددة.

وقد ساعدت المدن الصناعية الجديدة التي برزت الى الوجود في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على انتشار نظام الانتاج الصناعي الآلي، وبمقتضاه يعمل عدد كبير من العمال في مكان واحد، ويقوم كل بعمل معين - التخصص - في كل العملية الصناعية أو التعدينية، وأدخل الانقلاب الصناعي تقسيما جديدا للعمل، تعمل فيه الآلة ويشغلها الانسان، واصبح العمال بعد نمو المدن يعتمدون على أجورهم للحصول على متطلبات الحياة لهم ولأسرهم، لا على ما تنتجه مزارعهم في قراهم من غذاء وألياف للاستهلاك المحلي أو للتصرف فيها في أسواق قريبة.

وباختصار يمكن القول بأن الحياة الاقتصادية الديناميكية الجديدة ظهرت كعامل أزاح الاقطاع السابق جانبا، وحطم الارتباطات المحلية ومهد الأرض للجماعة القومية، وكنتيجة لزوال الاقطاع وهو النظام السياسي الذي كان سائدا في المجتمع الأوربي قبل الثورة الصناعية، ظهرت أشكال جديدة من الارتباط السياسي، فقد زادت سلطة الملك في بريطانيا، أي قويت شوكة السلطة المركزية على حساب سلطات النبلاء الذين كان يتجه اليهم الولاء أولا(٣).

وأصبح التاج رمز السيادة بزيادة سلطة الملك، وأصبح ولاء الناس لا للملك شخصيا فحسب، بل للتاج أيضا، وأصبح الملك جزءا من مؤسسة سياسية تعرف باسم الملكية، وصارت الأرض التي يبسط الملك سلطانه عليها تعرف باسم الدولة، ومن ثم ظهرت الدولة القومية الى الوجود.

مجتمعات قديمة ودول حديثة في افريقية: على أن الأمر يختلف بالنسبة للأقطار الافريقية، فلم تعمل المدينة على دمج عناصر السكان تماما حتى

ليطلق على هذه الدول أنها «مجتمعات قديمة ودول حديثة(٤)» لأنه يظهر فيها قطاعان أو نظامان أو مستويان من الحياة، النظام الجديد، والدولة العصرية بما تقدمه من خدمات، ولكنها عادة ما تظل بعيدة ولا تؤثر إيجابيا في الحياة اليومية لغالبية الشعب، فالمدارس القليلة التي تنشأ عادة ما تكون في المراكز الحضرية، وكثيرا ما تكون المستشفيات بعيدة عن القرى، ويسمع أهل الريف عن الطبيب مرة أو مرتين في العام، ومن ثم يستمر أهالي القرى حتى الآن في المداواة بالطرق التقليدية، فبينما يتطور الحضر بسرعة يظل الريف حيث الغالبية على حاله ينتظر ثمار الاستقلال.

لا شك أن هناك تغيرات أصابت الريف نتيجة النظام الجديد، فالانسان في الريف أصبح له حق التصويت لانتخاب أعضاء المجلس البلدي في المدينة، ولكن هذا أيضا معناه زيادة عبء الضرائب عليه لمواجهة نفقات الادارة المحلية، ولما كانت الكهرباء، أو المياه النقية لا تصل الى قريته، فانه يعجب لماذا يشترك في انتخاب أعضاء المجلس البلدي ويدفع المال لدعم هذا النظام الاداري، من ثم يصبح ممثل هذا النظام الجديد أشبه بممثل الادارة الاستعمارية في العهد السابق، وأصبح النظام الجديد أشبه باللباس الجديد(٥)، يظهر في المناسبات، ثم يختفي في خزانة الملابس معظم الوقت. أما عن النظام القديم فمازال يتغلغل في الحياة، ويؤثر في معظم الافارقة(٦)، قد يبدو للبعض أن في هذا الكثير من التعميم على اعتبار أن كثيرا من المتعلمين الافريقيين سيقولون أن القبلية في طريقها الى زوال أو كادت تختفي، ولكن I. Wallerstein * حذر من هذا الادعاء السريع حين كتب عن

* ايمانول ولرشتين استاذ علم الاجتماع السياسي بجامعة كلومبيا، متخصص في افريقية:

Elites in French Speaking Africa. Jour of Mod. Af. Studies. vol 3, No 1. The Politics of Independence. Random House 1961, Independence and After in "The Structure of Political Geog. Random

العرقية والتكامل القومي في غرب افريقية بقوله : إنه حين يشير الكاتب الى التفكك القبلي يقصد بذلك تدهورا في سلطة رؤساء القبائل ، وليس معناه أن الفرد الذي أصبح لا يدين بالولاء لرئيس قبيلة قد رفض القبيلة كجماعة لها حقوق عليه و يتوقع منها نوعا من الحماية .

وبعد قضاء اسبوع في دراسة ميدانية لبورت نوفو خرج C. Tardits بأنه بدلا من أن يتفكك النظام القبلي فان الافريقي يزداد احساسه القبلي ، أو يصبح أكثر قبلية Supertribalized في المدن(٧) .

فما زال النظام القديم يطل برأسه في المدينة كما هو الحال في الريف فلم يخلع الافريقي حياته القبلية وولاءه القبلي ولم يتركهما وراءه في الريف، نظرا لأن النظام الجديد لم يصل الى الريف فيغيره ، وما زالت الحياة القبلية تنظم معظم حياة الناس لا في الريف فحسب ، بل في المدينة أيضا، اذ مازال الولاء القبلي يحل له كثيرا من مشكلاته ، فان الافريقي العادي عندما يزور المدينة ، لا يستأجر غرفة، ولا يذهب الى مطعم لأنه يمكن أن يجد من يستضيفه إقامة كاملة، نوما وغذاء، وعندما يأتي المدينة هربا من بؤس الحياة في الريف ليكسب بعض المال، فان أفراد قبيلته يرعونه و يساعدونه حتى يجد له عملا .

هذا الاعتماد القبلي لا شك نتجت عنه مثالب عديدة غير مرغوبة ، مثل الكسل والتطفل في الطبقات الدنيا ، والمحسوبية ومحاباة الاقارب في الطبقات العليا من السكان ، وإن كان البعض يرى أن هذا نوع من التكامل ، والا لزادت المشكلات الاجتماعية كثيرا في المدن الافريقية، لو لم يتوفر هذا الأمن القبلي ، ويكفي أن نضرب مثلا بمشكلة التسهيلات السكنية ، فاذا وجدت المساكن فهي مرتفعة الايجارات ولا تصلح للافريقي العادي ، كذلك الحال في المطاعم ، وبالتالي يتعذر على كثير من الطلاب الذين يأتون من الريف أن يعيشوا في المدن ، ومن ثم فلن يذهبوا الى

المدارس على الاطلاق ، أما عن المحسوبية فترجع الى أن النظام القديم قد تسرب الى النظام الجديد ، وهذا دليل آخر على حيويته ، فرئيس احدى الدول الافريقية يحكم البلاد بالعقلية التقليدية وبطريقة سلفية ، فقد اختار مناسبة جناز عمته ليفرج عن المسجونين السياسيين الذين قد سبق وصدر عليهم الحكم بالاعدام ، وذلك ليعطي معنى جديدا للعفو «الذي هو من طقوس تقاليدنا الجنائزية » . كما يقول :

ومن ناحية أخرى فان النظم الجديدة مازالت تستغل الانتماء والتقاليد القبلية لتحقيق الأهداف والمصالح القبلية بل وحتى الشخصية . ولا تقتصر الوظائف الحكومية الرئيسية على الاتباع ، بل أيضا على القيادات الحزبية ، كمكافأة لهؤلاء على خدماتهم التي قدموها للقادة السياسيين، وهؤلاء يستخدمون متحدثين من القبائل بنفس الطريقة التي كان يستخدمها رجال الادارة الاستعمارية ، وذلك لبسط سلطتهم على السكان ، وبدلا من كون زعيم القبيلة جامعا للضرائب في العهد الاستعماري، أصبح جامعا للأصوات في عهد الاستقلال .

كل هذا يبرر القول بأن الدول الافريقية عبارة عن مجتمعات قديمة ودول حديثة ، ومازال الولاء العرقي قويا في داخل الاطار القومي ، ويبدو أنه ازداد منذ خروج الاستعمار بحيث يقول البعض : إن هناك عودة للقبلية Retribalization او احياء للوعي القبلي في الدول الافريقية الحديثة .

واذا كنا قد رأينا أن البعض يعزو تكون الشعور القومي والتخلي عن القبلية الى النضال ضد القوى الخارجية ، والبعض يعزو التخلي عن تلك العرقية والقبلية الى الصناعة وحياة المدن ، فان تكون الشعور القومي في الدول الافريقية يرجع الى السبب الأول ، أما السبب الثاني فقد رأيناه ليس بذي أثر كبير في المدينة . فهناك اتفاق عريض بين الباحثين على أن أساس حركة القومية الافريقية هو رد الفعل والوعي بالذات ضد الاستعمار الأبيض ، يشترك في هذا الكتاب الأجانب والافريقيون فالزعيم

الأفـريقي سيتولى Sithole في حديثة عن القومية الافريقية يقول : إن افـريقـيـة تـديـن بالروح القومي للاستعمار الأوربي ، فهو الذي عبأ الشعور وخـلـق الـوعـي بـالـذات بين الأفـريـقـيين وجمع شتاتهم القبلي تحت هدف واحـد(٨) . وكـقـاعدة عامة فان الوعي بالذات و بالجماعة لا يبدأ جديا الا حين تجد الجـمـاعـة نـفـسها فجأة وجها لوجه أمام جماعة أجنبية مختلفة كل الاختلاف ، والمقاومات المبكرة التي يسجلها تاريخ القارة لبعض القبائل أو المجـمـوعـات الـقـبلية هي أولى ارهاصات القومية مثل مقاومة قبائل داهومي والمـتـابيـلـي فـي الـتـسعينات ، وليس هذا عيبا على أية حال ، فكما يقرر الجـغـرافي البريطاني هالفورد ماكيندر أنه لم ينقل أوربا الوسيطة من مرحلة الـقـبـائل الى الشعوب ولم يخلق الشعور بالقومية والوعي بالذات الا الأخطار الخـارجـيـة الـثـلاثـة الـتـي أحـدقـت بشبه جزيرة أورباء التتار من الشرق ، الـفـيـكـنـج مـن الـغـرب ، والـعـرب مـن الجنوب ، واذا كان الفضل للقادة الـسياسيين الافريقيين في خلق الشعور القومي بين الافريقيين حين المطالبة بـالاسـتـقـلال الـسـيـاسـي ، فـان للـحـركـات القومية أثرها في حصول هذه المـسـتـعـمـرات عـلـى الاسـتـقلال ، ولكن يا للأسف بدأ هذا الشعور القومي المتـحـمـس يهـدأ ، بـل و يـفـتر فـي كـثير من الأحـيـان بـعـد الحصول على الاسـتقلال السياسي ، **وأصبحت مشكلة بل وقضية من القضايا الرئيسية بعـد الاسـتـقـلال : أن مواطني الدول الافريقية الجديدة مازالوا بدرجة أو أخرى قـبـلـيين فـي انـتـمـائهم السياسي** ، وقد استهلكت هذه المشكلة كـثـيـرا مـن طاقات الحكومات في بعض الدول الافريقية ، وذلك من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية .

ويمكن تلخيص ما سبق بالقول بأن **الدولة** هي الوحدة السياسية حيث تـقـوم الـسـلـطـة أو الحكومة باجراءات أو قوانين المفروض فيها أن تؤدي الى رفـاهـيـة السكان الذين يكونون مواطنين لهذه الدولة . أما **الأمة** فمفهومها أكثر اتـسـاعـا ، تـضـم هؤلاء الذين يعتقدون أنهم ينتمون الى بعضهم البعض على

أساس وحدة تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ، فاذا ماامتد الاحساس بالوحدة الوطنية الى جميع المواطنين في الدولة ، عرفت هذه الدولة باسم الدولة القومية أو الدولة الوطنية Nation State ، وهذا مايجذبنا الى التعرف على القومية .



القومية ليس لها علاقة كبيرة بالجنس او السلالة لانه لا توجد سلالة نقية تماما، والسلالة النقية هي خرافة بسبب الهجرات البشرية التي استمرت عبر العصور التاريخية وماقبل التاريخ، ذلك ان الانسان يتميزعن الحيوان بالعقل الذي دبر به أموره بحيث يكيف نفسه مع ظروف البيئات المختلفة..، كما تميز بقدرة سلالاته على التزاوج، مما أدى في النهاية الى عملية خلط واسعة بين أفراد الجنس البشري، ونجد كثيرا من القوميات والشعوب تضم سلالات ذات أصول مختلفة كما في فرنسا، الكلت والبحر المتوسط والنورد، وفي ألمانيا النورد والإلبيون وغيرهم. قد يقال: اللغة هي عامل هام في تكوين الأمة لأنها الوسيلة التي يستطيعون التفاهم بها، والاعراب عن مثلهم وثقافتهم وأدبهم، واختلاف اللغة يمنع السكان من فهم بعضهم بعضا، لذلك تعتبر عنصرا هاما من عناصر تكوين القومية، وان كانت هناك بعض الأمم كالأمة السويسرية التي استطاعت تكوين أمة واحدة رغم أن أهلها يتكلمون بأكثر من لسان كما ذكرنا، كذلك لا يمكن أن نقول بأن جميع الشعوب التي تتكلم الانجليزية مثلا تدخل تحت نطاق قومية واحدة.

قد يقال الدين، وقد استطاع فعلا ان يكون رابطة قوية في تقوية الشعور القومي لمدة طويلة من تاريخ حياة الانسان، فقد استندت الحروب الصليبية ظاهريا الى العامل الديني، وكذلك كان الانشقاق بين الهندوس والمسلمين في الهند شجع عليه وزاد من حدته الاستعمار البريطاني قبل خروجه من الهند، ولكن الدين في الوقت الحاضر قلت أهميته في التكوين القومي بعد ظهور فكرة الإله الواحد بدلا من الآلهة المتعددة وبعد التسامح الديني. وبدأت المصالح الاقتصادية تتغلب على هذا العامل، ولعل أبلغ مثل هو استقلال باكستان الشرقية عن الباكستان الغربية وتكوين دولة بنجلاديش رغم أنهما كانا يكونان دولة واحدة (باكستان) التي انفصلت عن الهند بعد الحرب العالمية الثانية،وكان

أساس الانفصال هو العامل الديني حيث تسود الهندوكية الهند، والاسلام الباكستان. (٩)

قد يقال: التقاليد المتوارثة والعادات الاجتماعية المشتركة ولكن الأمريكيين الذين لا شك يعتزون بقوميتهم انحدروا من أمم مختلفة، في حين أن الكنديين أو الاستراليين الذين انحدروا في غالبيتهم من العنصر الانجليزي يكونون أمما منفصلة عن انجلترا ولها طابعها الخاص.

ومعنى هذا أن الشعور القومي لا يشترط فيمن يعتنقونه أن يكونوا متحدي الجنس أو اللغة أو الدين أو التقاليد، ولكن هذه جميعا لا يصح أن ننكر آثارها منفردة أو مجتمعة في إذكاء الروح القومية، فكلما توفر عنصر أو توفرت عناصر منها كانت بمثابة العمد التي توحد وتقوي هذا الشعور. وتظهر الروح القومية بأجلى صورها وقت الأزمات، وبخاصة حين المطالبة بالاستقلال أو الحرية.

فالقومية في الحقيقة هي شعور متبادل بين الأفراد، يجعلهم متأثرين في عواطفهم وسلوكهم بفكرة الولاء لوطن ما، لأنهم نبت أرض واحدة، ومصالحهم السياسية والاقتصادية واحدة وأمانيهم وآمالهم واحدة، يتأثرون بمؤثرات واحدة (سواء في النكبات أو الأفراح) بصرف النظر عن ميولهم الطائفية أو الدينية أو مصالحهم الفردية.

فالاحساس بالقومية بين اعضاء الجماعة هو احساس عميق وليس بعقد سياسي بين افراد هذه الجماعة، هو اتحاد قلوب مادام قد تحقق فلا يمكن أن يزول، فالقومية لا تزول، ولكن الدول يمكن أن تتغير وتتبدل بل وتزول، وهو شعور بالجماعة وقيمة هذه الجماعة وفضائلها.

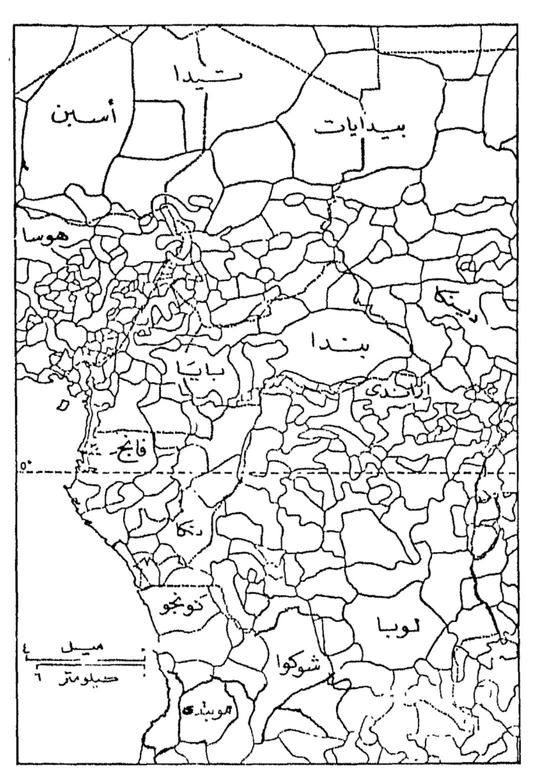
والشعور القومي أو الوطني يبعث في النفس شعورا بالفخر بذلك الوطن وانجازاته والايمان به، وقد يؤدي هذا أحيانا الى الغلو والتطرف في الوطنية Chauvinism والخوف من الأجانب أو الغرباء Xenophobia و يساعد على وحدة الجماعة وانطلاقها في عمل جماعي سواء في الداخل أحياناً ضد القوميات

الأخرى، أو خارجيا ضد الشعوب الأخرى (١٠) لذلك كانت الدولة القومية أو التي تتمتع بتجانس قومي تتميزبتماسك كبير.

(العرقية)

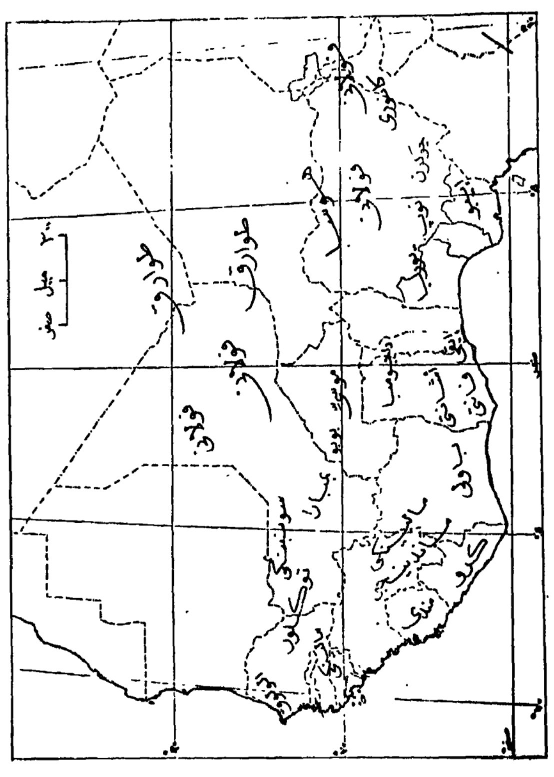
هذا عن القومية، أما العرقية والقبلية فتتضمن كل التعاريف التي وضعت لها فكرة الجماعة التي تحس بأن لها انتماء واحدا والتي يسير انتماؤها موازيا أو متعامدا (متعارضا) مع الولاء للدولة، والعرقية أو القبلية كتركيبة اجتماعية بالمعنى الافريقي قد تكون في طريقها الى الاختفاء في الحضر، ولكنها بمعنى تمييز الهوية والمشاركة في القيم مازالت لها أهميتها في كل مكان، ومهما قال الانسان في تعريف العرقية فهي ليست ظاهرة افريقية أو تختص بها افريقية وحدها، بل معروفة سواء في الدول النامية أو الدول المتقدمة، في الماضي والحاضر، فأهالي ويلز أو شعب ويلز في المملكة المتحدة كمجموعة عرقية مثلهم كمثل شعب الكيكويو في كينيا. (١١) وفي نفس الوقت يمكن القول بأن العرقية تتخذ أشكالا متباينة وتعبرعن نفسها في صور مختلفة الحدة، فبينما نجد أن قبيلة اليوربا في غرب نيجيريا لها نظامها السياسي المركزي، فان الايبو في جنوب شرقي نيجيريا لها نظامها اللامركزي القائم على وحدات صغيرة أساسها القرية، ومن ثم يمكن تمييز نمطين من المجتمعات فيما يختص بالمجموعات العرقية أو القبلية، تلك التي لها نظام حكم مركزي، ولها نظامها الاداري والقضائي أو باختصار لها نظام حكومي، وتلك التي ترتبط فيها السلطة والقوة بتوزيع الثروة والمكانة، وهذا النوع الأخير تنقصه الحكومة والادارة والمؤسسات القضائية، ويمثل النوع الأول البانيانكولي في اوغندا، واليوربا في نيجيريا، والزولو في جنوب افريقية، والاشانتي في غانا.

ومن أمثلة النوع الثاني النوير في السودان، والإيبو في نيجيريا، كذلك هناك اختلافات أساسية بين الجماعات المستقرة والجماعات الرعوية الرحل التي تجوب مساحة واسعة، كما يختلف حجم الجماعة من بضع أسر محدودة العدد الى جماعات قد يصل حجمها الى عشرة ملايين نسمة بحيث تصبح أقرب الى



أنماط القبائل في افريقية الاستوائية

شكل رقم (٢١) انظر كثافة القبائل، فالخطوط المتصلة هي حدود القبائل



القبائل الرئيسية في غرب افريقية

شكل رقم (٢٢)

الشعوب منها الى القبائل.

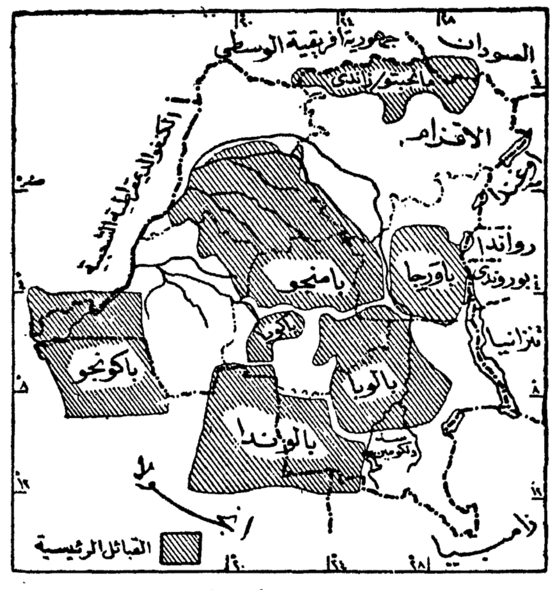
كذلك قد يكون هناك فارق بين العرقية في المدينة وتلك التي في الريف فالضغوط التي تمارسها العادات على الفرد تختلف من حالة الى حالة.

الحساسية العرقية:

على أن الحساسية العرقية لابد أن تكون ناتجة عن تفاعل بين مجموعة عرقية وأخرى، فالعرقية غير المجموعة العرقية لا يمكن أن تبقى أو تحيا في عزلة، وليس من شك أن الفترة الاستعمارية قد غذت هذه الروح، فقد أصر الاستعمار على أن يذكر الفرد بهويته القبلية، فكل بعثة تبشيرية لها مجالها القبلي، ولها اقليم جغرافي معين تمارس فيه نشاطها، وأخذت الإدارة تشجع الموظفين على معرفة لغات القبائل، (١٢) مما خلق الشعور (باليوربا و بالباكنجو)، كذلك يرجع احساس الايبو والولوف بأنفسهم كمجموعة متميزة الى القرن العشرين نتيجة اتصال الأوربيين بهم، واذا كان يعزى هذا الاحساس بالعرقية الى فترة الاستعمار الأوربي، فانها لا شك كانت موجودة قبله، وكل ما في الأمر أنه لم تقل حدة العرقية بعد الاستقلال عن ذي قبل، ان لم تكن قد زادت ففي أوغندا على سبيل المثال، لوحظ أن الجيشو لم يحسوا بأنفسهم كمجموعة عرقية بهوية مشتركة الا حينما أحسوا أنهم مهددون من قبل قبيلة الباجندا الأكثر عددا وعدة.

والملاحظة الثانية على العرقية أنها ليست ولا يمكن أن تكون ظاهرة ثابتة،ثم قد تزداد حدة وقوة اذا ما صحبها تمييز أو تفاوت طبقي في المجتمع، كما حدث من جانب الكريول في سيراليون والأمريكيين في ليبيريا، والتوتسي في بوروندي.

واذا أردنا تقييم العرقية في افريقية المعاصرة، فيمكن القول بأن لها جوانبها السلبية والايجابية، أما عن الاثار السلبية فأمثلتها واضحة وعديدة، ففي زائير المشكلة الرئيسية هي الأعداد الضخمة من المجموعات القبلية وسيادة أربع مجموعات فقط وهي الباكونجو، البالوندا، البامنجو، البالوبا، وفي نيجيريا سيادة الهوسا والفولاني في الشمال والايبو واليوربا في الجنوب، وفي كثير من الاحيان



القبائل فى زائير

شكل رقم (٢٣)

---

* الأشكال ٢١، ٢٢، ٢٣ عن الخريطة المرفقة بكتاب

G . P. Murdock,"Africa, its peoples and their culture Histoy" Mc Graw Hill, 1959.

نجد أن السياسة الحزبية تتبع المجموعات العرقية، لدرجة أن أي تغيير في الحكومة أو الوزارة أو الحاكم نفسه في كثير من الاحيان قد يستغل فيه العامل العرقي.

وفي الكنغو نجد أن العرقية لعبت دورا كبيرا في فترة مابعد الاستقلال، الباكونجو القبيلة السائدة تعدادها نحو ١٫٥ مليون نسمة وتنتشر عبر الحدود الدولية من زائير الى الكنغو إلديمقراطي وأنجولا. وفي الكنغو الديمقراطية نجد أن الأحزاب الثلاثة القائمة أساسها مجموعات قبلية هي الباكونجو، مبوتشي، والفيلي، كذلك يسود الكيكويو في كينيا، والبباحندا في أوغندا، وقد زال نفوذهم عندما وصل عيدي أمين الى الحكم، وذلك بملئه كل الوظائف الرئيسية في الحكومة والجيش بمواطنين من قبيلته الكاكوا أو من القبائل الصغيرة الأخرى الموالية له والتي يمكن الاعتماد عليها، ولكنهم استطاعوا سلبه السلطة وذلك باستعداء قبيلتين كبيرتين هما الأتشولي ولانجا (قبيلة الرئيس السابق أوبوتي الذي يعيش الآن في تنزانيا) كذلك الحال في الحركات الانفصالية في بيافرا.

كذلك قام بتخطيط الانقلاب الذي حدث في غانا ١٩٦٦ وأزاح الرئيس نكروما ضباط من قبيلتي الايفي والاشانتي، بل ان ظهور الأحزاب المعارضة في الدول الافريقية في كثير من الأحيان ليس معناه ان الذين ألفوها غير راضين عن برنامج الحزب الحاكم، لأن هناك برامج أفضل، بل هي لإزاحة الحاكم أكثر منها لاحلال حكومة اكثر رشدا، (١٣) وحتى في تلك الحالات التي يحدث فيها ائتلاف بين أكثر من حزب، فان تركيب قيادة الحزب يراعى فيه المحافظة على هذا الائتلاف. ولما كانت الاحزاب تقوم على أساس قبلي فان معاركها دائما تقوم على أساس مصالح قبلية، وتتحول المعارضة الى خصومة وعداوة، أي مجموعة من الناس ضد الحكومة في كل شيء. وأدى هذا الى تفسير علماء السياسة غلبة نظام الحزب الواحد في الدول الافريقية، وكذلك الحكومات العسكرية، الى سلبيات الروح العرقية، وان كان مثل هذا النظام يؤدي لا محالة الى نوع أو آخر من الديكتاتورية وأن معارضة مثل هذا النظام لا تأتي الا باستخدام القوة والعنف، ومن ثم كانت كثرة الانقلابات العسكرية.

بينما يذهب البعض الآخر إلى ان هذا النظام هو أصلحها لأن الاحزاب في افريقية تتبلور حول خطوط قبلية، ويذهب بعض السياسيين الغانيين الى القول بأن نظام التعدد الحزبي هو نظام غربي لا يصلح للدول الافريقية بنظمها الاجتماعية، وهذا ما دعا كثيرا من الحكومات الافريقية الى نبذه، فالغرض من اعطاء كواندا الفرصة لقيام حزب واحد حاكم في زمبيا عام ١٩٧٢ هو تقوية الروح القومية على حد قوله، وقد ظهر أنه قبل عام ١٩٧٢، حينما تعددت الأحزاب، كان صراعها قبليا بالدرجة الأولى، ونظرا لأن زامبيا دولة حبيسة ومحاطة بأقطار معادية (روديسيا ــ موزمبيق، وانجولا البرتغاليين) في ذلك الحين كانت الفرصة مواتية لهؤلاء الأعداء للتآمر على حكومة كواندا.

ومن ناحية آخرى فان العرقية نظام يتغلغل في حياة الافريقيين بعمق، حضاريا واقتصاديا واجتماعيا، ولذلك ليس من الممكن ازالتها بسهولة.

ويذهب كثير من الكتاب الى ادانتها، لأنهاتكون ممثلة لجذور عدم الاستقرار، ولأنها تستخدم بواسطة السياسين لتحقيق أغراضهم الخاصة، من ثم كانت موازنة مجموعة قبلية بأخرى من الأمور الضرورية وهذا النوع من التوازن القبلي قد يكون مفيدا فكل من سنجور في السنغال، ونيريري في تنزانيا وكواندا في زامبيا وكينياتا في كينيا وهوفيه بوانييه في ساحل العاج استطاعوا عمل توازن لطموحات ومخاوف المجموعات القبلية، واستطاع نيريري بوجه خاص الاستفادة من خصائص كل مجموعة لبناء تنزانيا وكانت صيحة كينياتا «هارمبي» Harambee (١٤) دائما، ومعناها فلنحمل العبء معا، لأنه في النهاية ، أليست العرقية والقبلية نوعين للانتماء، ومن الضروري أن يكون هناك انتماء ما بشكل أو بأخر لخلق الدولة الأمة، ويمكن أيضا أن تكون رصيدا Asset في عملية التحديث على اعتبار أنها تزيد من الشعور بالشخصية الجماعية والأمن على مستويات مختلفة، وتحتفظ بالرابطة ما بين الريف والحضر فأي عضو من قبيلة معينة

يتجه الى المدينة، لابد وأن يقوى ارتباطه بجماعته الأصلية، وتهدم هذا النظام العرقي في افريقية هو الاستثناء وليس القاعدة.

العرقية والاحساس بالعرقية: ـ

هذا ويجب أن نفرق بين العرقية، والاحساس بالعرقية، ومحاولة التبسيط هنا قد تكون من الخطورة بمكان، فهي قضية معقدة للغاية كما توضحها قضية بوروندي.

فبوروندي قبل استقلالها كانت مستعمرة ألمانية، وبهزيمة المانيا وضعتها عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى تحت انتداب بلجيكا التي تولت عليها الوصاية أيضاً بعد الحرب العالمية الثانية، وتطل بوروندي على الشواطىء الشمالية الشرقية لبحيرة تنجانيقا، وتعتبر من المناطق الكثيفة السكان اذ بمساحتها التي تقدر بنحو ٢٨ ألف كيلومتر مربع يسكن ما يقل قليلا عن ٤ ملايين نسمة ، وهي من الدول الحبيسة أي التي لا سواحل لها، من ثم اعتمدت على تنزانيا كمخرج لها . ويعيش في بوروندي مجموعتان عرقيتان : التوتسي هما وهم يمثلون أقلية (١٦٪ من السكان)، ولكنهم يمثلون الطبقة الحاكمة، والهوتو ويمثلون الأغلبية (٨٤٪ من السكان)، وحاول الهوتو الذين يكونون الأغلبية الاستيلاء على السلطة من التوتسي ولكنهم فشلوا، وأعقب ذلك قيام التوتسي بمذبحة وحشية للنخبة من الهوتو، في المدارس، والادارة، والجيش، وكل مكان، حتى قضوا على ما يقرب من ٣ر٥٪ من مجموع الهوتو، كما جاء في تقرير لجنة حقوق الانسان، وكانت هذه اكبر عملية ابادة جماعية تم فيها القضاء على النخبة أو صفوة الهوتو، وأصبحت بوروندي من البلدان الفريدة التي تحتكر فيها السلطة أقلية عرقية وهي التوتسي، بينما تحول الهوتو الى مواطنين من الدرجة الثانية، وأبعد الهوتو (رغم انهم الغالبية) عن الوظائف المدنية والجيش والتعليم الجامعي والثانوي (١٥).

ويختلف الحال في رواندا عما حدث في بوروندي، وهما دولتان متجاورتان وحيث يوجد فيها أيضا نفس التقسيم العرقي، ولكن الجماعتين العرقيتين تعيشان مع بعضهما، ولم يحدث بينهما ما حدث في بوروندي مما يدل على أن الاثارة العرقية هي بين النخبة من المجموعتين اكثر منها بين جماهير الجماعتين، وهذه الفكرة تتفق مع مفهوم الاحساس بالعرقية بأنه المنافسة بين النخبة من المجموعات العرقية المختلفة.

وللآن لم يحاول أحد دراسة القبيلة كجماعة اقتصادية، لأنهافي حقيقتها تشكل مجموعة من المصالح في النظام الاقتصادي الجديد، ففي الكمرون على سبيل المثال:

اذا أصيب محصول الكاكاو في عام من الأعوام بكارثة فان هذا يؤذي قبيلتي البولو/ اوندو Bulu - Ewondo بوجه خاص، بينما اذا اصابت الكارثة محصول زيت النخيل، فان هذا يضر قبيلة الباسا Basa ، واذا حدث كساد للتجارة بوجه عام فان هذا لايكون في صالح الباميلكي Bamileke ويمكن للانسان أن يلاحظ نفس الظاهرة لدى الاشانتي في غانا (الكاكاو) والولوف في السنغال، والفول السوداني،والكيلويو (الذرة) في كينيا، لذلك ليس من المستغرب ان تختلف مجموعات المصالح، فتصبح مجموعات ضغط محاولين أن ترعى المؤسسات حاجتهم ومصالحهم الخاصة (١٦).

وقد يصبح التقسيم الاجتماعي موازيا للتقسيم الاقتصادي، حيث نجد الاقليات الأجنبية قد حققت نموا بارزا في بعض القطاعات الاقتصادية مما أدى الى اتخاذ مواقف معينة من هذه الاقليات، مثل تأميم هذه القطاعات كما حدث للبنانيين في غرب افريقية بمقتضى القوانين التي أصدرتها نيجيريا وساحل العاج والسنغال عام ١٩٧٣، فأصدرت نيجيريا قائمة باثنتين وعشرين حرفة لا يقربها الا المواطنون، وقد تتخذ الصورة شكلا أكثر عنفا حينما وجد عيدي امين أن الأسيويين أو بمعنى آخر الهنود والباكستانيين

يسيطرون على ثلاثة أشياء: رأس المال، والمشروعات، والمهارات الادارية، وهي مفاتيح النشاط الاقتصادي، و يعيشون في عزلة في مجتمع مغلق عليهم محاولين الاستفادة دون الافادة، ورغم أنهم خليط في الأصل من حيث اللغة والأصل والعقيدة، ولم يكونوا يوما مجموعة متحدة، الا انهم اذا ما تعرضوا أو تعرض بعض منهم لضغوط اتخذوا موقفا دفاعيا ووضعا متصلبا أمام الحكومة، وحاول عيدي أمين اجتذابهم للمشاركة في حل الأزمة الاقتصادية التي مرت بها البلاد عامي ١٩٧٠، ١٩٧١، ولكنه فشل، فاضطر الى طرد ما يقرب من ٤٠ الفا ممن يحملون جوازات سفر بريطانية (١٧)، وهكذا يشكل مثل هؤلاء بؤر عدم استقرار.

ويمكن فهم الدعوى الاقليمية بسهولة لأن الولاء العرقي كثيرا مايجد تعبيرا جغرافيا له، فبعض الاقاليم قد تكون أغنى نسبيا من أخرى، واذا ارتبطت الدعوى العرقية بالغنى النسبي، تقوى دعوى الانفصالية، كالدعوى التى قام بها الأشانتي في غانا، والايبو في نيجيريا، وشابا (كاتنجا) في زائير، فكل دولة افريقية تقريبا ماعدا الشمال لها (شابا) !!.

كذلك الحال اذا ازدادت حالة اقليم في داخل الدولة تخلفا، وهذا له مؤشراته العديدة مثل انخفاض متوسط دخل الفرد في الاقليم عن المتوسط العام بصورة حادة، وعندما تزداد نسبة البطالة بصورة أكبر عن نسبتها في الدولة، و يبدو أيضا في قلة الاستثمارات الى غير ذلك، كل هذا يزيد من درجة المخاطرة في أن تتكون في هذا الاقليم بؤرة أو نواة عدم رضا، قد تؤدي الى المطالبة بالانفصال أو الحكم الذاتي، كما حدث في جنوب السودان حين كانت ضمن دعاوي الجنوبيين أن المشروعات والتنمية في الشمال، بينما لم يصب الجنوب منها الكثير، وبصرف النظر عن الأسباب الفعلية لهذا التخلف، فقد كان هذا التخلف يسير الى جانب العرقية، ضمن أسباب عدم الرضا(١٨).

ويمكن قياس ولاء المواطنين للدولة بالقيد الذي يشعرون به في

معارضتهم لسياسة معينة للحكومة القائمة، فاذا كانوا يعارضون حكومة معينة، ولكنهم يقفون عند حد معين دون مرحلة تدمير الدولة أو اضعافها

كان معنى هذا أن ولاءهم للدولة، فهذا الولاء والشرعية بالنسبة للدولة، لا لحكومة معينة هو ما يتعلمه الانسان منذ الصغر، و يبدأ مع الأطفال في مدارسهم، ولكن الشعوب الافريقية لم يتح لها الوقت الكافي بعد لتشرب هذه الأفكار، فكثير من الافريقيين لا يعرفون حدودا للمعارضة، ولا يميزون بين المعارضة والانفصال، من ثم كثيرا ما تسمع القادة الافريقيين يعلنون بأن المعارضة لديهم ليست بناءة، فهي لا تسعى الى تحطيم الحكومة القائمة، بل هي مستعدة لتخريب الدولة كوسيلة للخلاص من الحكومة القائمة(١٩).

وهذا قد يكون صحيحا الى حد كبير لأن المعارضة تأخذ شكل المطالب الاقليمية، كنظام لا مركزية في ظل حكومة موحدة، أو الفدرالية في ظل حكومة لا مركزية.



العوامل المؤثرة في قوة أو ضعف الوحدة القومية الافريقية

ويمكن القول بأن العوامل المؤثرة في خلق الوحدة القومية في الدول الافريقية ليست بسهولة عوامل سياسية، ولكنها جزء من مركب سياسي واقتصادي وتاريخي، بل ونفسي، والعقبات التي تقف أمام الوحدة الوطنية متعددة ومتنوعة بدورها، جغرافية، وتاريخية، واقتصادية، واجتماعية وقد يجتمع أكثر من عامل واحد منها في الدولة الواحدة.

حجم الدولة:

فاذا اخذنا حجم الدولة، وجدنا اختلاف الحجم من الدول العملاقة كالاتحاد السوفيتي بمساحته التي تقدر بنحو ٨٫٦٤٧٫٥٦٩ ميلا مربعا الى الفاتيكان الذي تبلغ مساحته ١/٤ ميل مربع، وكل دولة نمت من نواة صغيرة، ثم نمت هذه النويات وكونت دولا، ثم اتسعت بعد ذلك. ولكن لابد من وجود رابط قوي بين المركز أو النواة والأطراف وهذا يتم عن طريق شرايين المواصلات، والا كانت هذه الأطراف عرضة للاختطاف من الدول المجاورة، فالمانيا مثلا لاشتراكها مع دول عديدة في الحدود، ولوجود معظم ثرواتها المعدنية على هذه الأطراف، كانت من أوليات سياستها ربط الأطراف بالقلب أي ببرلين،هذا وتقوم الصين ببرنامج ضخم لربط البلاد بالخطوط الحديدية. هذا و يعتبر مد الخطوط الحديدية أو الطرق من العوامل التي تساعد على الوحدة القومية لأنها تربط سكان الأمة بعضهم ببعض وتساعد على اختلاطهم واندماجهم، و بالتالي تقضي على عزلة الجماعات، وتذيب الفروقات الثقافية.

ويجب أن نشير الى انه إذا كانت المساحة الكبيرة مقرونة بعدد كبير من السكان، وعلى درجة من الكفاءة عالية، واستغلت موارد هذه الدولة استغلالا حسنا، كان معنى هذا ظهور هذه الوحدة السياسية كقوة، فنظرا لاتساع المساحة سيتنوع المناخ، وتنوع المناخ معناه تنوع الغلات، كما أن

المساحة المتسعة قد تضم تكوينات جيولوجية معتددة وما يتبعها من صخور مختلفة و بالتالي معادن متنوعة.

ما الوضع بالنسبة للدول الافريقية؟ رغم تعدد الوحدات السياسية والتي بلغت نحو ٥٠ وحدة سياسية، فان متوسط مساحة الوحدة السياسية تبلغ نحو ٦٠٠ ألف كيلو متر مربع، فهناك ٢٢ وحدة سياسية تزيد في مساحتها عن مساحة فرنسا أكبر الدول الأوربية مساحة بعد الاتحاد السوفيتي مثل الجزائر، والسودان، وزائير، وتشاد، وانجولا، ومالي وموريتانيا، ولكن معظم هذه الدول تقترن فيها المساحة الضخمة بضآلة السكان، فتصبح كثافة السكان واهية فهي نحو ٩ نسمات للكيلو متر المربع في زائير، ٢ في جمهورية افريقية الوسطى، ٣ في تشاد والنيجر، ٤ في مالي، ٦ في كل من أنجولا والسودان.

ان الصعوبات التي تصادفها الدول الافريقية في هذا السبيل تكاد تكون متماثلة، وان كانت كل دولة لها مشكلاتها الخاصة بها. وتأتي مشكلة **نيجيريا** مثلا من اتساع مساحتها (نحو مليون كم ٢)، وتنوع سكانها، والذي كان من شأنه تقسيم البلاد الى ثلاث حكومات اقليمية كبرى تتفق ومجموعة القبائل أو الشعوب الكبيرة فيها: اليوربا في المغرب، والايبوفي في المشرق، والهوسا في الشمال لذلك كان هناك الاقليم الشمالي والاقليم الغربي، والاقليم الشرقي، ثم أضيف اليها اقليم رابع ما بين الشرق والغرب، وان كان لا تشغله وحدة قبلية كبرى.كالأقاليم السابقة، فإن قبيلة الادو Edo كانت،مستاءة من سيادة اليوربا عليها.

وقد حاولت أول حكومة عسكرية في غانا عام ١٩٦٦ تقوية الشعور بالوحدة القومية وذلك بالغاء الوحدات الادارية الكبرى ذات الحكم الذاتي، والتحول الى الحكومة المركزية حتى لا تعطي فرصة للقبلية، ولكن الحكومة العسكرية التي تلتها حاولت القضاء على الولاء القبلي والاقليمي بزيادة عدد الوحدات الادارية حتى بلغت اثنتي عشرة وحدة عام ١٩٦٧

وذلك للتقليل من أهمية كل وحدة من ناحية القوة، ثم قسمت الى تسعة عشر اقليا اداريا عام ١٩٧٦(٢٠) والآن بعد أن قسمت الوحدات الادارية وبحكومة عسكرية غير عرقية، ترقبها الدول الأخرى لتعرف ما اذا كان مثل هذا النظام سيمنع أو يحول دون التيارات العرقية التحتية، والتي تعتبر من أهم خصائص هذه الدول المتنوع سكانها.

واذا نظرنا الى **أثيوبيا** تلك الدولة الكبيرة المساحة والتي تبلغ نحو ١٫٢٥ مليون كيلومتر مربع وبسكان يبلغون نحو ٢٣ مليونا فسنجد أن ظروفها الطبيعية من هضاب متوسطة الارتفاع، وجبال شاهقة وأودية سحيقة، جعل سطح هذه الدولة بعيداً عن سطح الهضاب الأقرب الى الاستواء، وأدى هذا بدوره من الناحية البشرية الى أن يطلق عليها متحف السكان، اذ تضم تنوعاً عرقياً كبيراً، ففي أقصى الشمال توجد قبائل بني عامر وهي حامية، والى الشمال الغربي الجماعات العربية في السودان، بينما يحتل قلب الهضبة في الشمال شعب الأمهرا، ويغلب عليه اللسان السامي واستمر فيهم الحكم والسلطة في البلاد، ويكونون نحو ثلث السكان، وفي الجنوب توجد جماعات الجالا الحامية الرعوية، وتحيط هذه بقبائل سيدامو التي تعيش شبه منعزلة في جنوب غربي البلاد وتظهر فيهم الصفات الزنجية، وفي أقصى الشرق يوجد الآفار والصوماليون الحاميون، وهناك أقليات متقوقعة كالفلاشا أو اليهود السود، ثم يأتي التنوع الديني ليضيف الى التنوع العرقي فوارق أخرى، فالمسيحية والاسلام يسودان معظم الهضبة، ولكن الى جانبهما اليهودية فضلا عن الجماعات التي مازالت على وثنيتها، وبذلك يمكن القول بأن أثيوبيا هي مجموعة من الشعوب أو الأمم المنعزلة بعضها عن بعض(٢٠)، لأنها من أكثر الدول الأفريقية معاناة من حيث وسائل النقل بصورة رهيبة، فلا يقتصر الأمر على صعوبات النقل بين الساحل وداخل الهضبة مما يشكل عبئا كبيرا على الصادرات والواردات، بل هناك صعوبة في الانتقال بين أجزاء البلاد بعضها والبعض الآخر، بل

وهناك اقاليم في اثيوبيا لا يمكن الوصول اليها الا بالطائرة، بل إن تاريخ اثيوبيا وما صحبه من تعدد حركات التمرد يمكن إرجاعه الى عدم وجود وسائل النقل الجيد، ومن هنا كانت عزلة الجماعات بعضها عن بعض، وصعوبة تحرك الجيوش من ناحية أخرى بحيث عملت الطبيعة على تقطيع أوصال البلاد الى أجزاء يصعب الاتصال بينها، وتقف عقبة حتى أمام التقدم الهندسي الحديث

فالخط الحديدي الوحيد في اثيوبيا هو الممتد بين اديس ابابا وجيبوتي، ويحمل نحو ١٠٠ ألف طن سنويا، وهو من أصعب الخطوط الحديدية وأكثرها تكاليف وعبئا، وأما الخط الآخر فهو عبارة عن خط قصير مابين اسمرة ومصوع في الشمال وطوله ٢٢٤ ميلا، وطاقته نحو ١٤٠ ألف طن سنويا، ومع ذلك فهو يمر بنحو ٣٠ نفقا، ولكنها لا تتقاطع، من ثم لا يمكن الانتقال مباشرة من محافظة الى أخرى الا بصعوبة، و يكفي في هذا المجال القول بأن عدد السيارات المرخصة في اثيوبيا في الوقت الحاضر لا يتعدى ٥٠ ألف سيارة بأنواعها المختلفة من خاصة وشحن وركاب الخ....(٢١) و يضاف الى ذلك أن البغال والحمير ما زالت وسيلة رئيسية للانتقال، فضلا عن أن جمع البن من مناطق انتاجه الى العاصمة للتصدير يتم بواسطة الطائرات(٢٢).

ان الخوف من اعطاء ارتريا حريتها لا يرجع فقط الى حرمان اثيوبيا من واجهة بحرية طويلة، وتحويلها الى دولة داخلية شبه حبيسة، بل مخافة أن تكون له آثاره الأخرى في تحرك القوميات الأخرى والمطالبة بمثل هذا الوضع ايضا (١٣). من ثم كان اتجاه بعض الحكومات الافريقية لتحقيق وحدة قومية في دولها ذات المساحة الكبيرة الى تقسيم البلاد الى أقاليم ادارية عديدة مع منحها درجة من الحكم الذاتي أو الى وحدات ادارية داخلية كما هو الحال في نيجيريا.

واذا كانت المساحة والعرقية والحركات الانفصالية قد تؤيد الحاجة الى

هذا القرار، فلا يبدو أن مثل هذه التقسيمات تخلق شعورا قويا بالوحدة والترابط القومي، أي تخدم غرضا قوميا، فالأقسام الادارية المتعددة تشجع على المركزية والبيروقراطية، وعدم الكفاءة،فكثرة تفتيت الدولة في قارة مثل افريقية ، حيث الروح القومية لم تقو في كثير من الأحيان بحيث يمكن للحكومة الاعتماد عليها، لا يمكن أن تؤدي إلى الهدف المنشود، بقدر ما قد تؤدي الى تحطيم الوحدة القومية، واذا سمح بمنطق الانفصال، فليس هناك نهاية لما يحدث من فوضى، من ثم كانت من اهم مشكلات الدولة الافريقية هي محاولة جمع الاقاليم في الوقت الذي تحاول فيه الاقاليم فصم أو طرح نفسها.

شكل الدولة:

ان تماسك واتصال أجزاء الدولة أو ظهورها ككتلة واحدة يعتبر من مميزاتها، فكلما كانت ملتئمة كلما قصرت أطوال الحدود بالنسبة الى المساحة.

ومن الناحية النظرية البحتة يعتبر الشكل الدائري مثاليا، وخاصة اذا كانت عاصمتها تمثل مركز هذه الدائرة، ويمكن معرفة الانحراف عن هذا الشكل المثالي عن طريق عمل نسبة بعد الحدود الحقيقية عن محيط هذه الدائرة، فكلما كان الرقم صغيرا كانت الدولة اقرب الى الشكل المثالي، وكلما كان كبيرا كلما بعدت عن هذا الشكل المثالي.

على سبيل المثال رومانيا، سويسرا، المجر، مصر كلها أشكال أقرب الى المثالية، بينما تعتبر شيلى مثلا تقليديا للدول ذات الامتداد الطولي الكبير، اذ تمتد من الشمال الى الجنوب لمسافة ٢٦٠٠ ميل. على حين أن عرضها قد لا يتجاوز مائة الميل، كذلك الحال في النرويج، كما تعتبر غير مثالية الشكل حين تظهر فيها أجزاء منفصلة عن الكتلة الرئيسية، كألمانيا قبل الحرب الثانية حين كان يشطرها الممر البولندي أو الباكستان التي كان يفصل شطريها عن بعضهما مسافة ١٠٠٠ ميل،وكان هذا من عوامل

ضعف الدولة اذ تم انفصال باكستان الشرقية باسم دولة بنجلاديش.

والأمثلة واضحة أيضا في خريطة افريقية السياسية حيث جمهورية مالي التي تختنق في الوسط وتترك على الجانبين كتلتين شبه منفصلتين يسهل قطعهما نظريا عن بعضهما البعض من الخارج أي من الفولتا العليا وموريتانيا، كذلك الحال في الصومال التي تمتد على هيئة شكل 7 الافرنجي، مفرطة في الطول (٢٤) مما يضعف من تماسكها الداخلي، كما يمكن لاسفين أو جادين هرر الذي يتعمق في الصومال شطر هذه البلاد الى شطرين، وتكرر زامبيا صورة مالي، كما تكرر موزمبيق صورة الصومال، أما مالاوي فليست الا اسفينا من موزمبيق. وفي جمهورية جنوب افريقية نجد أن الترانسفال تمتد بعيدا الى الشمال، حتى أنها تقع في دائرة نفوذ لورنسومار كيز (موزمبيق)، بينما خطط إصبع كابريفى في جنوب افريقية خصيصا ليصل الى الزمبيزي غربا مما أدى الى أن تشرف عليه بتسوا نالاند من الناحية الادارية سابقا.

وكان من نتائج عدم الانتظام في اشكال الدول الافريقية، فرط طول حدودها السياسية، فتكاد حدود افريقية السياسية تبلغ ٢٩ ألف ميل، وهي بذلك تعادل حدود الامريكتين، أوضعف حدود أوروبا (١٥ ألف ميل).

العواصم:

ويمكن أن نشير الى أن أهمية العاصمة تتعدى كونها مركزا اداريا وتشريعيا للدولة، فالعاصمة هي التي تستقطب الشعور القومي للأمة وهي رباط عناصر الأمة المختلفة، وتمثل رمزا شبه مقدس لديهم وتتضح أهمية العاصمة كرمز للأمة في نقل العواصم أحيانا من المناطق الهامشية الى الداخل لتكون أكثر تمثيلا للدولة، أنقرة بدلا من استانبول، موسكو بدلا من بطرسبورج، كذلك رغبة البرلمان الألماني في نقل عاصمة المانيا الغربية الى برلين بدلا من بون كما تبدو أهمية العاصمة في انهيار معنويات الشعب

اذا سقطت العاصمة في أيدي الاعداء.

ويؤدي تطرف العاصمة الى صعوبة الضبط السياسي من ناحية، واضعاف قبضة هذه العاصمة على الأقاليم الهامشية والأطراف من ناحية أخرى، فضلا عن عدم حفظ التوازن بين أقاليم الدولة المختلفة لاسيا في الوحدات الضخمة المساحة خاصة اذا كان النقل متخلفا.

واذا كانت العاصمة المتطرفة الموقع حديثة العهد، فانها تميل الى أن تكتسب طابعا اقليميا أكثر منه قوميا، فبحكم موقعها المتطرف غالبا ما يتألف سكانها من العناصر المحلية أو الاقليمية، وهذا يجعل وضع العاصمة في الدول المتنافرة السكان موضع جدل ومناقشة، كما هو الحال في العواصم الافريقية، **كالخرطوم** مثلا التي يذهب البعض الى القول بأنها متطرفة نحو الشمال، بل اذا نظرنا الى معظم العواصم الافريقية سنجد أنها متطرفة (تشاد، مالي، الجزائر، تونس، المغرب، ليبيا، تنزانيا، أنجولا، زائير، جنوب افريقية وغيرها) ويرجع هذا الى اكثر من عامل، منها أن المعمور والمناطق الآهلة بالسكان تجنح في الغالب الى طرف من الأطراف، وبذلك تصبح العاصمة في هذا الطرف أو ذاك كما في حالة **ليبيا**، وفي وقت ما كانت لها عاصمة مزدوجة في طرابلس وبنغازي، وكان هناك تناوب للعاصمة،عامان لكل، ثم وحدت في البيضا، في ولاية برقة قبل الثورة، ومع ذلك فالعواصم الثلاث في المنطقة الساحلية، كذلك الحال في **تونس والجزائر** وتميل عواصم دول الصحراء الكبرى الى الجنوب، ويرجع هذا الى سقوط الأمطار الصيفية على حافة اقليم السفانا (الجنوب)، هكذا الحال في نيامي، وبماكو، كما قد يرجع الى العامل السياسي لان الاستعمار يختار عواصمه عادة في الجهات الساحلية، لأنها في نظره وسط، وسط بين المستعمرة من ناحية وبين الدولة المستعمرة من ناحية أخرى.

(لاجوس ــ أكرا، أبيدجان، فريتون، داكار، دار السلام، مقديشو) لذلك يذهب البعض إلى القول بأنه من دواعي تقوية الشعور القومي في

الدول الافريقية هو نقل العاصمة الى موقع اكثر مركزية في الدولة.

وظهرت اراء كثيرة في هذا الموضوع كنقل عاصمة **تنزانيا** من دار السلام الى دودوما، وذلك للتقليل من الفروقات الاقليمية بين العاصمة والاقاليم، والتخفيف من تركيز النشاط الاقتصادي والثروة والازدحام السكاني واختناق النقل من العاصمة الساحلية الى الداخل.

كذلك الحال في فكرة نقل عاصمة **نيجيريا** من لاجوس الى أبوجا في مركز وسط في نيجيريا حتى تكون على كثب أو على مسافات متقاربة من جميع السكان وبذلك يضمن استقرارها سياسيا خاصة وأن أبوجا فضلا عن موقعها الجغرافي الممتاز ذات مناخ معتدل نسبيا وتتوفر فيها موارد الماء، كما أنها لا تنتمي الى أي مجموعة عرقية، بينما تستمر لاجوس تؤدي وظيفة العاصمة التجارية، وان كان البعض يتساءل كيف ستكون أبوجا أقرب الى معظم السكان، بينما هي تقع في اقليم مخلخل السكان.. (٢٥).

وفي حالات أخرى كان نقل العاصمة أمرا ضروريا، ونقلت فعلا، كما هو الحال في عاصمة **موريتانيا** التي قرر نقلها في أواخر الخمسينات الى نواكشوط لتخلف العاصمة القديمة وهي سانت لويس والتي لم تكن قطعة من موريتانيا، بل من السنغال، وأصبح موقع نوا كشوط جيدا حيث يمر تيار كناري الذي يلطف هواءها، وحيث تتوسط الاقليم الساحلي، الصحراوي في الشمال والرطب في الجنوب.

توزيع السكان:

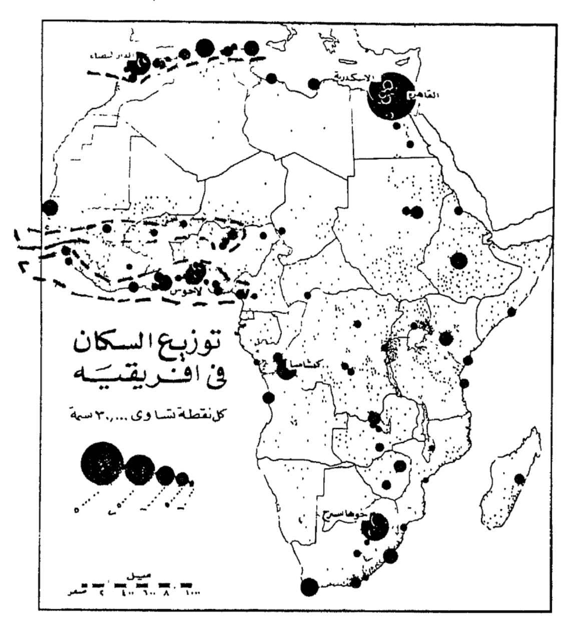
تتميز افريقية بوجه عام بالكثافة المنخفضة والتي تدور حول ٣٥ نسمة للكيلو متر المربع وكذلك الحال في عدد كبير من دولها، فهناك دول تقل فيها الكثافة العامة عن ١٠ نسمات للكيلو متر المربع مثل ليبيا والجزائر ومالي وموريتانيا والنيجر وتشاد، وانجولا وجابون والكنغو الديمقراطية وزائير وجمهورية افريقية الوسطى وموزمبيق وتنزانيا وزامبيا وبتسوانا والسودان

وليبريا والصومال،

واذا كانت الكثافة المنخفضة تعلل في الشمال بامتداد الصحراء على نطاق واسع كما في ليبيا والجزائر ومالي وتشاد والنيجر، فهي تعلل في وسط افريقية حيث زائير وافريقية الوسطى وانجولا بكثافة الغابات والمناخ وامراض المناطق الحارة وتجارة الرقيق، ويؤدي هذا الى أن السكان ينتشرون، بل يتبعثرون في غطاء خفيف، متباعدين عن بعضهم البعض، مما لا يعمل على التجانس البشري، وزيادة التمسك بالقبلية، ويرتبط بتوزيع السكان في انحاء الدول الافريقيين معرفة أماكن التجمعات العالية الكثافة أو المعمور، لما له من انعكاسات سياسية خطيرة، ففي معظم الأحوال، يتركز المعمور في بقع محددة يفصلها عن بعضها مساحات من اللامعمور (لا يقصد باللامعمور الخالي تماما من السكان، وانما المنخفض الكثافة ولتكن أقل من نسمة للكيلو متر المربع)، ففي **زائير** مثلا تأخذ الكثافات الأعلى شكل هلال ترتبط أكثر ما ترتبط بالمرتفعات المحيطة بالحوض، بينما تنخفض الكثافة في الوسط لارتباطه بالسهول الحارة والغابات الكثيفة، وهذا أيضا مما لا يعمل على تجانس السكان بل يعمل على تأصيل القبلية والعرقية وهذا واضح في **حوض الكنغو**، فرغم أن ثلثي السكان ينتمون الى زنوج البانتو، فما زال هناك الاقزام في الغابة، والفولاني في الكمرون، فضلا عن الزنوج السودانيين والحاميين في افريقية الوسطى والكمرون، وتلعب القبلية دورا خطيرا في عمليات الانفصال، فمن السبعين القبيلة الرئيسية في **زائير** نجد أن ٤٩ قبيلة تنتمي الى البانتو، ١٦ قبيلة تنتمي الى الزنوج السودانيين، فضلا عن قبائل حامية على الأطراف، وتبدو هذه الفسيفساء القبلية أشد تعقيدا في الكمرون، ففيه نحو ١٤٠ قبيلة، بل حتى **جابون** الصغيرة فيها نحو ٤٠ قبيلة، وتختلف هذه القبائل فيما بينها من حيث التطور والاحتكاك بمظاهر الحضارة الحديثة، مما يؤدي الى زيادة التباين القبلي وعدم التجانس، ففي **الكنغو الديمقراطية** نجد أن قبيلة

الباكونجو لها السيادة وتعارضها بالتالي القبائل الأخرى،وفي جابون تحتل قبيلة الفانج نفس المركز الهام، وتجد معارضة من قبيلة مبونجوى الذين يعيشون في الاقليم الساحلي، وكانت اتصالاتهم قديمة بالأوربيين. وفي زائير نجد أربع مجموعات قبلية كبرى كان لها اثرها في أحداث ما بعد الاستقلال عام ١٩٦٠،فالباكونجو يعيشون بين كنشاسا والبحر، وكانوا أول من اتصل بالاوربيين في هذا الاقليم، وكان لهم وزنهم السياسي بسبب عددهم من ناحية، ولوقوع العاصمة في أراضيهم من ناحية أخرى، و يقع الاقليم الآخر ذو الخطر في كاتنجا في أراضي البالوبا الذين امتد انتشارهم الى اقليم كاساي، أما اقصى اقليم كاتنجا فيعيش فيه البالوندا،وكانت هجرات البالوبا للعمل في لومومباشي (اليزابيث فيل) مما أدى الى عدم رضا ونفور البالوندا. ويحتل البامونجو مساحة كبيرة في مديريتي خط الاستواء والشرقية، واذا كان من الصعب تقدير أهمية العامل القبلي في أحداث عام ١٩٦٠، فانه يمكن القول بأن فترة الحكم البلجيكي وان كانت قد منعت الحروب القبلية غير أنها لم تمح التقاليد القبلية وعدم الثقة بين القبائل بعضها مع البعض الآخر، قد تكون القبيلة وتقاليدها ظاهرة عامة في معظم افريقية في شرقها وفي غربها، ولكن المنافسة وعدم الثقة في زائير فاقت غيرها ووصلت الى مرحلة انفجارية، وقد استغل لومومبا عدم الرضاء عن المهاجرين من البالوبا في كسب تأييد البالوندا (٢٦). وقيل في مشكلة الكنغو ان الاقليمية كانت اكثر اثرا من القبلية نتيجة الاتساع الكبير، وتنوع البيئات، وعزلة الجماعات، وبعدها عن العاصمة، ومن ثم كان التأييد لمن يعرفون، أو بمعنى آخر كان الولاء قبليا قبل أن يكون قوميا.

وأحيانا يتألف المعمور من كتلة واحدة متماسكة كما هو الحال في معمور مصر أي وادي النيل والدلتا،من ثم كان التماسك والترابط القومي في مصر، والنطاق الساحلي في تونس والجزائر، ولكنه في معظم الأحوال



شكل رقم (٢٤)

ــ انظر التجمع السكاني في غرب افريقية في الشمال (١) والجنوب (٢) وتخلخل النطاق الأوسط

ــ انظر تطرف المعمور في شمال افريقية في أقصى الشمال.بتصرف عن :

A. Akimbonde, Population explusion in Africa and its implication for Economic Development, Jour. Geog. vol 76, no. 1, January, 1977, p. 32.

يتألف من اكثر من كتلة أو له اكثر من نواة، تفصل بينها مساحات من اللامعمور مما يضعف من التماسك السياسي خاصة اذا صحب هذا الانقطاع في التوزيع الجغرافي انقطاع اثنولوجي والأمثلة على هذا عديدة في الدول الافريقية، خذ ليبيا مثلا حيث تألفت من جزيرتين سكانيتين ساحليتين برقة وطرابلس حيث يتجمع ٩٠٪ من السكان، ويفصل بينهما نحو ٨٠٠ كيلو متر من الصحراء، مما أدى الى توجه كل منهما توجهات مختلفة قبل ظهور البترول، برقة نحو مصر، وطرابلس نحو تونس، وصحب هذا ثنائية العاصمة، عامان في طرابلس، وعامان في برقة، الى أن ظهر البترول فكان من أقوى عوامل التماسك والترابط القومي. ويأخذ نمط توزيع السكان في **غرب افريقية** وضعا فريدا حيث يتركز السكان في نطاقين واضحين في الجنوب والشمال، بينما يتخلخل السكان فيما بين النطاقين أو في ما يعرف بالنطاق الأوسط، ففي الجهات الساحلية قامت امارات وممالك قبل ظهور الاستعمار مملكة الاشانتي في غانا واليوربا في نيجيريا وأدى قيام هذه الممالك والاستقرار الزراعي الى ازدحام هذه الجهات، وما زالت تقاليد الاخلاص للأرض التي عاشوا عليها سائدة الى يومنا هذا، كذلك قامت في الشمال الامارات الاسلامية كصنغى ومالي وغيرهما معتمدة على التجارة، وازدهرت الحياة فيها وازدحمت نسبيا بالسكان، أما النطاق ما بين الجنوب والشمال وهو المخلخل فيرجع الى تجارة الرقيق التي استمرت قرابة ثلاثة قرون في الجهات الساحلية وكان موردها ظهير الساحل أي النطاق الأوسط، فكانت القبائل تلجأ للهضاب الشمالية للحماية من هجمات القبائل الجنوبية التي كانت تسعى للحصول على الأسرى ليباعوا رقيقا، (٢٧).

كان النطاق الاوسط ارض النزال بين الشمال والجنوب. فاذا علمنا أن هذا الانقطاع في التوزيع الجغرافي يتبعه انقطاع اثنولوجي، الجنوب زنجي وثنى مسيحي، والشمال حامي مسلم، ادركنا سر الصراعات التي اعقبت

استقلال كل من نيجيريا وغانا، والصراع بين قبائل الاشانتي والفانتى في **غانا**، والهوسا واليوربا والايبو في **نيجيريا**.

وكذلك الحال في **الكمرون** حيث النواة المسلمة من الفولاني قرب بحيرة تشاد، والنواة المسيحية الوثنية في الجنوب.

وكثيرا ما تتجاور الدول الافريقية في المعمور، بمعنى ان تكون الاقاليم المرتفعة الكثافة على جانبي الحدود، وغالبا ما يكون هناك تجانس سكاني وقبلي، فتصبح الحدود في هذه الحالة، وكأنها سكين يقطع ما بين ذوي القربى كما هو الحال في التجمع السكاني شرق وشمال جنوب بحيرة فكتوريا حيث يتصل المعمور، ولكن تقطعه الحدود السياسية بين **كينيا وأوغندا وكينيا وتنزانيا**، وكذلك ذلك التجمع الذي تقطعه الحدود السياسية في أقصى الشمال لزائير مع الكنغو الديمقراطية، وجمهورية افريقية الوسطى، وزائير، والكنغو الديمقراطية في حوض الكنغو الادنى، ناهيك عن تلك التجمعات التي تركزت في جنوب تشاد والنيجر والفولتا العليا ومالي (بسبب الطبيعة الصحراوية للاقاليم الشمالية والوسطى) ونظيرتها في شمال نيجيريا وتوجو وداهومي وغانا، مثل هذه الحدود خططت بواسطة القوى الاستعمارية دون أدنى اعتبار للبشر الذين فرضت عليهم.



مسئولية الاستعمار المباشرة

١ ـ الحدود السياسية
وعلاقتها بضعف التركيب القومي

من المعروف ان غالبية الحدود الافريقية هي حدود مفروضة او موضوعة من الخارج، وضعتها القوى الأوربية خلال العقدين اللذين تبعا مؤتمر برلين عام ١٨٨٤، اما قبل الاستعمار الاوروبي للقارة فلم تكن هناك حدود، وكان البناء السياسي الوطني كقيام ممالك معينة من السكان الاصليين، كان يفصلها عن بعضها تخوم، كأن تكون اراض غير مسكونة، او مناطق مستنقعات، وكان من نتائج وضع هذه الحدود أن أصبحت تمر احيانا في ارض القبيلة الواحدة، و يرجع هذا الى عاملين اولهما عدم اتفاق الطرفين الأوروبيين لسبب من الاسباب، وثانيهما لتغلب مصلحة اقتصادية أو استراتيجية.

واحيانا ماتعكس صورة قرارات شخصية،ومن اشهر الامثلة على ذلك الحدود الكينية التنزانية، فقد نصت الاتفاقية الالمانية الانجليزية على ان يسير خط الحدود بين كينيا (الجليزية) وتنجانيقا (الالمانية) في خط مستقيم من مصب نهر اومبا على المحيط الهندي الى الشواطىء الشرقية لبحيرة فكتوريا، وبذلك يصبح جبل كليمنجارو داخل النفوذ البريطاني، وقد احتج قيصر المانيا فيما بعد على اعتبار ان هذا يؤدي الى ان تمتلك بريطانيا اكبر جبلين في افريقية وهما كينيا وكلمنجارو، وقد وافقت الملكة فيكتوريا على إهداء جبل كليمجارو الى قيصر المانيا في عيد ميلاده، واصبح من الصعب بعد ان خططت الحدود الاستعمارية، أن تتغير تلك الحدود، وحالة غمبيا اوضح دليل على بقاء دولة ليس لها مايبرر وجودها، فهي لاتزيد مساحتها على ٤٠٠٠ ميل مربع، وبسكان يبلغون نحو نصف

مليون نسمة،تمتد غامبيا لمسافة ٢٠٠ ميل على طول نهر غمبيا، ولكنها لا تبلغ حدود حوض هذا النهر الصغير في أي مكان منه، ولا نبلغ منابعه التي تقع في غينيا المجاورة، وهي في نفس الوقت لا يتعدى عرضها ٢٢ ميلا، ويقطع الحد السياسي مابين السنغال وغمبيا مظاهر طبيعية واحدة، بل وقبائل واحدة ومستوطنات واحدة، كذلك كان لبروز غمبيا في السنغال بهذا الشكل ان عزلت الفسم الجنوبي من السنغال عن بقية البلاد، وكانت القوى الاستعمارية السابقة تعرف تماما الطبيعة الحادة والاصطناعية لهذه الحدود فكان هناك اتفاق بين المسئولين البريطانيين والفرنسيين على ضرورة ضم غمبيا الى السنغال وتعويض بريطانيا عنها، ولكن المصالح المحلية وخاصة المصالح التجارية الأوربية، ومصالح الطبقة المتعلمة الافريقية، عارضت كل تغيير، وأدى خضوع كل من السنغال وغمبيا الى ادارة استعمارية مختلفة الى تباين في النظم الادارية والانماط الاقتصادية والتعليمية بين البلدين (٢٨)، وقد استمر هذا النباين ايضا بين كل من غمبيا والسنغال المستقلتين.

أنواع الحدود السياسية:

ويغلب على تخطيط الحدود السياسية في افريقية اتباع الحواجز الجبلية والانهار، والخطوط الفلكية أي التي تتبع خط طول أو درجة عرض معينة، ولو حاولنا تعليل اسباب كثرة استخدام خطوط تقسيم المياه في عمليات التحديد السياسى، لوجدنا أن هذا يرجع الى عمليات الكشف الجغرافي لافريقية، اذ انها كانت تتضمن القاء الاضواء على أنماط التصريف النهري للقارة، ولم يكن يعرف من حوض النهر سوى منطقة المصب، ولذلك كان من الطبيعي ان تتفق القوى الاستعمارية على ان تكود الحدود بينها في الداخل المجهول هي مناطق تقسم المياه بين الاحواض النهرية، لذلك اعترفت بريطانيا عام ١٨٩٤ بنفوذ الملك ليوبولد في حوض الكنغو حتى مناطق تقسيم المياه او حتى الحافات الجبلية التي تحد الاحواض النهرية

المجاورة، وخاصة حوض النيل في الشمال، اما مدى مراعاة هذا لصالح السكان الوطنيين فيمكن ان نستشفه من رسالة وصلت الى السلطان زيمو احد سلاطين الزاندي (في جنوب غرب السودان) عام ١٩٠٠ من حاكم الاقليم يقول فيها: انك على بينه من الحدود التي اتفق عليها الانجليز والفرنسيون والبلجيكيون،ان النفوذ المصري الانجليزي يبدأ حيث تنبع المجاري المائية التي تتدفق نحو الشمال او نحو النيل (٢٩).

اما النوع الآخر الشائع في افريقية وهو الخطوط الفلكية، فهذا يتفق عليه عادة على موائد المؤتمرات، وعلى بعد مئات الاميال من القارة، من ثم كانت تظهر صعوبات كبيرة امام هؤلاء الذين يقومون بالتخطيط العملي على الطبيعة، والامثلة عديدة على ذلك، فعند تخطيط الحدود السياسية بين الكمرون الالماني ونيجيريا البريطانية عام ١٩٠٣، اختلف الفريقان نظرا لان كل فريق كان يقدر خطوط الطول بطريقة مختلفة عن الآخر، وحيث تسير خطوط الحدود (الفلكية) في مناطق أو عبر طرق هجرات فصلية، تصبح غير مناسبة.

ومنها خط الحدود بين مصر والسودان الذي اتفق على أن يسير مع خط عرض ٢٢ شمالا، مما أدى الى ضرورة اتخاذ خط آخر للحدود الادارية بحيث يجمع قبيلة البشارين بأكملها في السودان، وقبيلة العبابدة في مصر.

ولعل استعمال الانهار كحدود سياسية كان أقل أنواع التحديد السياسى تعقيدا من الناحية الفنية، الا في المناطق التي تغير فيها الأنهار مجاريها المائية، او حين كان المجرى المائي معروفا في جزء منه ومجهولا في جزء آخر، عندما وقع اتفاق الحدود، لذلك نجد أن كارل بيترز الألماني يدعى ان نهرا غير مجراه، وذلك بغية الحصول على ارض اجديدة في شرق افريقية، او للمساومة على منطقة من جهة ثانية، وفي مناقشة لتخطيط الحد السياسى بين السودان واثيوبيا نجدهم يقترحون استخدام نهر البيبور. ولكن اذا لم يصل البيبور الى خط عرض ٦ شمالا، فان مجراه حتى خط طول ٣٤ شرقا

يصبح هو الحد السياسي. ونظرا لصعوبة توغل المستعمر في المراحل الاولى ايضا في دارفور في السودان ووادي في تشاد، اتخذ نهر كاجا حدا سياسيا في غربى السودان بينما القبائل من الجانبين تتجه نحوه للسقيا، لمدة سبعة شهور في السنة، وبدلا من أن يكون النهر فاصلا، اصبح جاذبا.

وهكذا ساهم المستعمر بالحدود السياسية التي وضعها **على خلق عدم الولاء القومي لانه قطع أو قسم القبيلة الواحدة على اكثر من وحدة سياسية**، كما هو الحال في الهوسا والفولانى بين نيجيريا والنيجر والكمرون، والا يفى بين توجو وغانا، والباكونجو بين زائير والكنغو الديمقراطية، والازاندي في السودان وزائير، وجمهورية افريقية الوسطى، وشعب الصومال الذي يمتد في اثيوبيا وكينيا، ومعظمها يسبب مشكلات داخلية وخارجية لأن هذه الاجزاء من القبائل لا تحس بالولاء لدولها بقدر ماتحس بالانتماء القبلي.

وكانت السلطات الاستعمارية تخفف من حدة فصل اعضاء القبيلة الواحدة بين مستعمرتين، وذلك بالتخفيف من قيود الانتقال على الجانبين، وقد يرجع هذا الى أن كثيرا من السلطات الادارية لم تعرف الحدود الفعلية لكل وحدة سياسية، ولذلك كانت عمليات الانتقال والهجرة من الأمور المألوفة. غير أن استقلال هذه المستعمرات السابقة دون تعديل للحدود، ومحاولة كل دولة جديدة ممارسة حقها في السيادة بوضع القيود على الانتقال عبر الحدود، أدى الى ظهور مشكلات خطيرة على طول تلك الحدود. فعلى سبيل المثال نجد أن حكومة توجو ظلت فترة تضع مراقبة شديدة على طول خط الحدود بين غانا وتوجو خشية تهريب السلاح للأحزاب المعادية للحكومة، بينما نجد الحدود بين نيجيريا والكمرون وقد انتشرت عليها محطات المراقبة لمنع الهاربين من الكمرون واتخاذ نيجيريا ملجأ لهم. كما شددت أثيوبيا الحراسة على حدودها مع الصومال، وألغت اتفاقية مع الصومال كانت قد عقدت تسمح لرعاة الصومال بعبور الحدود الأثيوبية بحثا عن

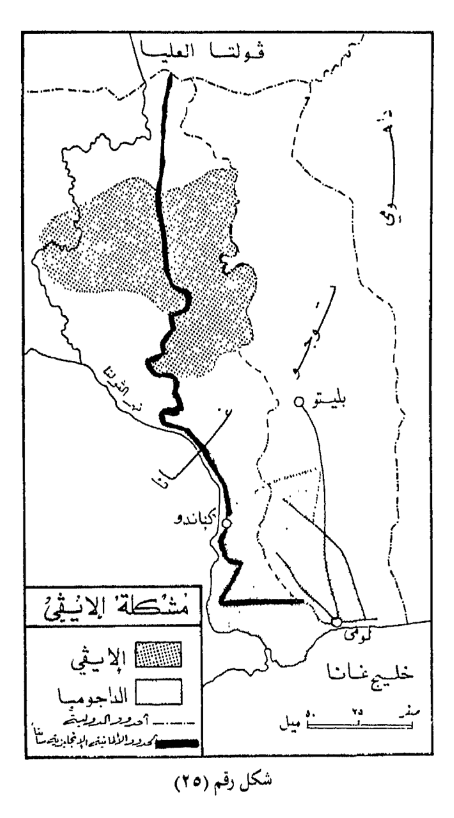
الكلأ والماء لقطعانهم.

هكذا ورغم ما يؤخذ عليها فقد أصبحت الحدود الاستعمارية متفقا عليها كأطر للوحدات السياسية المستقلة، معترف بها على الخرائط، وتمارس الحكومات الافريقية المستقلة سيادتها في داخلها، فضلا عن ان منظمة الوحدة الافريقية قد اتخذت قرارا عام ١٩٦٣ باعترافها بحدود الدول الافريقية كما هي عند الاستقلال منعا للانشقاق بين الدول الافريقيه، ومن أمثلة مشكلات تعدد الولاء القومي للشعب الواحد أو القبيلة الواحدة يمكن أن نضرب مثلين بشعب الايفى وشعب الصومال.

مشكلة الايفى في غانا وتوجو (٣٠):

يبلغ عدد أفراد شعب الايفى نحو ٧١٥ ألف نسمة، يعيشون في غرب افريقية مقسمين بين دولتي غانا وتوجو، والحد الشمالي للقبيلة يسير موازيا لخط الساحل على بعد نحو ٨٥ ميلا منه. وتتألف مواطنهم في معظمها من سهول متموجة لا يزيد ارتفاعها عن ٤٠٠ متر، وتغطيها حشائش السفانا المكشوفة، ولا يظهر تغير ملموس في هذه البيئة اللهم إلا بالقرب من الساحل، حيث تمتد البحيرات الساحلية التي تحيط بها أشجار نخيل الزيت وتفصل بينها رمال الساحل. واذا استثنينا بعض صيادي الأسماك، نجد الأيفى شعبا من الزراع، يقوم بزراعة الذرة واليام. وهناك رغبة من الأيفى بأن يلتئم شملهم سواء كدولة مستقلة أو كجزء من دولة غانا أو جزء من دولة توجو.

وكان شعب الايفى قبل التدخل الاوروبي مقسما الى اثنتى عشرة قبيلة فرعية تعيش بين مملكتي أبومي والاشانتي، وخلال فترات الحروب كانت تعقد الأحلاف الوقتية بين هذه الفروع. وكان أول فصل للايفى عند تحديد خط الحدود بين ساحل الذهب البريطاني وتوجو الألمانية حيث سار الخط بين لومي على الساحل ونهر الفولتا على بعد ٣٠ كيلو مترا، ولم تكن هناك شكاوي من الايفى في ذلك الوقت، غير أن المنطقة قسمت بعد



شكل رقم (٢٥)

J. R. V., Prescott, The Geography of frontiers and Bounuaries, London, 1967, p.137

الحرب العالمية الأولى بحيث ضمت فرنسا ثلثي الاقليم بما فيه كل الساحل والخط الحديدي وضم الباقي المجاور لساحل الذهب الى بريطانيا، وقد تأكد هذا الوضع عام ١٩٢٠ عندما منحت فرنسا وبريطانيا انتدابات على المنطقة. وخفف أثر هذا التقسيم الثالث أن بريطانيا كانت تحكم الجزء الخاص بها، كقسم من ساحل الذهب، على عكس الفرنسيين الذين احتفظوا بادارته منفصلة عن داهومي والفولتا العليا، وقد أحس الايفى بهذا الفصل في فترة ١٩٤١/١٩٤٣، عندما أغلقت حكومة فيشى الحدود،وما ان انتهت الحرب العالمية الثانية حتى ظهرت رغبات من الايفى بالالتئام والوحدة، وان ظهرت اقتراحات متعددة على كيفية الوحدة.

وقد زارت بعثة من الامم المتحدة الاقليم عام ١٩٥٠ وكتبت تقريرا ذكرت فيه «أن المشكلة بلغت من الحدة مبلغا يستدعى حلا سريعا لصالح السلام والاستقرار في المنطقة» ولم يظهر هناك حل مرض لمشكلة الايفى حتى الآن، وقد عمل استفتاء في توجو عام ١٩٥٦، وظهر من نتيجته رغبة الجزء البريطاني من توجو في الانضمام الى ساحل الذهب (غانا)، بينما التصويت الذي حدث في توجو الفرنسية كانت نتيجته الرغبة في قيام دولة مستقلة داخل الاتحاد الفرنسي، وان كانت جمهورية توجو خرجت من هذا الاتحاد عام ١٩٦٠.

انه لمن الصعب تصور حل مرض لهذه المشكلة، فاعادة توجو البريطانية ثانيا وتوحيدها مع جمهورية توجو مثلا لن يحل اشكالا، لأنه لن يضم الأيفى الذين يعيشون في جنوب شرق غانا، بل وسيقسم شعب الداجومبا في شمال شرق غانا، وخلق دولة مستقلة للايفى ليس حلا مرضيا لأنه سيخلق مشكلات في المواصلات والتنمية لبقية أجزاء توجو، ويعتبر الايفى أنهم يدفعون ثمنا غاليا لوحدتهم مع غانا، وكان لعدم حل هذه المشكلة أثره في حدوث التوتر الدائم في الاقليم، واشتدت الحراسة في غانا وتوجو على خط الحدود، وعندما اغتيل الرئيس أولمبيو عام ١٩٦٣ أغلقت حدود توجو

مع غانا فورا. وقد أشارت غانا مرارا الى قيام اتحاد بينها وبين توجو، وزاد من توتر الأقليم الضغط الغاني من ناحية وخوف حكومة توجو من اقتطاع اجزاء من أراضيها من ناحية أخرى.

مشكلة شعب الصومال (٣١):

يحتل الصوماليون القرن الافريقي الذي يحده البحر الأحمر والمحيط الهندي وخليج عدن، فضلا عن خط غير منتظم يبدأ من مصب نهر تانا في كينيا الى ميناء جيبوتي وينقسم الشعب الصومالي بين البلدان التالية: في جيبوتي (٢٥٠٠٠) في جمهورية الصومال (٢,٠٧٦,٠٠٠) في أثيوبيا (٣٥٠,٠٠٠) في كينيا (١١١٩,٠٠٠)، من ثم توجد مشكلتان للحدود بين جمهورية الصومال من ناحية، وبين كينيا وأثيوبيا من ناحية أخرى، ويتفق الشعب الصومالي في اللغة والحضارة ويقويها الاقتصاد القائم على الرعى،وبرغم أنه لم تكن هناك وحدة سياسية قبل ذلك في الاقليم، الا أنه كانت هناك فترات من الاتحاد لصد قبائل الجالا في كينيا وأقباط أثيوبيا.

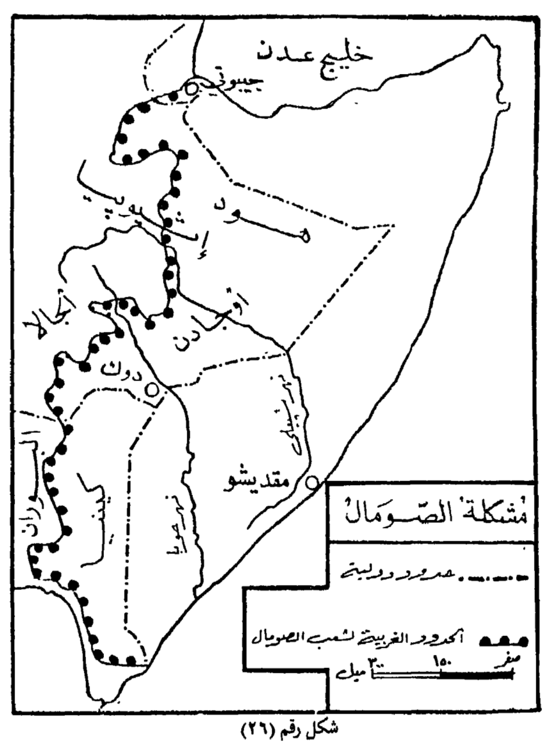
ولا توجد في هذه المناطق حدود معروفة، بينما يعتبر الاحتلال الفعلي للأرض هو الأساس الوحيد للسيطرة على الأرض القريبة من موارد الماء والكلأ ، ولذلك نجد أن الحدود في مناطق الرعى تعتبر حدودا ديناميكية متحركة، تبعا لاختلاف قوة القبائل ومدى احتياجاتها، ويتبع قبائل شمال الصومال نمطا من الرعى يتمثل في الهجرة صيفا الى اقليم هود في اثيوبيا، عندما تكون مرتفعات هود في أحسن حالاتها نباتيا، وفي نفس الوقت تكون مراعي سهول الصومال قد أنهكت، أما الاجزاء الجنوبية من الصومال، فلا تتميز بظهور حرفة الزراعة فيها فحسب، بل بالهجرة الفصلية للرعاة أيضا، حيث يتجه السكان بحيواناتهم الى الأراضي النهرية خلال الفصل الجاف، لأن نهري جوبا وشيبلي دائما الجريان ثم يرجعان الى مراعي الأقاليم الساحلية خلال فصل المطر القصير الذي يمتد من ابريل الى مايو، ومن أكتوبر الى نوفمبر، ويصبح اختراق خط الحدود (الصومالية ـــ

الأثيوبية) من الأمور الضرورية بالنسبة لبعض القبائل.

فاذا رجعنا الى الحدود التي فرضت على الأقليم بواسطة بريطانيا وفرنسا وايطاليا نجدها ترجع الى فترة (١٨٨٥ ـ ١٩٠٠) حين حصلت بريطانيا على محمية كينيا والصومال البريطاني، بينما حصلت فرنسا وايطاليا على مستعمرتيهما، وقد فصلت هذه الحدود الهندسية بين أراضي القبيلة الواحدة، حيث فصلت المراعي الشتوية عن المراعي الصيفية. وقد نصت المادة الرابعة من الاتفاقية الايطالية الحبشية عام ١٩٠٨م على أن خط الحدود يجب أن يمر الى الشمال الغربي من نهر وبي شبيلي بحيث تقع كل أراضي القبائل «أوجادن» ضمن أثيوبيا. وقد بدأت لجنة ايطالية أثيوبية تحديد أراضي القبائل. ورغم أن تحديد الخط بين الصومال البريطاني وأثيوبيا صادف نجاحا عام ١٩٣٥، الا أن الصوماليين كان لهم حق عبور الحدود الى مراعيهم التقليدية في اقليم هود طبقا للمعاهدة البريطانية الأثيوبية عام ١٨٩٧.

وبرغم الحدود الاستعمارية فقد أدى ضغط الصوماليين المتواصل على قبائل الجالا في شمال شرقي كينيا الى زحزحتهم الى الغرب من النهر، فقد انخفض عدد الصوماليين في كينيا في عام ١٩٢١ نتيجة تنازل بريطانيا عن الاقليم الواقع بين نهر جوبا وحدود الصومال الايطالي، مكافأة لايطاليا على اشتراكها في الحرب العالمية الأولى، وقد اتفق على خط حدود يبعد ٦٠ ميلا شرق نهر تانا يعرف بخط الصومال Somali line ومنعت هجرة الصوماليين الى الغرب من هذا الخط، وذلك لحماية قبائل الجالا ولكن هذا الاجراء بدوره لم يصادف نجاحا يذكر، نظرا لأن الجماعات الصومالية في الوقت الحاضر تعيش على مرمى ١٠ أميال من الضفة الشرقية للنهر.

وقام نزاع على الحدود بين أثيوبيا وايطاليا عام ١٩٣٥، وفي نفس العام احتلت ايطاليا الحبشة، وبذلك ربطت بين شعب الصومال في أوجادن



شكل رقم (٢٦)

J. R. V., Prescott, The Geography of frontiers and Boundaries, London, 1967, p. 141.

وهناك عرض مفصل بالخرائط لمشكلة الصومال أيضاً في

Drysdale, John, The Somali Dispute, London, 1964.

والـصومال الايطالي، واحتلت ايطاليا الصومال (الايطالي) عام ١٩٤٠ غير أن الـسيادة الايطالية حلت محلها السيادة البريطانية في العام التالي، ورغم استقلال الحبشة الا أن بريطانيا استمرت في ادارة اقليم هود، وهذا معناه أن الشعب الصومالي استمر تحت الحكم البريطاني حتى عام ١٩٥٠ عندما وضع الـصومـال الايـطـالـي تحت الوصاية الايطالية من قبل الأمم المتحدة، حـاولـت ايـطـاليا الوصول الى اتفاق بشأن موضوع الحدود مع أثيوبيا خلال عشر الـسنوات التالية، ولكن دون جدوى. وبدأت وحدة الشعب الصومالي تـتـفـكـك عـام ١٩٥٤ عـنـدمـا رجع اقليم هود وبعض المناطق الأخرى الى أثـيـوبـيـا، وان كـانـت قد عقدت معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا لحفظ حق الـصومـالـيين الايطالي والبريطاني في جمهورية الصومال المستقلة. ورغم أن هـذا أدى الـى وحـدة بين شـعـب الـصـومـال فـانـه زاد مـن حدة النزاع مع أثـيـوبـيـا، وادعـت أثـيوبيا أنه ليس من حق حكومة الصومال وراثة حقوق أعـطـيـت لـلـحـكـومة الاثيوبية لضمان ولاء الصوماليين الذين يدخلون ضمن الحـدود الاثيوبية، وجذب الجمهورية الجديدة الى نوع من الاتحاد الفدرالي مـع أثيوبيا كما فعلت مع أرتريا، ووعدت أثيوبيا الصوماليين بفتح المدارس وبـنـاء المـسـتـشـفـيات وحفر الآبار، فضلا عن اقامة مشروعات توليد القوى الـكـهربائية على نهري جوبا وشبيلي، ولكن الصوماليين عارضوا كل تسوية مـع أثـيـوبـيـا، ممـا أدى الـى أن تـنـفـق حكومة الصومال ٢٠٪ من ميزانيتها (١٩٦٣) على المجهود الحربي.

وبـينما يـتـصـف النزاع الصومالي الأثيوبي بالقدم، نجد النزاع الصومالي الـكيني، أو طلب صوماليي كينيا الانضمام الى الصومال لا يرجع الا لعام ١٩٦١، وقـد اتـفـق الحـزبـان اللـذان يمـثـلان صـومـاليي كينيا في مطالبهم لـلـمـسـتـقـبـل،وتـتـمـثـل هـذه المطالب في عمل استفتاء في مديرية الحدود الشمالية في كينيا التي يعيش الصوماليون شرقها والبورون في غربها وهؤلاء أقرب الى الصوماليين منهم الى أهل كينيا، ويشرف على الاستفتاء أعضاء

من منظمة الأمم المتحدة ولكن من غير الأعضاء الافريقيين، وذلك بعد انسحاب قوات الشرطة والجيش التابعة لكينيا من الاقليم.

هذا ولا يؤيد قضية ضم صوماليي كينيا كونهم يرتبطون حضاريا بأهل جمهورية الصومال فحسب، بل لأن خط الحدود الهندسي يفصل بين المراعي الصيفية والمراعي الشتوية للقبائل، فضلا عن بعد هذا الاقليم عن بقية كينيا. وبطبيعة الحال لانجد أيا من الأحزاب المتصارعة في كينيا يوافق على اقتطاع نحو خمس مساحة كينيا وهي التي تكون المديرية الشمالية (N.F.D.) وهكذا تنقسم الأمة الصومالية بين ثلاث دول، الصومال، واثيوبيا، وكينيا.

التأكيد على ذكر القبيلة في شهادة الميلاد وإحداث فجوات في التنمية بين أجزاء المستعمرة

ويذهب البعض الى أن مسئولية الاستعمار تتعدى تخطيطه للحدود السياسية وايجاد هذه التجمعات القبلية، أو المجتمع المركب وقد رأينا أنه قبل الاستعمار، كانت هناك ممالك افريقية تضم أحيانا عناصر مختلفة، ولكن اختلف الحال في عهد الاستعمار، أو في المستعمرة، فهي قد تتشابه مع تلك الممالك في كونها نتيجة لتجمع عدد من القبائل أو أناس من أصول مختلفة جمعوا ليعيشوا معا في اطار سياسي واقتصادي واحد، ولكن في حالة المستعمرة، فان المسئولين عن ادارتها (الادارة الاستعمارية) ظلوا خارج النظام، فهم خالقون له فقط، أسسوا أجهزة لادارة هذه الوحدات الجديدة، وتولوا ادارتها، ولكن لم يكن هناك التقاء أو حوار بينهما، أو بمعنى آخر كان الحكام والمحكومين يكون لكل منهما مجتمعا منفصلا عن الآخر، وبمعنى آخر ما دام المستعمر مهتما فقط بادارة المستعمرة فقد استخدم رؤساء القبائل لبسط نفوذه، ومن ثم كانت سياسة لورد لوجارد في الحكم غير المباشر وتطبيقه في دولة كنيجيريا أو أوغندا، ولم يقتصر الأمر على

المستعمرات الانجليزية فحسب، بل تعداه الى المستعمرات الفرنسية سابقا، والتي كان يمارس فيها الحكم المباشر وفكرة التشرب الثقافي، ولم تحاول الادارة الاستعمارية خلق شعور جماعي بين رعايا المستعمرة، ولدعم هذا الرأي يمكن القول بأن الشخص الذي كان يولد في السنغال أو الكمرون، لم **يكن يشار اليه في السجلات الرسمية (شهادة الميلاد، التعليم الخ) الا بأنه من الولوف أو الدوالا او السرر أو البافيا تبعا لقبيلته، ولم يكن هناك اي اشارة الى الوحدة الادارية أو السياسية.**

فالغرض الأول للمستعمر كان استغلال ثروات هذه البلاد، وفتح أسواق جديدة، فكل ما يرغب فيه المستعمر هو ادارة تلك البلاد لمصلحة الحكومة وشعب الدولة المُستعمرة، وليست هناك حاجة لبذل جهد لخلق ظروف مواتية لتنمية احساس بقومية معينة والولاء لها، بل لم يكن هناك نية لعمل هذا، لأن ذلك الأمر سيتعارض في النهاية مع مصلحة المُستعمر.

والحكومات التي تولت أمور الدولة الافريقية المستقلة لم تفعل شيئا **عمليا** لبث الوعي القومي وتثبيته، وعندما يدينون الروح القبلية فيرجع هذا الى خوفهم على نظمهم، وكان من المتوقع أن يكون هؤلاء القادة الذين ناضلوا في سبيل الاستقلال أكثر وعيا فيما يختص بالوحدة القومية، لا بالخطب بل بالعمل، والفعل. كذلك خلق الاستعمار فجوات بين الاقاليم داخل المستعمرات بين الجهات الساحلية مثلا والجهات الداخلية نتيجة السياسة الاستعمارية التي تهدف الى الاستغلال الاقتصادي و يتضح الفارق بين الجهات الساحلية والداخلية في عملية التنمية، ذلك ان ادخال المحاصيل النقدية واستغلال الموارد ارتبط بالفترة الاستعمارية، وفي سبيل هذا بدأت عملية خلق أسس البنيان الاقتصادي Imfrastructure التي تمثلت في مد الطرق والخطوط الحديدية والقوى الكهربائية والمواني، بدأ كل هذا في الجهات الساحلية وساعد عليه اكثر من عامل، منها وفرة الرطوبة طول العام، ومنها ان الاستعمار بدأ في الأقاليم الساحلية، وفي

غرب افريقية كانت الامارات الاسلامية باسطة نفوذها في الداخل، من ثم كان النمو غير المتساوي، وظهور الفجوات في النمو الاقتصادي نتيجة تفاوت اهتمام المستعمر باقليم دون اقليم، والجدول التالي يبين التفاوت في التعليم الحديث بين الشمال والجنوب أو بين الداخل والساحل في نيجيريا كنموذج لما نقول.

(التعليم الحديث في نيجيريا قبل الاستقلال)(٣٢)

	جنوب نيجيريا		شمال نيجيريا	
	الطلاب المقيدون		الطلاب المقيدون	
السنة	تعليم ابتدائي	تعليم ثانوي	ابتدائي	ثانوي
١٩٠٦	١١٫٨٧٢	٢٠		صفر
١٩٢٦	١٣٨٫٢٤٩	٥١٨	٥٢١٠	صفر
١٩٤٧	٥٣٨٫٢٩١	٩٫٦٥٧	٧٠٫٩٦٢	٢٥١
١٩٥٧	٢٫٣٤٣٫٣١٧	٢٨٫٢٠٨	١٨٥٫٤٨٤	٣٫٦٤٣

هكذا أدت هذه العوامل المتشابكة إلى خلق مجتمعات لا مجتمع واحد داخل الدولة الواحدة، خلق دول مركبة بدلا من دول بسيطة التركيب. ولكن لنتساءل هل هذه الظاهرة تقتصر على الدول الافريقية ؟ لا إن هذه الظاهرة توجد أيضا في المجتمعات المتقدمة حتى في الولايات المتحدة الامريكية، ولكن دعونا نعرف كيف حققت هذه الدول المتقدمة الوحدة القومية ؟.

كيف حقق مؤسسو الولايات المتحدة الامريكية الوحدة القومية في مجتمعهم المركب؟

ان مشكلة المجتمع المركب لا تقتصر على افريقية، فهي موجودة في العالم الغربي كما نعرف في سويسرا وبلجيكا وكندا، حيث يتعدد اللسان وحيث يدعي السكان لأنفسهم ثقافات مختلفة، ولكن لا شك أن الولايات المتحدة قد تكون مثالا أكثر وضوحا على هذا التعدد كما في افريقية، فالاختلاف العرقي واضح في الولايات المتحدة حتى إنها معروفة عالميا بأنها بوتقة صهر امريكية American Melting Pot فأول ما يسترعي الانتباه للباحث الاجتماعي هو أنه لا يوجد انسان أمريكي في أمريكا، فيشير الناس الى أنفسهم بأنهم المان، أو ايطاليون أو صينيون أو يهود أو ايرلنديون أو زنوج ... الخ. حتى ليصبح من المغري القول بأنه لا توجد أمة امريكية، ويرجع هذا الى أن تعدد القوميات واضح للغاية، فضلا عن أهميته في الحياة الاجتماعية الامريكية، ويظهر هذا في المهرجانات والمناسبات، وفي تكوين الاتحادات والاندية الخ .. معظمها على أساس عرقي، ويظهر أيضا في اختلاف طرق المعيشة لدى الأسر الأمريكية، اجتماعيا وخلقيا وعقائديا، فلا يقتصر الأمر على وجود صدامات بين البيض والسود، ولكنك تجد أيضا تمييزا ومحاباة ان لم نقل تمييزا بين القوميات المختلفة كالايرلنديين والايطاليين والبولنديين الخ ... بل وقد يصل الأمر الى الزواج الداخلي، فما بالك بالجماعة الصينية التي تعيش متقوقعة! وتنتقل آثار هذا المجتمع المركب من الحياة الاجتماعية الى الحياة السياسية، وهو ما يهمنا في مجالنا هذا، فقد لا يفهم الانسان السياسة الامريكية الا بقدر ضئيل، اذا اقتصرت رؤيته السياسية على الحزبين المعروفين وأجهزتهما، ولم يضع في الاعتبار تأثير الجماعات العرقية، ولعل المقالة التي نشرت عقب انتخابات العمودية في غرب ولاية ماساشوسيتس في احدى الصحف الاقليمية توضح ما نقول حيث يذكر المقال بأن كل مرشح ديمقراطي يقابله

مرشح جمهوري في كل مدينة، ولكن شعار «الدم اكثف من الماء» مازال ساريا، وهو الحكم الحقيقي في لعبة الانتخابات، فيتجمع الايرلنديون في جانب، بينما يتجمع الابطاليون في الجانب الآخر، ومن المتعارف عليه أنه اذا كان حاكم ماساشوسيتس ايطاليا، فلابد أن يكون عمدة بوسطن ايرلنديا، وإلا حدث عدم توازن للقوى السياسية والاجتماعية هناك. واذا رجعنا للاستاذ لورنس فوش، Lawrence Fucho استاذ الحضارة السياسية في جامعة برانديز فسنجد في أحد فصول كتابه السياسة العرقية الأمريكية American Ethnic politics أن اليهود في الفترة مابين ١٩٠٠، ١٩٢٨ كانوا يصوتون لصالح الحزب الجمهوري اكثر من ٢لحزب الديمقراطي في انتخابات الرئاسة الامريكية، ولعل أهم الأسباب هو عداؤهم للايرلنديين، وفي فصل آخر يذكر ان لكل مرشح الدعاة السياسيين الذين مهمتهم القيام بالجولات المختلفة لجمع أصوات الجماعة العرقية، وبمجرد نجاح المرشح فلابد أن يبحث للذين انتخبوه عن وظائف مناسبة.(٣٣)

بل قد يتعدى هذا التأثير الى السياسة الخارجية، كما يذكر دكتور فوش، بل أحيانا تعاني السياسة الخارجية من هذا الولاء اللاقومي أو العرقي، فقد تضطر واشنطن للتصرف مع الأقطار الافريقية تحت ضغط القادة الزنوج الأمريكيين. ومن أمثلة تأثير جماعات الضغط العرقية أو الطائفية أنه عندما زار الملك فيصل الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٦٦ بدعوة رسمية، وصرح بأن أي دولة تساند اسرائيل تعتبر معادية للعرب، بسبب هذه العبارة الغى عمدة نيويورك كل الاحتفالات الرسمية والاستعدادات التي كانت ستقام احتفالا بالضيف الكبير، وقد حدث هذا بتأثير الجالية اليهودية، وبعد ذلك بأشهر معدودة قاطع السفراء العرب الحفل الذي أقامه عمدة نيويورك بمناسبة افتتاح دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة كرد فعل لتصرفه السابق(٣٤).

ولعل هذا يوضح تأثير هذا المجتمع المتعدد على الحياة الاجتماعية

والادارة المحلية وعلى المستوى القومي والعلاقات الخارجية ومع ذلك فلا يمكن للانسان أن ينكر أن هناك مجتمعا أمريكيا وأمة أمريكية.

فهناك نظام اجتماعي اقتصادي في الولايات المتحدة الامريكية يعطي الامريكيين الفرص لتحقيق أحلامهم، ويؤمن مصالحهم، ويحسن من أحوالهم اذا هم رغبوا، وكان لديهم التصميم على ذلك، من ثم فالمجموعات العرقية المختلفة قد تعمل في داخل هذا الاطار القومي لدفع مصالح افرادها الى الامام، لأن الجماعات العرقية لا يمكن أن تفي بمطالب وحاجات أفرادها اذا عملت في داخل أطرها المحدودة، ذلك أن الاطار القومي يقدم فرصا أفضل وأكثر ولعل هذا أحد أسباب التصاق الامريكيين بالاطار القومي وتفضيله، اذن لا يرجع هذا لأسباب عاطفية، لأننا رأينا أن ولاءهم العاطفي غالبا ما يتجه الى قومياتهم الأصلية، ولكنه يرجع الى أن النظام القومي يقدم «سلعا» أفضل وأكثر تنوعا.

ومازال النظام السياسى الامريكي رغم ماقد يؤخذ عليه أحيانا يسمح للأمريكيين بالتعبير عن آرائهم فيما يخص بلادهم، وهذا ما يشعر به الامريكيون على الأقل، فقد يكتبون الى رئيس الجمهورية أو الى الكونجرس ويحصلون على ردود، أو يجمعون التوقيعات، كل هذا يجعل الناس يحسون أن هناك متنفسا لهم جميعا، وأنهم يمكنهم أن يسمعوا أصواتهم، فيعتقدون ان مثل هذا النظام يعمل لصالحهم جميعا.

وهناك أيضا لغة قومية يتكلمها الجميع، وان كان البعض مازال يحتفظ أيضا بلغته الأصلية، بل يرسلون أبناءهم على فترات الى الأوطان الأصلية لإجادة لغة الاباء، والبعض الآخر مازال يتكلم لغته الأصلية في العلاقات العائلية، وهذا الاستخدام للغة جديدة (الانجليزية) بواسطة المجموعات القومية الأخرى لا يرجع لأسباب عاطفية، ولكن ليشقوا حياتهم في مجتمع ضخم تعتبر الانجليزية فيه مفتاحا للفرص وللتمتع بمزايا النظام الامريكي.

وهكذا حقق مؤسسو الولايات المتحدة الامريكية الوحدة القومية

للعناصر العرقية المختلفة من خلال العطاء الذي يقدمه الاطار القومي الواسع للسكان من تحقيق لمطالبهم وفتح فرص أوسع مما يمكن ان يحققه الاطار الضيق، وهذا ما لا يتحقق في الدول الافريقية فما زال ضروريا معرفة أصل الفرد والى أي قبيلة ينتمي حتى تقضى حاجته لدى الوزير، أو يحصل على قرض من البنك ... الخ.

لماذا لم يكن الاستقلال مصحوبا ببناء الأمة في الدول الافريقية؟

اتصفت الدول الافريقية بعد الاستقلال بعدم الاستقرار، لأن فترة جمح المطالب الفردية والطائفية واخضاعها للمصلحة العامة قد انتهت بخروج الاستعمار، وتحول التوتر والشد الذي مارسته الجموع الافريقية مع المستعمر الى ما يشبه الصراع الداخلي أحيانا، صراع على السلطة بين الفرق المختلفة، حتى يتغلب فريق على فريق، ولكن هذا المغلوب يظل متربصا ينتظر الفرصة للانقضاض، وكان هناك اعتقاد ضمنا بأن التوتر الناتج عن القهر والعداء للاستعمار سوف يزول بزواله، وأن هناك لمسة من المدينة الفاضلة ستحظى بها الدول الافريقية، بل واعتقد الكثيرون بأن الحرية السياسية معناها نهاية الضبط الاجتماعي، واعادة توزيع الثروة، هكذا كان اعتقاد معظم أهل الريف، بل ومعظم سكان الحضر، حتى ولو كان هذا الاعتقاد الكاذب وقتيا، وعدم تحقيق هذه الامنيات يخلق شعورا بالاحباط وعدم الرضا، وبالتالي فقدان الثقة في القيادات، ويذكي نار عدم الرضا بين القبائل غير الموالية للنظام الحاكم، مهما ردد القادة الافريقيون بعد ذلك بان الاستقلال ليس سحرا، بل عمل شاق واعتماد على النفس، ولنضرب المثل بأنجولا بعد الاستقلال:

لم تستقر تماما بعد تصفية الصراعات بين حركات التحرير المختلفة، وتولى الطبيب الشاعر أو جسيتينو نيتو زعيم الحركة الشعبية مقاليد الأمور، وبرغم المساعدات المالية الضخمة التي وصلتها، ودخلها السنوي من البترول

الذي تستغله شركة جلف أويل، ويبلغ نحو ٤٠٠ مليون دولار سنويا، فما زالت في موضع حرج من الناحيتين السياسية والاقتصادية، فمن مشكلاتها قلة الكوادر الفنية، من سائق السيارة الى المهندس المتخصص، ولا يقل عن هذا ما تركته حرب التحرير من آثار على وجه البلاد، يكفي مثلا أنه عند الاستقلال كان قد خرب مائة وعشرون جسرا منها تسعة جسور ضخمة يمر عليها الخط الحديدي الرئيسي الذي ينقل منتجات البلاد، كذلك تدمير أربعة اخماس السيارات الشاحنة التي كانت تعمل قبل الاستقلال، ومنها هجر كثير من السكان لأراضيهم، وعدم عودتهم اليها مرة أخرى. أما من الناحية السياسية فكانت مشكلة قلة الوعي، فالاستقلال كان معناه لديهم ان ما كان في أيدي البرتغاليين سيوزع عليهم وعلى أقربائهم، وليس لديهم فكرة عن المصلحة العامة، فلما لم يحدث أثاروا شغبا واضرابا، ودمروا أحد المصانع في العاصمة، وطالبوا بزيادة في الأجور، رغم أن حالة الانتاج لا تسمح بذلك، ونتج هذا عن قلة الوعي السياسي وانتشار روح القبلية وعدم الثقة من جانب قبيلتي الباكونجو والأوقيمبندو المواليتين لحركات التحرير الأخرى التي منيت بالهزيمة ولم تصل للحكم.

لا يمكن تنمية دولة ما عن طريق زيادة عدد الذين يوظفون في الخدمات الى الضعف أو ثلاثة الأضعاف، أو توزيع الوظائف على الاصحاب والاقارب، ولكن على أساس تحريك السكان للعمل المنتج، ولكن الصناعة الرئيسية في الدول الافريقية أصبحت العمل الاداري، وهي صناعة مكلفة وخاسرة بالنسبة للدولة ككل، فالعمل الاداري بعد الاستقلال انتفخ بدلا من ان ينكمش حيث يمتص ٦٠٪ من الدخل القومي في بلد مثل بنين (داهومي سابقا)(٣٥) ولعل بلقنة افريقية كانت أحد هذه الأسباب، اذ تتعدد المجالس النيابية والحكومات والجيوش والتمثيل الخارجي ... الخ فجابون وحدها بسكان يبلغون نحو نصف مليون يمثلهم خمسة وستون نائبا في البرلمان، أي نائب لكل ٧ آلاف نسمة بينما في فرنسا

النسبة واحد لكل مائة ألف، وكل نائب له سيارة رسمية بسائقها، وغالبا لا تكون من الانواع المتواضعة، ولا يمكن لرئيس وزراء بنين مثلا أن يخرج دون موكبه الرسمي. كما يحلم كثير من رؤساء دول الفرانكفون بقصر يشبه الاليزيه، وقد كلف قصر رئيس إحدى الدول الافريقية نحو ٤ بلايين فرنك فرنسي، واضطر الى ازالة كثير من المباني الجديدة حتى تمتد الحدائق لمسافات واسعة كما في فرساي.(٣٦)

وانتقلت هذه الروح الى موظفي الدولة، فأي زيارة لأحد المسئولين حتى ولو كان في أحد المراكز الحضرية البعيدة عن العاصمة، لابد أن تتضمن مشروبا روحيا مستوردا، وفاكهة مستوردة رغم ان الفاكهة المحلية من مانجو وموز قد تكون متوفرة، واذا نظرنا الى المساكن في داكار عاصمة السنغال فسنجد الدارات الحديثة التي تبنى بعيدا عن بعضها تحيط بها الحدائق، فأين هذا من مساكن غالبية المواطنين المزدحمة المكدسة؟

واذا تركنا جانبا تكاليف البناء المرتفعة، فسنجد تكاليف أخرى في الخدمات والطرق، وتوصيلات المياه والغاز والكهرباء، والهاتف، بينما المساكن المرتفعة ذات عشرة الأدوار فما فوق قد تكون أقل تكلفة.

وتسمع بأن رئيس احدى الدول الافريقية يشتري قصرا ضخما تحيط به الحدائق بالقرب من جامعة كاليفورنيا بقيمة ٢٫٢ مليون دولار، حتى تتمكن ابنته من الذهاب الى جامعة كاليفورنيا دون عناء كبير، وفي نفس الوقت يعلن هذا الرئيس برنامجا للتقشف المالي في بلاده عام ١٩٧٩. وفي الحق لم يكن الاستقلال السياسي مصحوبا ببناء الأمة مما يفسر الى حد كبير عودة أو إحياء التعصب العرقي.

ولا شك ان القادة الافريقيين ومستشاريهم يعون هذه الحقيقة، ويفكرون في اسلوب العمل للوحدة الوطنية، وإحدى هذه الوسائل والتي ينادي بها معظم القادة الافريقيين هي محاربة القبلية دون هوادة في كل

مظاهرها، تجد هذا في خطب الرؤساء الحاليين والسابقين أمثال نكروما، سيكوتوري، وأوبوتي وسنجور، وان كان الأخير يشير اليها بروح العشيرة Clanisme, i Esprit de clan وهي تعبر عن نفس الحقيقة، من ثم يعارض القادة الافريقيون بالاجماع هذه الروح القبلية.

يقول سيكوتوري في إحدى خطبه «عندما يذكر الانسان الحزب الديمقراطي الغيني (P. D. G.) فهو يذكر الحكومة، والدولة، وأيضا المجتمع» وكذلك المعادلة التي قال بها نكروما أيام حكمه لغانا : غانا هي حزب الميثاق الشعبي،وحزب الميثاق الشعبي هو نكروما . ولكن رغبة الحكام بالوحدة بين أبناء الأمة معناها بالنسبة لهم هو حكم هؤلاء الناس في نفس الوقت الذي لم تشبع فيه حاجات هؤلاء الناس ومصالحهم، ومثل هذا الوضع قد ينتج عنه خضوع يطول أمده ، ولكنه لن يخلق ولاء حقيقيا، فالقبلية لا تحارب بالخطب والعواطف، أو باصدار القوانين التي تحرمها، بل عمليا بجعل النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الجديد أكثر جاذبية من النظام الاستعماري القديم، حتى يحس الناس بأن الظروف الاجتماعية الجديدة تجعلهم جميعا آمنين، وهذا يقتضي عدالة اجتماعية وتوزيع الموارد القومية طبقا لحاجات الناس،وانتاجهم . لا طبقا لانتمائهم القبلي و يتضمن كذلك فتح الفرص المتساوية أمام المواطنين جميعا لتحسين أحوالهم، وأن يقوم النظام السياسي على أساس أن تعبر كل الفئات عن آرائها، وأن يحس المواطنون في قادتهم قدوة ومثلا أعلى، وأن تكون مصالحهم موضع اعتبار اصحاب القرار. هذا هو ما ينقص كثيرا من الدول الافريقية، فهناك النقص في «الآباء المؤسسين» الذين تحركهم ايديولوجيات حقيقية لبناء أممهم فقد أدى هذا النقص الى فقدان ثقة الجماهير العريضة بهم ، وبالنظام السياسي القائم ، وشكهم أنه في امكانه حل مشكلاتهم ، مما أدى الى كثرة الخلافات السياسية ، وأحيانا الى الانسحاب من الحياة العامة، ولا يرجع هذا الى عدم كفاءة الجماهير

للتغلب على الوعي القبلي ، فقد أثبتت في نضال التحرير هذه القدرة، وخلال ذلك الجهاد كانت الجماهير تثق في قادتها، وتمنحهم الدعم، والتأييد الشامل، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا حقيقة أن النظام السياسي والاجتماعي الجديد الذي ورث الاستعمار هو لحماية مزايا اقتصادية واجتماعية لفئة معينة ، وأن القادة الحاليين يريدون الابقاء على هذه المزايا لأنها في صالحهم ، من ثم سرعان ما سحبت الجماهير ثقتها من الحكام ، بل من كل النظام الاجتماعي والسياسي السائد ، وكانت احدى وسائل التعبير هي الانسحاب من الاشتراك في الحياة العامة، ومن نشاطات الأحزاب والتي لا ينشط فيها الا المستفيدون ، و يظهر عدم الرضاء أيضا بمظاهر الفرح والابتهاج التي تصاحب قيام انقلاب، والتي تدل على الفرح بذهاب نظام سابق، أكثر من كونها تأييدا لنظام جديد، من ثم فعلى النظام الجديد الذي أتى بعد الاستقلال أن يزيل أزمة عدم الثقة الجماهيرية في المكان الأول ، والمقاومة السلبية التي يجدها، لا بواسطة التهديد والسلاح، ولكن باهتمامه بالجماهير عمليا ، فهذا هو الذي يقنع الجماهير بأن رفاهيتهم وسعادتهم يمكن أن تتم من خلال القنوات القومية لا القبلية، فالعقبتان الرئيسيتان في اعتقادي هما :

١ ـ نقص القيادات التي تهب نفسها للبناء القومي .

٢ ـ عدم ثقة الجماهير بقياداتها وعدم اهتمامها بالشئون القومية بعد أن خدعتها قياداتها .

ثم يأتي في المكان الثالث عدم وجود الحد الأدنى من الثقافة القومية لدى الشعوب الافريقية .



الحواشي

(١) East, G., Prescott, T.R. "Our Fragmented World, An introduction to political geography, mac millan. London; 1975, p. 32.

(٢) Ibid., P. 33.

(٣) Coleman, J. "Nationalism in Tropical Africa", in Mcwan. P.J., Sutchff eds. "The Study of Africa", London, 1965. pp. 160 -162.

(٤) Mfoulu: "Ethnic Pluralism and National unity in Africa" in "symosium Leo forbenius, Deutsche unesco - 1974; p. 113.

(٥) Ibid., p. 113.

(٦) ويقول الجغرافي البريطاني ددلي ستامب أنه في إحدى زياراته لصيدلية في لاجوس عاصمة نيجيريا، فوجيء بوجود أحدث العقاقير المستوردة من أوروبا وامريكا، جنبا الى جنب مع وصفات الاطباء التقليديين وهم السحرة، فتوجد بعض بذور وجذور نباتية، وعظام، وقطع جلود، وهي التي تلقى عليها التعاويذ، وفي الريف يمكن أن تجد في الكوخ المصنوع من الطين راديو ترانزستور أو جرامفون، برغم أن الكوخ قد يكون خاويا من الاثاث راجع

Stamp, D. "Africa a Study in Tropical Development", London, 1964, pp. 191 - 192.

(٧) op. Cit., p. 114.

(٨) Wallerstein, I., "Independence and After", in Roger E., Kaperson and Minghi Julian, The Structure Political Geography, London 1970 p. 273.

(٩) محمد عبدالغني سعودي : الجغرافية والمشكلات الدولية

(١٠) East, G. Prescott, J.R. out Fragmented World.

(١١) Hodder, W., "Africa Today" London 1977. p. 44.

(١٢) من الامثلة الواضحة على استغلال الاستعمار لموضوع اللغة منع الانجليز انتشار اللغة العربية من شمالي السودان الى جنوبه، فضلا عن الدين الاسلامي، وفي نفس الوقت أفسح المجال للبعثات التبشيرية لتعليم الجنوبيين اللغة الانجليزية. وقد جاء في مذكرة السكرتير المدني حول السياسة الجنوبية فيما يختص باللغة في الجنوب ضرورة تنفيذ سياسة تهيئة موظفين لا يتكلمون العربية، وان تكون الانجليزية هي لغة المكاتب (الادارة). وعُقد مؤتمر للغات المحلية في بلدة الرجاف في جنوب السودان وأوصى هذا المؤتمر باستخدام اللغات المحلية، وعين دكتور Tucker الخبير اللغوي لتقديم المشورة في انتاج الكتيبات الملائمة وتعترف المذكرة باستعمال اللغة الانجليزية في الاتصال بالاهالي حين يتعذر استخدام اللغات المحلية. راجع مدثر عبدالرحيم : الامبريالية والقومية في السودان، دراسة للتطور الدستوري والسياسي ١٨٩٩/١٩٥٩ بيروت ٧١ ص ٢٦٠ — ٢٦٢

(١٣) Mensah, Ebow, "Tribalism and Africa consciousness Insight and opinion, vol. 5. no I. 1970, p. 81.

(١٤) Hodder, B.W., Harris, D.R. Africa in Transition, London, 1967. p. 213.

(١٥) Hodder W.B., Africa Today. p. 52.

(١٦) Mfoulu, Jean. Ethnic pluralism and National unity in Africa pp. 115 - 116.

(١٧) محمد عبدالغني سعودي، لماذا طرد عيدي أمين الأسيويين من أوغندا، القاهرة، الأهرام ١٣/١٠/١٩٧٢.

(١٨) ويضرب Wallerstein المثل باقليم كازامنس في السنغال، وشمالي داهومي، وتوجو، وساحل العاج، واقليم الغابة في غينيا، فمثل هذه الأقاليم في أقطار الفرانكفون الافريقية متخلفة تقليديا وآنيا، والمقصود بالتخلف على المستوى التقليدي أن أبناءها ينظر اليهم نظرة احتقار من جانب غالبية السكان، أما عن تخلفها الآن فمظهره انخفاض متوسط دخل الفرد عن المتوسط العام في الدولة، وزيادة نسبة البطالة بصورة أكبر عن نظيرتها في البلاد، وقلة الاستثمارات فيها، وقلة كوادرها المتعلمة نسبيا، وعدم اسهام الاقليم في النشاط الاقتصادي التبادلي الى غير ذلك، ومما هو جدير بالذكر أيضا أن المنافسات العرقية قد تكون حادة أيضا بين الجماعات العرقية المتقدمة (بين الفون والجون في داهومي، والأجني والباولي في ساحل العاج، والدجراما والهوسا في النيجر والمالنكي والبيل في غينيا الخ. والجدير بالذكر أن لدى كل قبيلة النخبة التقليدية التي يتفاوت نفوذها، الى جانب النخبة الحديثة المتعلمة والتي تعتبر ممثلة للقبيلة سواء داخل الحزب أو على مستوى الدولة، وكل هذا يضعف من الولاء القومي، بقدر ما يقوي من الولاء العرقي انظر

Wallerstein, I, "Elites in French Speaking West Africa" Jour.
Modern Africa. Studies, Vol 3, no I, 1965, p. 19.

(١٩) Wallerstein, I, "Independence and After", op, Cit, p. 274..

(٢٠) Rogge, R, John, "The Balkanization of Nigeria Ferderal system," A Case Study in the Political Geography of Africa" Jour. of geography, Vol 76, no 4. 1977, P. 14.

(٢١) محمد عبدالغني سعودي : افريقية ، دراسة في شخصية الأقاليم ، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٢٢) FAO, World Coffee Survey, 1969, P. 14.

(٢٣) Morgan, Edward, "A Geographic Evaluation of the Ethiopia - Eriteria Conflict", Jour. Modern Africa Studies, vol 15. No 4. 1977, pp. 667 - 674.

(٢٤) Barbour, K.M. "The Nile Basin, Social and Economic Revolution, in "Prothero, R., ed A Geography of Africa", London 1973, pp. 88 - 100.

(٢٥) Hodder, W.B., Africa Today, op. cit., p. 113.

(٢٦) محمد عبدالغني سعودي : افريقية دراسة في شخصية الاقاليم ص ٣٣٨ ، ٣٣٩

(٢٧) Morgan, W.B. Pugh, J.C., "West Africa London", 1969. pp. 9 -13.

(٢٨) Dikshit, D.R., "The River state of Gambia", Africa Quarterly, vol IV, no 4. 1965, p. 235.

(٢٩) محمد محمود الصياد، محمد عبدالغني سعودي ، السودان ، دراسة في الوضع الطبيعي ، والكيان البشري والبناء الاقتصادي ، القاهرة ١٩٦٦، ص ٤ .

(٣٠) هناك عرض مفصل لهذه المشكلة في دراسة

Coleman, James, S., "Togoland", International Conciliation, New York, 1965, pp. 1 - 33.

(٣١) عرض مفصل لمشكلة الصومال بخرائطها في كتاب

Drysdale, John, The Somali Dispute, London, 1964.

(٣٢) Carol Hans, "The making of Nigeria's Political Regions", Jour of Asian and African Studies, London, 1964, vol 3., p. 273.

(٣٣) Mfoulu, Jean "Ethnic Pluralism and national unity in Africa, pp. 119. 120.

(٣٤) Ibid., p. 121.

(٣٥) René Dumont, "False Start in Africa", London 1968, p. 66.

(٣٦) Ibid., P. 69.



خاتمة

وبعد، فهذا عرض لبعض المشكلات والقضايا التي تثور في افريقية، وهناك العديد من المشكلات التي تعاني منها القارة وتتحدى دولها المستقلة، كقضية التنمية الاقتصادية وهي أم المشكلات، وقضية التنمية البشرية والاجتماعية، التي تبحث عن التعليم المناسب، والصحة الأفضل، وقضايا حقوق الانسان المهضومة في روديسيا وجنوب افريقية، وقضايا الحدود السياسية وغيرها مما لا تستوعبه صحائف كتاب واحد، وانه لا يكفي لأن يكون للدولة وللشعب الذي يسكنها ماض فقط، بل لابد له من حاضر ولكي يعيش الحاضر يجب أن يواجه التحديات، تحديات العالم المعاصر المحيط به.

ولكن العالم من حول افريقية لا يجوز أن يكتفي بأن يدرس افريقية، ويقف متفرجا، فقد قدمت افريقية الى المجتمع الدولي الكثير، من ثم كان على المجتمع الدولي أن يقوم بدوره كاملا في الأخذ بيد دولها، والاسهام في حل قضاياها، برفع يده عن التدخل في شئونها الداخلية بارسال قوات أجنبية هنا وهناك، أو بتدبير الانقلابات، لأن هذه الأمور تعمل دوما على عدم الاستقرار، وتزيد حدة العرقية وتوقف التنمية، وعلى الدول الافريقية الا تترك ميادينها ساحة للصراع بين الشرق والغرب.

يمكن للعالم أن يتعاطف مع الافارقة لانهاء مشكلة الاقلية البيضاء في أروقة الأمم المتحدة وخارجها، والا فكيف نفسر عدم جدوى قرار مجلس الأمن بمنع وصول السلع الاستراتيجية كالبترول الى جنوب افريقية ؟

هل الدول التي تتبعها شركات البترول العالمية لا تعرف ماتقوم به شركاتها بعد أربعة عشر عاما من صدور قرارات المقاطعة ؟

ومن المؤكد أنه يمكن الوصول الى تسوية للمشكلات العنصرية في جنوب القارة، خاصة وأن الافريقي أكرم من الأوربي، فلم يطلب

لتسويتها خروج الدخيل .

ودورنا نحن العرب أن نساند الحق الافريقي، فالافارقة ذوو قربى ، ونحن جزء منهم ، وهم جزء منا ، ولكن هذه المساندة يجب أن تكون عن معرفة ودراية بأصول كل مشكلة وجذورها ، فقد انقضى عهد التعميم، وسمة العصر التخصيص .



المحتوى

صدر في هذه السلسلة



المؤلف في سطور

د. محمد عبد الغني سعودي

■ ولد في القاهرة عام ١٩٣١ .

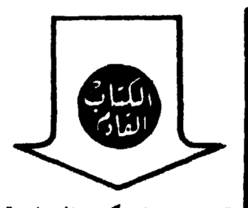
■ تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٥٢ .

■ حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٦٢ .

■ عمل استاذا ورئيسا لقسم الجغرافية بمعهد البحوث والدراسات الافريقية ـــ جامعة القاهرة ومعار الآن لجامعة الكويت .

■ له العديد من المؤلفات والأبحاث والترجمات منها :

الوطن العربي، السودان، الاقتصاد الافريقي والتجارة الدولية، التكامل الاقتصادي الافريقي، موريتانيا جسر العروبة والاسلام الى غرب إفريقية .



تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي بين ١٩٣٠ ـــ ١٩٧٠

تأليف

د. محمد جابر الانصاري

الكويت	٢٥٠	فلسا	ليبيا	٢٥	قرشا	عمان	٤	ريال
السعودية	٥	ريال	المغرب	٥	دراهم	اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
العراق	٣٠٠	فلسا	تونس	٥٠٠	مليم	اليمن الشمالية	٤ر٥	ريال
الاردن	٢٥٠	فلسا	الجزائر	٥	دنانير	البحرين	٤٠٠	فلس
سوريا	٣	ليرات	مصر	٢٥٠	مليما	قطر	٥	ريال
لبنان	٢ر٥	ليرة	السودان	٢٥٠	مليما	الامارات العربية	٥	درهم

الاشتركات : يكتب بشأنها الى المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب،
ص ب ٢٣٩٩٦ ـ الكويت